الرحلة
إلى المدينة المنورة

مأمون محمود ياسين

يقدم

من أدب الرحلات

الرحلة إلى المدينة المنورة

الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

وصف كامل شامل لرحلة الزيارة إلى المدينة المنورة : التي قامت بها (جمعية الهداية الإسلامية بدمشق) بين الحربين العالميتين الأولى والثانية . بعد أن حقق المستعمر أمنية كبرى ، بنسف الخط الحديدي الحجازي ، الذي يربط بلاد الشام ببلاد الحجاز : ليقطع المواصلات والتجارة فيما بين هذه البلدان . محققاً أهدافه الاقتصادية والسياسية والعقائدية ، باسطاً نفوذه ، على مبدأ (فرِّق تَسُدْ) . وليحارب الأمة في أعظم شعائرها (الحج) والعمرة والزيارة ، في هذه المنطقة من العالم ، ومن يفد إليها من شمال وشرق البلاد الإسلامية ، المترامية الأطراف . وَصَفَ هذه الرحلةَ (الاستكشافية) رئيسُ جمعيتها العلاّمة المحدثُ المرحوم الشيخ محمود أحمد ياسين ، بأسلوب واقعي علمي متأدب . تناول فيه جميع الجوانب التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، في كل قرية وكل مدينة مَرَّ بها وفد الزيارة ، مابين دمشق والمدينة المنورة ، تمهيداً لإعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي ، يوم لم يكن ثمة طريق برية معبدة . وقد وصف كل لقاء لعالم ، أو اجتماع مع فقيه ومادار في هذه اللقاءات من أحكام شرعية ومسائل دينية .

كما وصف احتفاءَ الحكام والأمراء بهذا الوفد الكريم .

ولسوف يلمس القارئ (العناية الإلهية) التي رافقت وفد الزيارة ، من مبدأ الرحلة ، بعد الاحتفال الشعبي الكبير في جامع بني أمية في دمشق ، وحتى

عودته الحميدة التي استُقبل فيها بأرتال المهنئين والمستقبلين ، من وجهاء وخطباء وشعراء .

وقد أربى عدد الذين شاركوا في هذه الرحلة الميمونة ، على أربعمئة رجل وامرأة ، من جميع أطراف البلدان السورية .

كل هذا مع صور للكتب المتبادلة ، بين جمعية الهداية الإسلامية ، ورئيس مجلس المديرين في الحكومة السورية آنذاك ، وبين الجمعية والمفوض السامي الفرنسي في سورية . حتى تم الحصول على الإذن بالسفر من المندوبية الفرنسية بدمشق .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين ، وبعد :

فهذه رحلة جمعية الهداية الإسلامية بدمشق إلى المدينة المنورة ؛ لافتتاح الطريق البرية بينهما ، كتبها بيده رئيس الجمعية سيدي الوالد المحدث المرحوم الشيخ محمود ياسين ؛ بعد عودته الحميدة مع وفد الزيارة الذي نيف على أربع مئة زائر وزائرة ، افتتحوا خلالها هذه الطريق البرية بعد أن أجهزت قوى الاستعمار على الخط الحديدي الحجازي ، لغايات **دينية وسياسية واقتصادية** في هذه المناطق . وقد تم تحطيم هذا الخط في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم تكالبت أطماع بعض الشركات البحرية ، بما نالته من الامتياز في حصر سفر الحجاج وإكراههم على الركوب في بواخرها من مرفأ بيروت ميناء لبنان إلى مرفأ جدة ميناء الحجاز .

يريد ـ رحمه الله ـ في كتابة هذه الرحلة أن يلفت نظر كل مسلم إلى أهمية هذا الخط الحديدي ، وضرورة إعادة تسييره لما في ذلك من فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية ، تعود بالنفع العميم على هذه الأقطار العربية الإسلامية . لذا عملت الجمعية للحصول على إذن من مندوب المفوض السامي الفرنسي في الحكومة السورية سنة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م لزيارة مسجد المصطفى ﷺ بطريق البر ؛ متأملة عودة الحياة التي تربط بلاد الشام ومن يقدم إليها في مواسم الحج والزيارة ؛ من تركيا شمالاً وإيران شرقاً وغيرهما من بلاد الإسلام ، بالمملكة العربية السعودية موئل الإسلام والمسلمين ، ومهبط الوحي من الله ، على

نبيه أفضل الصلاة والتسليم . وتتناول هذه الرحلة بالإضافة إلى السرد الأدبي المباشر والأسلوب الواقعي الشائق جوانب :

أ ـ دينية ، أخلاقية .
ب ـ جوانب تاريخية .
جـ ـ جوانب أدبية .
د ـ جوانب جغرافية .
هـ ـ جوانب اقتصادية .
و ـ جوانب اجتماعية .

وأحياناً تتداخل بعض هذه الجوانب ببعض ، فيحدثك خلال الجانب (الاجتماعي) عن (تاريخ) بعض المعارك ، ويقدم لك أحياناً فتاوى وآراء (دينية) ؛ وهو يبحث في الجانب (الأخلاقي) .

أ ـ الناحية الدينية ، الأخلاقية

تعرضت هذه الرحلة لكثير من أحكام الطهارة والصلاة والتيمم والجمع والقصر وأوقات الصلاة ، والتعامل بين أفراد الرحلة من وفاء حقوق وتأدية واجبات ، كل في مكانه منذ مغادرة الوفد لدمشق حتى وصوله أرض المدينة المشرفة ، إلى عودته الحميدة . فضلاً عن البحوث العلمية والمناظرات الدينية التي أقيمت مع بعض علماء المدينة بعد الحديث المفصل عن حياة هؤلاء الأفذاذ ، من ذلك مثلاً مذاكرته مع الشيخ عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي حول حديث الشفاعة الذي انتهى بينهما بجواز التشفع بالنبي ﷺ والاستسقاء به وبالصالحين ، كما أوردته الأحاديث المصححة ، وعن كيفية الصلاة على النبي ﷺ وآراء العلماء فيها .

ب ـ الناحية التاريخية في الرحلة

يتناول كاتب الرحلة فيها شيئاً من تاريخ الخط الحجازي الحديدي ، الذي هو محور هذه الرحلة ، يربط بين شمال بلاد المسلمين وجنوبها ، ويعمل على

تقريب المسافة بينهم وجمع الكلمة وتوحيد الجهود ؛ تلك الروابط التي قطعها المستعمر بيديه ليحول دون اتصال الرأس بالجسد المترامي الأطراف ، على ماحباهم الله بفضله من خيرات وإمكانات ، وهو إلى جانب ذلك يذكّر بتاريخ هذه الشعوب وحضارة هذه الأمة كلما سنحت له فرصة أو واتته مناسبة ، منذ زمن الحبيب الأعظم حتى القرون التي تلت قرنه وإلى يومنا هذا . فإذا مرّ ببلد تحدث عن تاريخ هذا البلد ، أو دعاهم أمير تحدث عن الإمارة والأمير ؛ مطرياً ومثنياً على الملك عبد العزيز آل سعود ، ليستميل قلبه الكبير في توحيد هذه الأمة المبعثرة والشعوب الممزقة ، لاعتقاده بأن هذا الملك يملك أن يفعل إذا كان غيره يملك أن يقول . ويحدثك عن تاريخ الحرم النبوي الشريف بكثير من الدقة والشمولية وأمانة النقل . كما يتحدث عن البقيع وعن آل بيت الرسول ﷺ : زوجاته وأولاده ، أعمامه وعماته ، ومشاهد كل منهم ، وعن تاريخ المهاجرين من علماء المسلمين إلى تلك البقاع من جميع الجنسيات والشعوب ، وعن سقوط الخاتم الشريف من يد سيدنا عثمان في بئر أريس ، وعن كثير من الجوانب التاريخية الأخرى ، بين المدينة ودمشق .

جـ - الناحية الأدبية واللغوية

وفي الناحية الأدبية جانبان : أحدهما صياغة الرحلة نفسها بأسلوب أدبي شائق ، مليء بالسرد تارة ، والوصف تارة أخرى ، وبالحوار ثالثة . يريك كل صغيرة وكبيرة منذ أن غادر الوفد أرض الشام بأسلوب واقعي ممتع ، يُلمسك ماتحمّله الوفد من نصب وعناء لبلوغ هذه الغاية . كما يحدثك عن حركة الإعلام التي رافقت الرحلة من البدء إلى الختام . وفي الجانب الأدبي الآخر يقدم لك الكلمات والخطب والقصائد الشعرية التي كانت تلقى بين يدي الوفد في حلّه وترحاله ، وكلها صادق العاطفة رائع الأسلوب . يلقيها رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فهم يعبرون بألسنتهم عما يجيش في صدر كل مسلم من حب صادق

لوحدة هذه الشعوب ، التي استطاع أن يسيطر عليها المستعمر بشكل أو بآخر : بأنظمته الاستكبارية في العالم على مبدأ (فرّق تسدْ) ، وذلك ليسهل عليه قضمها وهضمها . وثمة جانب ثالث لغوي ، حينما يرجع بك إلى المعاجم المتنوعة كلما مرّ بكلمة لغوية . (انظر حديثه عن القيافة والعرافة ، وفعل قاف يقوف واشتقاقاته التي لم يدع فيها معجماً إلا عاد إليه ، ولا مرجعاً إلا وثق كلامه به) . ولعلك تجد في المهرجان الأدبي الضخم الذي أقيم في الجامع الأموي في حفلة وداع تاريخية ، اهتزت لها دمشق الشام في العاشر من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ / ١٧ نيسان ١٩٤٠ م ، أمام ضريح سيدنا يحيى ، وما كان في هذا الاحتفال الضخم من أدب وخطابة وشعر ، لعلك تجد غنية في هذه الناحية من الرحلة عن كثير من الكتب الأدبية .

د ـ الناحية الجغرافية

لقد تناولت الرحلة وصف الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة ، شعابها وهضابها ، سهولها وجبالها ، رمالها وصخورها ، هوائها ومائها ، وأخيراً شعوبها وسكانها . وكان خط السير كما طلبوا بالإذن من المندوب السامي الفرنسي : دمشق ـ درعا ـ عمان ـ معان ـ المدورة ـ تبوك ـ العُلا ـ المدينة المنورة . فيحدثك عن جغرافية هذه البلاد ، وعن تبوك خاصة ، وعن مدائن صالح ، وذات الحج أول أراضي السعودية . والبلاد التي مروا فيها بطريق العودة مثل خب الحسك ـ الوندية ـ لينا ـ شامة ـ تربة ـ عرق المضهور ـ بركة العشار ـ المفرق ـ لوقا ـ سكاكا ـ قريّات الملح . وفي شرق الأردن يحدثك عن الأزرق والمفرق وإربد والرمثا . كما يحدثك عن الجماعات والأقوام الذين يصادفهم كجماعة الشركس وتاريخ هجرتهم وتجمعهم بين الزرقا وعمان . ولا أدري إن كان من إفراطه بالأسلوب الواقعي حديثه عن كثير من البدو والأعراب الذين صادفوهم في طريقهم ، وهذا الحوار الممتع الشائق والإشارة إلى الكلمات اللغوية الفصحى

التي ينطقها هؤلاء . وينتقل بعد ذلك إلى المناخ فيحدثك عن العواصف والمطر الغزير المفاجئ ، كما يحدثك عن الرمال وانقطاع الماء ، وجفاف بعض البحيرات ، وعن بعض الطرق الفرعية : كالخط الذي ساروا فيه مُنْطَلَقَهُمْ من المدينة المنورة إلى (حليفة ـ فالشملي ـ فالمُدى ـ فنقرة الحران ـ فتيماء ـ فالقريات) ، وذلك بعد حديثه عن المدينة المنورة بكل ما يخطر لك على بال ، سورها وأبوابها ، بساتينها وشعابها ، هضابها وسهولها ، جبالها ورمالها ، صخورها ومائها ، هوائها وجوها . إلى آخر ما يتعلق بها من قريب أو بعيد .

هـ ـ الناحية الاجتماعية

يحدثك عن مجتمعات إسلامية كبيرة كما في المدينة ودمشق ، ومجتمعات إسلامية أصغر كالعلا وتبوك وغيرهما ، ويصف حالة الناس فيها وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وعلاقة حكامهم بهم ، ويعرض أحياناً إلى مساجدهم وصلواتهم وأسواقهم وبضائعهم ، كما يصف بساتينهم وطعامهم وطرق معيشتهم .

ثم إنه يفرد أعلاماً في هذه المجتمعات ، ويحدثك عن كل فرد منهم بصفته الشخصية ، وعن ثقافته وعلمه ووظيفته ، أمثال أمير العلا محمد بن هديان ، ونائب أمير المدينة عبد الله السديري وغيرهما . كما يحدثك عن أفذاذ العلماء في المدينة أمثال الشيخ محمد بن تركي والشيخ صالح التونسي الفضيلي والشيخ محمد علي بن حسين أعظم (الهندي) وغيرهم ..

و ـ الناحية الاقتصادية

يشرح لك الفوائد الاقتصادية التي يمكن أن تجنيها الشعوب إذا عاد الخط الحديدي الحجازي للسير ، وينتقل بك بعد ذلك إلى ميزانيات التكايا في المدينة المنورة ؛ ومن ذلك التكية المصرية من أوقاف الخديوي محمد علي باشا الكبير التي تقدر ميزانيتها بثلاثة آلاف جنيه مصري . وفي طريق العودة يحدثك عن أثر

المالح وعن رعي الأغنام والجمال ، وعن وجود الماء وطعمه ، وهو يستقصي جميع الجوانب في كل ناحية أثرية . وإليك على سبيل المثال العناوين التي تحدث عن مضامينها ، حينما عرّفك بالحرم النبوي الشريف :

١ ـ الحرم النبوي في زمنه ﷺ .
٢ ـ كيف بدأ إنشاؤه .
٣ ـ بيوت زوجاته ﷺ ، ولماذا بكى الناس عند ضم هذه البيوت إلى الحرم ؟ وماذا قال سعيد بن المسيب ؟
٤ ـ الحرم النبوي الشريف اليوم .
٥ ـ المقصورة الشريفة .
٦ ـ الحجرة الشريفة .
٧ ـ البناء الذي أحاط بالحجرة الشريفة .
٨ ـ أول من كسا الحجرة الشريفة .
٩ ـ الذخائر التي في المقصورة الشريفة .
١٠ ـ تطاول الأشرار على الذخائر .
١١ ـ القبة الشريفة .
١٢ ـ الروضة الشريفة .
١٣ ـ المنبر الشريف .
١٤ ـ أبواب المسجد ومنائره .
١٥ ـ أعمدة الحرم الشريف .
١٦ ـ خوخة سيدنا أبي بكر .
١٧ ـ الصفة .
١٨ ـ الهدايا إلى الحرم الشريف .
١٩ ـ تنظيف الحرم وماء الشرب فيه .
٢٠ ـ عناية أمراء المسلمين بينابيع الماء والعين الحلوة . إلى غير ذلك مما يمتاز به المسجد النبوي الشريف **كالستائر والأضواء والأذان والإقامة .** ثم

يخرج بك إلى دائرة أوسع فيحدثك عن المدينة المنورة ، **تاريخها وجغرافيتها ، مجتمعها واقتصادياتها ، أمرائها والعلماء المجاورين فيها ، مكتباتها والكتب فيها .**

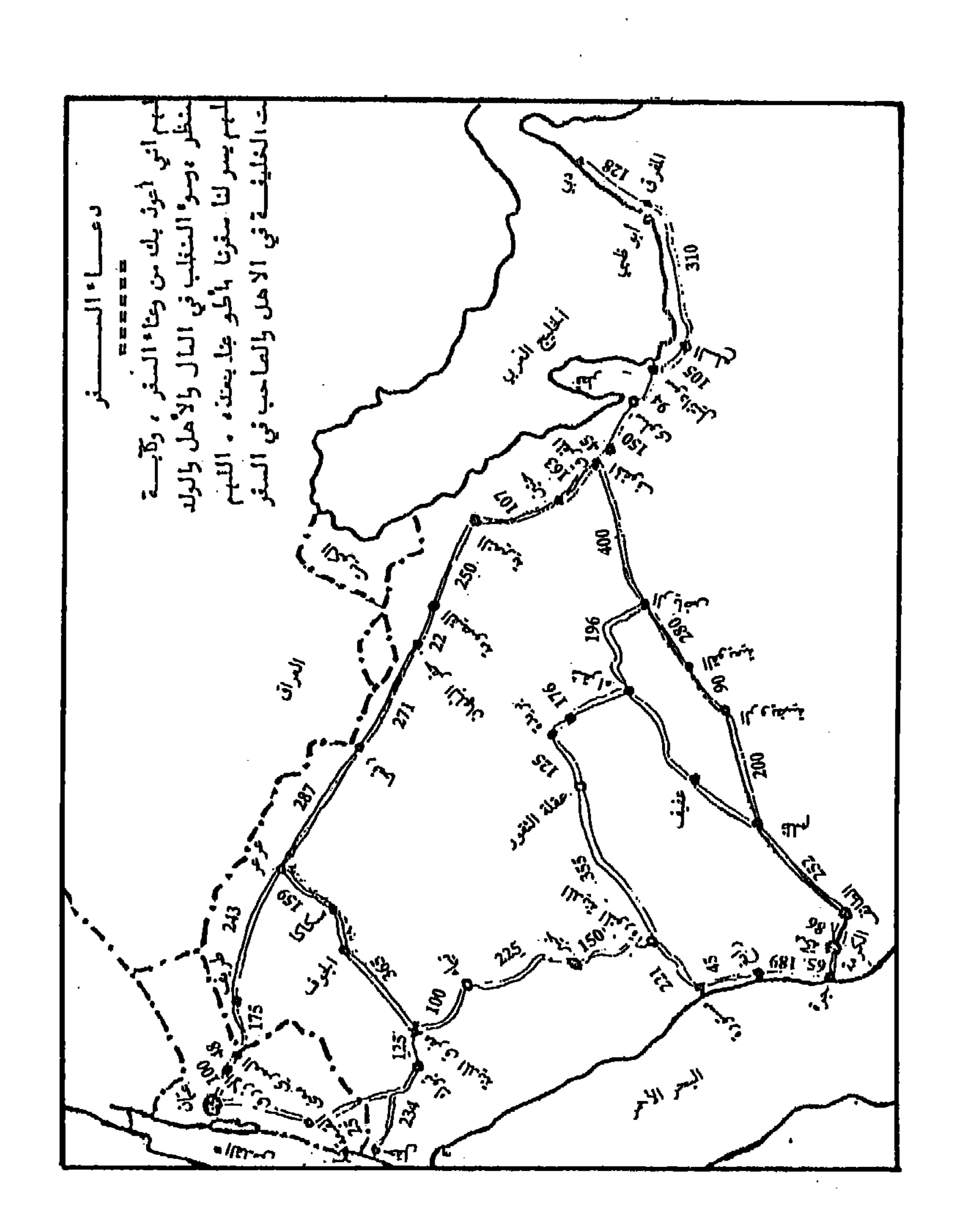
صحيح أن هذه الرحلة تحدثت عن الدين والعلم والأخلاق ، وفيها أدب وتاريخ وشعر ، وأنها وصفت الطرق ، وبحثت في الاقتصاد ، وعاشت مع المجتمعات ، ولكن فكرة إعادة (تسيير الخط الحديدي الحجازي) كان أملها الأوفى ، وزيارة مسجد الرسول الأعظم كان هدفها الأسمى ، هدفاً بحق يملأ السمع والبصر والفؤاد كما سيرى القارئ الكريم .

وختاماً .. أي قارئي العزيز :

إن وجدت في هذه الرحلة بعض الكمال والجمال فهذا من فضل ربي أولاً ، ثم بجهود سيدي الوالد المرحوم الشيخ محمود ياسين صاحب هذه الرحلة ، العامل العالم ، الصامت الزاهد ، الذي ألف وحقق الكثير الكثير دون أن تقرّ عينه بما ألف وحقق ؛ وإن وجدت فيها نقصاً أو عيباً فمني وحدي أنا الذي اختصرت واختزلت ، وقدّمت وأخرت ، وكثيراً ما حذفتُ وحوَّرتُ لأن الرحلة تقع في أربع مئة صفحة ، وزمنها كما ترى أول الأربعينات ونحن اليوم في أواخر الثمانينات . أردتها أن تتناسب والواقع الذي يعيشه الناس اليوم ، وعقليتهم المادية والمتطورة ، واجتهدت ـ وأرجو أن يكتب لي في اجتهادي أجران ـ أن يكون في عملي هذا بعض البر .

ولا بد لي ـ وفاءً ـ من شكر زوجتي المحققة السيدة (عفة وصال حمزة) على ماقدمت لي من مساعدة ، وشكري (لدار الفكر) التي طبعت هذه الرحلة كتاباً يتداول بين أيدي الناس . والحمد لله رب العالمين .

دمشق ـ مأمون محمود ياسين


دعاء السفر
هم اني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة
منظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد
لهم يسر لنا سفرنا
ت الخليفة في الاهل والصاحب في السفر
العراق
الكويت
الخليج العربي
قطر
دبي
أبو ظبي
الرياض
عفيف
بريدة
عقلة الصقور
المدينة المنورة
البحر الأحمر
عمان
طريف
عرعر
الجوف
تبوك
تيماء
خيبر
رابغ
مستورة
جدة
الطائف
الهفوف
رفحا
حفر الباطن
القيصومة
النعيرية

لمحة عن حياة المؤلف الشيخ محمود بن أحمد بن ياسين

١٣٠٤ - ١٣٦٧ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٤٨ م

فقيه ، حافظ ، محدث ، مشارك في علوم اللغة والأدب ، تخصص في علوم السنة ومصطلح الحديث . ولد بدمشق ١٣٠٤ هـ . وهبه أبوه إلى مسجد التوبة في حي العقيبة بدمشق ، وهو طفل غض لم يجاوز السابعة من عمره ، وكان هذا المسجد موئل العلم والعلماء والحفاظ والقراء ، فحفظ القرآن الكريم وجَوّده ، ثم أخذ عن مشايخ أجلاء وعلماء أتقياء ، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ محمد سليم الحلواني ، والشيخ سليم المسوتي ، كما أخذ عن الشيخ بدر الدين الحسني ، والعلامة السيد محمد بن جعفر الكتاني ، والشيخ أحمد الجوبري ، والشيخ صالح الشريف التونسي ، والشيخ محمد كامل القصاب ، والشيخ أحمد الحريري ، والشيخ عبد القادر الإسكندراني . وعنده إجازات بذلك ولا سيا إجازته من السيد الكتاني الكبير ، وإجازة من استامبول .

ومن العلوم التي قرأها على هؤلاء وغيرهم : القراءات ، والعقائد والتوحيد ، والفقه ، والأصول ، والنحو والصرف ؛ إلى آخر ما هنالك من علوم اللغة والدين . وآخر شيوخه في الفقه الشيخ أحمد الجوبري الذي عمل معه بتحقيق كتاب (كفاية الأخيار للحصني) ، ومقابلته على عدة نسخ مخطوطة . وأما دروس السنة فقد تلقاها على يد شيخين عظيمين جليلين هما المحدث بدر الدين الحسني ، الذي كان يدون عنه كل الذي يقوله في دروسه العامة والخاصة ، والعلامة السيد محمد بن جعفر الكتاني الذي قرأ عليه الكتب الستة الصحاح رواية ودراية ، والجزأين الأولين من مسند الإمام أحمد . ثم لما بعدت بينهما الشقة طلب مريدو السيد محمد بن جعفر متابعة مسند الإمام أحمد فكان جوابه دائماً (حتى يعود سيدي محمود) . وقد وجد عند هذين الشيخين حظوة كبيرة واهتماماً عظيماً قلَّ أن يكون

لغيره ، لما كان يدونه عنهما من أحكام وشروح ، وقد تخصص بعلم الحديث وبقية علوم السنة الشريفة .

أفنى عمره بالعلم والعمل ، وحرص على وقته لا يضيع منه ساعة ؛ فلا يُرى حتى في سويعات فراغه إلا ممسكاً بكتاب يقرأ أو بقلم يكتب ، فإذا لم تكن ثمة كتابة ولا قراءة تراه تالياً لكتاب الله عز وجل الذي أتمّ حفظه فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من عمره . ومن طريف ما يروي رفاقه وتلامذته عنه ، في مصيفه في الهامة ، أنه كان يدير جلسات الحوار والمناقشات العلمية وقلمه بيده يكتب في مفكراته أو بحوثه أو بعض مطالعاته وهو معهم في سمرهم وأحاديثهم ساعات طويلة ، وكثيراً ما كان يُرى أثناء طعامه ممسكاً بكتابه حتى إن أهله كانوا يضعون له الخبز لقيمات ليستطيع أن يأكل باليمنى وكتابه في يده اليسرى .

وكانت له حصة تلاوة يومية بين المغرب والعشاء من كل يوم في جامع الخرزمي ، في حيه (الجرن الأسود) في العقيبة . فإذا فاته شيء من هذه الحصة عوّضه في السمر ليلاً قبل أن ينام . يهدي أبويه وأخاه عيداً خاصة (ختمة) كل ثلاثة أيام أو أربعة ، وكذلك الراحلين من شيوخه وأهله .

زاهد ورع ، يقوم الليل . رآه بعض رفاقه في الحلم فسأله : ماصنع الله بك ياشيخ محمود ؟ فقال : « لم تنفعنا إلا ركيعات كنا نقوم بها في السحر » . لم تجرب عليه كذبة ، ولا عُرفت عنه غدرة ولا نقيصة . يزيد في صلاته ورعاً ، ويعيد صيامه طاعةً ، ويبالغ في الطهارة والوضوء إلى حد الاطمئنان المطلوب ، ويكرر دفع زكاته احتياطاً . يحسن للآخرين ولا يقبل الإحسان منهم . يتصدق بالسر ، ويواسي آله وذويه . يكرم ضيوفه ، ويحرص على طلابه ويرعاهم . صاحب ذكاء ممزوج مع الفكاهة وخفة الظل . أنفق ثروته التي وافته من مدرسته الكبيرة التي كانت وحيدة في زمنه على إخوانه وذويه وطلابه ؛ حتى صدر الأمر بإغلاق

المدرسة (وقد اتسعت) من قبل السلطات الفرنسية ، التي طلبت منه بادئ الأمر أن ينزع منها كلمة (إسلامي) من اسم المدرسة (التهذيب الإسلامي) ، مما اضطره للعمل في المحاكم الشرعية ، ثم في دائرة التمييز .

درّس في مساجد دمشق ومدارسها الثانوية ، وكان أستاذ علم الحديث في الثانوية الشرعية ، والقسم العالي منها خاصةً . وفي معهد جمعية العلماء ، والمدرسة التجارية . رفض القضاء الشرعي بعد أن عُرض عليه مراراً ، وخاصةً حينما ألح عليه به المرحوم الرئيس الشيخ تاج الدين الحسني ، ومناصب أخرى أرادها له الرئيس الراحل شكري القوتلي .

ساهم في تأسيس جمعية النهضة الأدبية ، وجمعية العلماء ، ورابطة العلماء ، وجمعية الهداية الإسلامية التي تولى رئاستها مدة عشرين عاماً تقريباً .

أسس مدرسة التهذيب الإسلامي من ماله الخاص ، وأنشأ فيها الصفوف الابتدائية والإعدادية والثانوية : التي خَرَّجت صفوة الطبقة المثقفة في البلاد . وكان تأسيسها ردّ فعل على المدارس التبشيرية التي كانت محل عناية السلطات الفرنسية ، فكانت مدرسة (التهذيب الإسلامي) الثانوية الخاصة الوحيدة في سورية ، إلى جانب مكتب عنبر الحكومي .

اهتم بالتحقيق : فنشط للعمل في دراسة المخطوطات في المكتبة الظاهرية بدمشق ، واعتنى بالنسخ الخطية ومقابلتها واستنساخها وتصحيحها ، ولا سيا ماقابله مع الأستاذ الشيخ محمد الكامل القصار الدمشقي ، وقد أربت هذه الكتب على مئة كتاب في التراث الإسلامي والأدب العربي نشر بعضها المكتب الإسلامي في بيروت ، وتناثر بعضها الآخر بين أصحابه وذويه ، ومن يملك الطباعة منهم .

وكانت مكتبته في بيته حافلة بالنفائس والنوادر ، اضطر أهله لبيعها بثمن بخس ، وهي الآن مكتبة الثانوية الشرعية بدمشق ، التابعة لوزارة الأوقاف .

هذا إلى جانب اهتمامه بالكتابة والتأليف والنقد ، فقلمه مبثوث في أكثر الصحف والمجلات السورية والمصرية على عهده ، مقالات ذات شأن في الدين واللغة والأدب ، يحرّر في مجلتي الفتح والهداية الإسلامية المصريتين ، وفي مجلة الحقائق الدمشقية التي شارك في إنشائها .

حجّ وزار النبي ﷺ فدوَّنَ جميع ما عرض له من أفكار وخطرات وتراث : وعاد بسِفرين عظيمين عن هاتين الرحلتين ، هذه إحداهما مختصرة ، والثانية تابعة إن شاء الله .

وله رسائل وكتب في الفقه والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والمنطق لشتى المراحل الدراسية ، لطلاب المدارس بعضها مطبوع ، ومختارات من عيون السنة والأدب واللغة والفرائد العلمية والطرف الأدبية .

ربى عدداً كبيراً من التلاميذ كان لهم الأثر الطيب في العلم والأدب والإصلاح . وقد كان منذ نشأته أستاذاً مؤدباً ومربياً معلماً ومرشداً لبقاً ، يسلك الطرق المبتكرة السهلة والحديثة للتعليم والإفادة . ومن تلامذته الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت الحافظ الفقيه الورع ، والشيخ عبد الرزاق الحفار الفقيه الحنفي ، والشيخ عبد الحميد الحواصلي ، والشيخ محمد الكامل القصار : والشيخ ياسين عرفة ، والأستاذ محمد بشير ياسين - ابن أخيه - والدكتور شكري فيصل - ابن أخته - والدكتور عطوف ياسين - ولده - والأستاذ مأمون ياسين - ولده - وغيرهم الكثير .

وافته المنية فجأة فجر الرابع من ذي الحجة ١٣٦٧ هـ الموافق للسابع من تشرين الأول ١٩٤٨ م ، ودفن في مقبرة الدحداح بعد أن صُلي عليه في المسجد الأموي ، وكانت جنازته حافلة جامعة أولها في مشارف تربة الدحداح وآخرها ما زال يخرج من المسجد الأموي .

رئي بعد وفاته من قبل كثير من الصالحين لاسيما أهله وتلاميذه ، وكانت تُقصّ هذه الرؤى الصالحة أيام التعزية من الجميع . وكان في أسبوع وفاته قد هيأ نفسه وأعد عدته فحاسب أصحاب الحوانيت في الحي ، وملأ بيته بالمؤونة ، وأخبر ولده محمد عطوف بانتهاء تسجيله في الصف الأول الإعدادي من الثانوية الشرعية (القسم الداخلي) قائلاً له : « ستكفيك هذه المدرسة ست سنوات حتى تنضج وتكبر » .

وفي ليلة الوفاة استدعى ابن أخيه (السيد بشير ياسين) وأولاده وذويه كأنه يودعهم ، وكان يحدثهم كلاً فيما يخصه لسنوات قادمة توجيهاً وإرشاداً وعوناً . ولما طال بهم السهر استأذن بعضهم للانصراف . ويقول من بقي منهم ساهراً كلاماً عجيباً يدور حول وداع محقق كأنما كُشف له . ثم صعد إلى غرفته في الطابق العلوي مصطحباً معه كتاب الأذكار للنووي ، ووضع منشفته تحت رأسه ، وفتح نوافذ غرفته بانتظار أذان الفجر واستسلم لنوم أبدي مريح . فجر يوم الخميس الرابع من ذي الحجة سنة سبع وستين وثلاث مئة وألف للهجرة .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجمعنا معه في مستقر رحمته .

والحمد لله رب العالمين ..

مراجع حياة الشيخ ـ صاحب الرحلة ـ :

١ ـ معجم المؤلفين ١٥١/١٢
٢ ـ شروح رسالة الشيخ أرسلان ٢٨٨ ـ عزة حصرية .
٣ ـ إتحاف ذوي العناية ٤٧
٤ ـ مجلة التمدن الإسلامي مج ٨٠٢/١٥ مقال للشيخ محمد الكامل القصار .
٥ ـ مشافهة ذويه وخاصة ولده ـ مأمون محمود ياسين ـ .
٦ ـ تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٦١٥ / محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله ، وسلام على من كمله من خلقه واصطفاه ، سيدنا محمد سيد ولد آدم ، ولباب الخيرة من جميع العالم ، صلى الله عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين ، ومن والاهم واتبع هداهم إلى يوم الدين .

أما بعد فإن جمعية (الهداية الإسلامية) المؤسسة في دمشق[1] للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قامت بتذكير أولي الأمر ، وإقناعهم بوجوب إعادة السفر لحجاج بيت الله الحرام من طريق البر ، الطريق الذي أنهكت قواه الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م ، ثم أجهزت عليه بعد ذلك أطماع بعض الشركات ؛ بما نالته من الامتياز في حصر سفر الحجاج وإكراههم على الركوب في بواخرها من مرفأ بيروت في لبنان حتى ميناء جدة في بلاد الحجاز . وفي جلسة شوال عام ١٣٥٨ هـ زار وفدها رئيس المديرين في الحكومة السورية ، وترك له كتاباً مفصلاً عن ضرورة تسيير هذا الطريق . ثم زار معتمد الملك عبد العزيز ابن سعود بدمشق ، وترك له كتاباً ليرفعه إلى جلالة الملك ليسمح ، ويساعد بافتتاح هذا الطريق في حدود بلاده .

---

(١) سنة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م .



الملك عبد العزيز آل سعود



نسف الخط الحديدي الحجازي

الفصل الأول
الإعداد للرحلة

فقرات من كتاب الجمعية المرسل إلى معالي رئيس مجلس المديرين

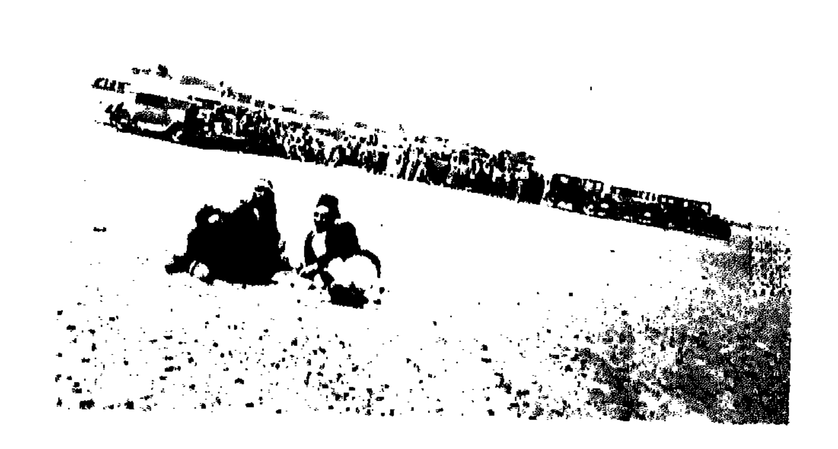
كانت جمعية (الهداية الإسلامية) بدمشق أول من اقترح على حكومة سورية صدور الإذن بافتتاح طريق الحج البري ، الذي لا ينافي مصلحة الحكومة الفرنسية ، ويفيد في الوقت نفسه اقتصاد البلاد السورية .

وقد علمت الجمعية بأن السلطات التنفيذية للحكومة عملت على إرجاع كثير من وفود المسلمين الذين أمّوا البيت الحرام في هذه السنة لأداء الحج بحالة مشينة ، والذي نرجوه هو العمل على تسهيل مهمة سفر الحجاج من طريق البر تحقيقاً لرغبة الجماهير المسلمة ، وخدمة للبلاد والعباد .

وستسجل الجمعية عند إجابة طلبها هذه المأثرة الجليلة لكم مع وافر ما يجب من الاحترام .



فريق من أعضاء جمعية الهداية الإسلامية فيهم :
الشيخ ياسين عرفة والشيخ مصطفى العمّار والشيخ محمود الحفار
والشيخ عبد الفتاح عز الدين والأستاذ الشيخ كامل القصار والأستاذ رشدي عرفة



أعضاء الرحلة وسياراتهم على أهبة الاستعداد للانطلاق بالرحلة إلى المدينة المنورة

فقرات من الكتاب المرسل لصاحب الجلالة
الإمام عبد العزيز آل سعود المعظم ملك الحجاز ونجد وملحقاتها
بواسطة صاحب السعادة معتمده في دمشق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فلما كان طريق البحر مما يخاف ركوبه كثير من الناس أداء لفريضة الحج ، ولما كانت الحرب الحاضرة مما يزيد في هذه المخاوف ، وكان الامتياز المعطى لشركة (الملاحة الشرقية) لا يعني وجوب إغلاق طريق البر الموصل إلى الأراضي الحجازية المشرفة ؛ لهذا رأت جمعية (الهداية الإسلامية) بدمشق أن تطلب من جلالتكم السماح بافتتاح طريق البر في حدود بلادكم الحجازية ، طامعين أن يكلف معتمدكم الكريم في الشام بتحسين هذه الفكرة للحكومة السورية ، وبذل ما يمكنه بذله من المساعدة في هذا الموضوع ، فيركب الحاج من دمشق إلى (معان) بالسكة الحديدية ، ومن معان إلى (تبوك) بالسيارات ، ومن تبوك إلى (المدينة المنورة) بسيارات حجازية إن أمكن . ونحن إذ نتقدم بكلمتنا هذه لنرجو الإسراع بالإجابة ، رداً للهفة الألوف من الحجاج الذين ينتظرون بفارغ الصبر افتتاح طريق البر لأداء هذه الفريضة العظيمة ، واثقين بأخلاق جلالتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وفي ٦ ذي القعدة ١٣٥٨ هـ أرسلت الجمعية كتاباً إلى المندوب الفرنسي ، وإلى رئيس مجلس المديرين بطلب الشفاعة عن المسجونين من الحجاج الذين سافروا من طريق البر ، وإرجاع ما صودر من أمتعتهم وأموالهم .

وفي الخامس عشر من ذي الحجة ١٣٥٨ هـ أُرسل وفد من رجال الجمعية لمقابلة المندوب الفرنسي ، وتقديم تقرير وافٍ عن مشروع السفر إلى الحجاز من طريق البر . وفي ٢٥ محرم ١٣٥٩ هـ أُرسل كتاب شامل إلى المفوضية في بيروت بطلب فتح طريق البر للحجاز وإلغاء حصر الحج بالطريق البحري .

وقد لحق الجمعية من هذه الكتب عَنَتٌ كبير ، بحيث استُدْعِي بعض رجالها للتحقيق معهم : حجتهم في ذلك ثلاث :

١ ـ لماذا تكتبون في آخر رسائلكم إلى المفوض السامي [الجمعية تنتظر الجواب] ؟ أهكذا يُكتب ؟ أهو تحت الأمر ؟

٢ ـ لماذا تُشهّرون في احتكار (شركة الملاحة بطريق البحر) ، وهذه مسألة دولية كان يجب أن تمتنعوا عن الخوض فيها .

٣ ـ أما قولكم إن الحجاج أسيء إليهم في بيروت والشركة لم تفِ بوعودها لهم فهذا أيضاً تشهير ، لأن التأخير كان بسبب عسكري ، لاقبل للشركة بمنعه أو مخالفته .

انجلاء هذه الغمة

بعد أن أخذ الاضطراب منّا مأخذه جاء الفرج الإلهي ، وعاد مدير الأمن في ١٦ آذار ١٩٤٠ م يسأل الجمعية عن أسماء الحجاج الذين أخرتهم شركة الملاحة في بيروت وجدة ، فأرسل له اسم كل من اتصل بالجمعية وشكا لها التأخير ، وطويت صحف هذه النازلة .

الكتاب الأخير للمندوب المفوض

في ٤ صفر ١٣٥٩ هـ / و ١١ آذار ١٩٤٠ م أرسلت الجمعية لمندوب المفوض السامي في دمشق الكتاب الآتي :

« بالنظر لقرب موسم المولد النبوي الشريف الذي سيكون يوم ١٢ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ / و ١٩ نيسان ١٩٤٠ م ، ولمراجعة كثير من الناس لهذه الجمعية ؛

نتقدم بطلب صدور الإذن بالسفر إلى المدينة المنورة من طريق البر لكل راغب في هذه الزيارة .

والجمعية لاتشك في أن الحكومة الفرنسية لاتعارض المسلمين في أداء رغباتهم الشرعية ، وإحياء شعائرهم الدينية .

وقد كانت السكة الحجازية أيام الحكومة العثمانية تتقاضى نصف الأجرة من الزوار أيام المولد الشريف ، ولهذا كان يقصد دمشق لأداء الزيارة عدد عظيم من الزوار من عموم الأقطار الإسلامية ؛ فينتعش الاقتصاد ، وتحيا التجارة والصناعة وعامة الأعمال ، وسيسمع الجميع أن الحكومة الفرنسية حين تسمح بتحقيق هذه الفكرة سيكون لها السمعة الحسنة والنية المخلصة الصادقة ، وتقبلوا في الختام عظيم الاحترام » .

وفي التاريخ نفسه أرسلت الجمعية كتباً كثيرة في حضّ أولي الأمر لتحقيق السماح حتى حصلت على الإذن بسير ركب الزيارة إلى المدينة المنورة ، وصورة هذه الكتب محفوظة بتواريخها وأرقامها ودامغ حججها .

الإذن من المندوبية

يوم الأربعاء ١١ صفر ١٣٥٩ هـ / ٢٠ آذار ١٩٤٠ م أبلغت المندوبية الفرنسية بدمشق الجمعية الموافقة والإذن بتمشية الطريق البري إلى الحجاز ، وأن ذلك سيكون فاتحة لسير الحج منه في الموسم المقبل .

الجلسة الخاصة للجمعية

عقدت الجمعية جلسة خاصة حضرها أحد عشر رجلاً من أعضاء مجلس الإدارة ، وقرروا إرسال نحو من عشرين كتاباً للمندوبية الفرنسية ورئيس مجلس المديرين ، وللإذاعة والصحف المحلية ، ولجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ،

وغيرهم من المسـؤولين ، تشكر وتنظم وتطـالب وتعلن ، وجميـع هـذه الكتب محفوظة بأرقامها وتواريخها ، ومنها كتاب شكر الجمعيـة للمنـدوب السـامي سلّمـه وفد من رجالها يوم ١٧ صفر ١٣٥٩ هـ / ٢٦ آذار ١٩٤٠ م .

كتاب شكر الجمعية للمندوب

لسعادة مندوب المفوض السامي في دمشق . إن الجمعيـة إذ تشكر للمنـدوبيـة السامية على إجابة طلبها السماح بالسفر لمن يرغب زيارة المدينة المنورة ، تتمنى أن تسمحوا لها بـإذاعـة هـذا الإذن بصورة رسميـة على صفحـات الجرائـد بحيث يتسنى لكثير من الشركات أن تتقـدم للمنــدوبيــة بــالشروط التي تجمـع بين مصلحتهــا والمصلحة العـامـة لنقل الزوار في موسم الحج خـاصـة وبقيـة المواسم عـامـة ، وإن الجمعية لترجو رفع الرسوم التي تأخذها الحكومة السعودية .

وقد رحب المعتمد بهذه الفكرة ، ووصلت برقية جلالة الملك عبـد العزيز بن سعود بـالإذن بـدخول الأراضي الحجـازيـة ، واجتيـازهـا لكل من يرغب زيـارة المدينة في موسم المولد الشريف الآتي معفياً من الرسوم الحكومية .

الإذاعة في الصحف المحلية

وعلى أثر مجيء هـذه البرقيـة ، قررت الجمعيـة إذاعـة ذلـك في جميع الصحف المحلية ليطلع على الأمر من لم يكن قد اطلع عليه بعد . وقد نشرت الصحف النبـأ كـ **النضال والأيام والأخبار** مع التعليق والتـأييـد ، وإليـك مـا جـاء في إحـدى الصحف فقد قالت جريدة (النضال) في العدد الثـالث والثلاث مئـة تـاريخ ٢١ صفر ١٣٥٩ هـ / و ٣٠ آذار ١٩٤٠ م تحت عنـوان (زيــارة المــدينــة المنـورة) ـ (مسـاعي جمعيـة الهـدايـة الإسلاميـة تكلل بـالنجـاح) . وصل كتـاب المنـدوب المفوض في دمشق (الكونت دي هو تكلوك) بالموافقـة على طلب جمعيـة الهـدايـة الإسلامية للسماح بزيـارة قبر الرسول الأعظم في المـدينـة المنورة عن طريق البر ،

وبعد المخابرات بين دار الاعتماد للحكومة العربية في دمشق ، وبين مكة المكرمة حول السماح للوفود الذين يودون زيارة قبر صاحب الرسالة في موسم عيد المولد النبوي المبارك ، فورد الجواب بالموافقة والترحيب .

بيان الجمعية : وقد أذاعت جمعية الهداية على الأثر بياناً تزف البشرى فيه للمسلمين في الأقطار السورية واللبنانية ، وأن الحكومة العربية السعودية تفضلت بالموافقة والترحيب ورفع الرسوم عن جميع الزوار ، كما وعد المندوب بإجراء جميع التسهيلات ، والجمعية جادة في الاتفاق مع الشركة التي تؤمن راحة الزوار ورفاهيتهم . إلى آخر البيان ...

الاتفاق مع شركة السيارات الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماوقع عليه الاتفاق بين جمعية الهداية الإسلامية الممثلة بمُعْتَمديْها : رئيسها الأستاذ الشيخ محمود ياسين وعضوها الحاج مصطفى العطار ، وبين شركة السيارات السورية الحديثة المساهمة الممثلة بمعتمديْها رئيسها السيد موسى كاظم وأمين سرها السيد عبد الحميد سنان . إلى آخر الاتفاقية التي تحتوي على تفصيل شامل لنوع السيارات وعددها ، وللأجرة ذهاباً وإياباً ، ولنفقات الجواز وموعد السفر ، والوزن . وبقية الشروط الأخرى التي لاغنى عنها في كل اتفاقية سفر معهودة تؤمن السلامة والأمن والرفاهية للركاب . حرر في دمشق ٢١ صفر ١٣٥٩ هـ / ٣٠ آذار ١٩٤٠ م : على أن يكون السفر صباح الخميس الرابع من ربيع الأول ، ومدة الإقامة في المدينة المنورة خمسة عشر يوماً ، عدا يومي الدخول والخروج .

وفي جلسة الجمعية التالية تقرر كتابة إذاعة باسم الجمعية بعنوان (الرقم ٧٣) بشرى لزوار قبر الرسول الكريم ﷺ ، وما سيصحب الوفد من الأطباء وصيدلية وخيام خاصة للمبيت مزودة بالماء ، وقافلة سيارات خاصة للكشف عن الطريق

وتـذليل العقبـات . وفي اليوم التـالي كتبت الصحف أهميـة الاتصـال بين المسلمين كافة ، وأهل القطرين الشامي والحجازي بخاصة ، ذلك الاتصـال الـذي ذاق أهل القطرين زمن انقطاعه مرّ الوحشة لابتعادهم عن أماكنهم الدينيـة ، ومرارة القلـة في العيش والرزق والعلم ، وسائر وسائل الحياة .

وإن جمعية الهداية الإسلامية لتهيب بالمسلمين للمبادرة باغتنام هـذه الفرصـة الثمينة في زيارة قبر السيد الأعظم ﷺ في موسم مولده الشريف والتبرك بمسجـده المنيف ، راجيـة أن تكـون تلـك الـزيـارة سببـاً في غفران الـذنـوب والشفـاء من الأمراض ورفع الـدرجـات ونيل الرغبـات ، إلى آخر هـذه النشرات التي وزعتهـا الجمعية .

رأي بعض جرائدنا المحلية في هذا العمل

قـالـت جريـدة (الأخبـار) بـافتتـاحيـة العـدد /٧٨٢/ المـؤرخ في ٢٧ صفر ١٣٥٩ هـ / ٥ نيسان ١٩٤٠ م بتوقيع صاحبها الأستـاذ محمـد بسيم مراد تحت عنوان (الطريق البري بين دمشق والمدينة) :

« لقد تحققت هذه الأمنيـة الغـاليـة ، صبوة المسلمين في القطر السوري منـذ سنوات عـديـدة ، يهلل لهـذه الفكرة كل مـؤمن ، ويطرب لهـا كل قلب ، ويتمنى الاشتراك فيهـا كل مستطيـع . يطـوفـون في البيت الحرام ، ويسعـون بين المروة والصفا ، ويتهجدون في مقام إبراهيم ، ويزورون قبر فخر الكائنات وسيـد الرسل عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم » . إلى أن يقول :

« ونحن بـدورنـا نشكر لجمعيـة الهـدايـة الإسلاميـة صنيعهـا المحمود وأيـاديهـا البيضاء ، كما نرفع أسمى واجبات التقدير لجلالة الملك عبد العزيز عـاهل المملكـة

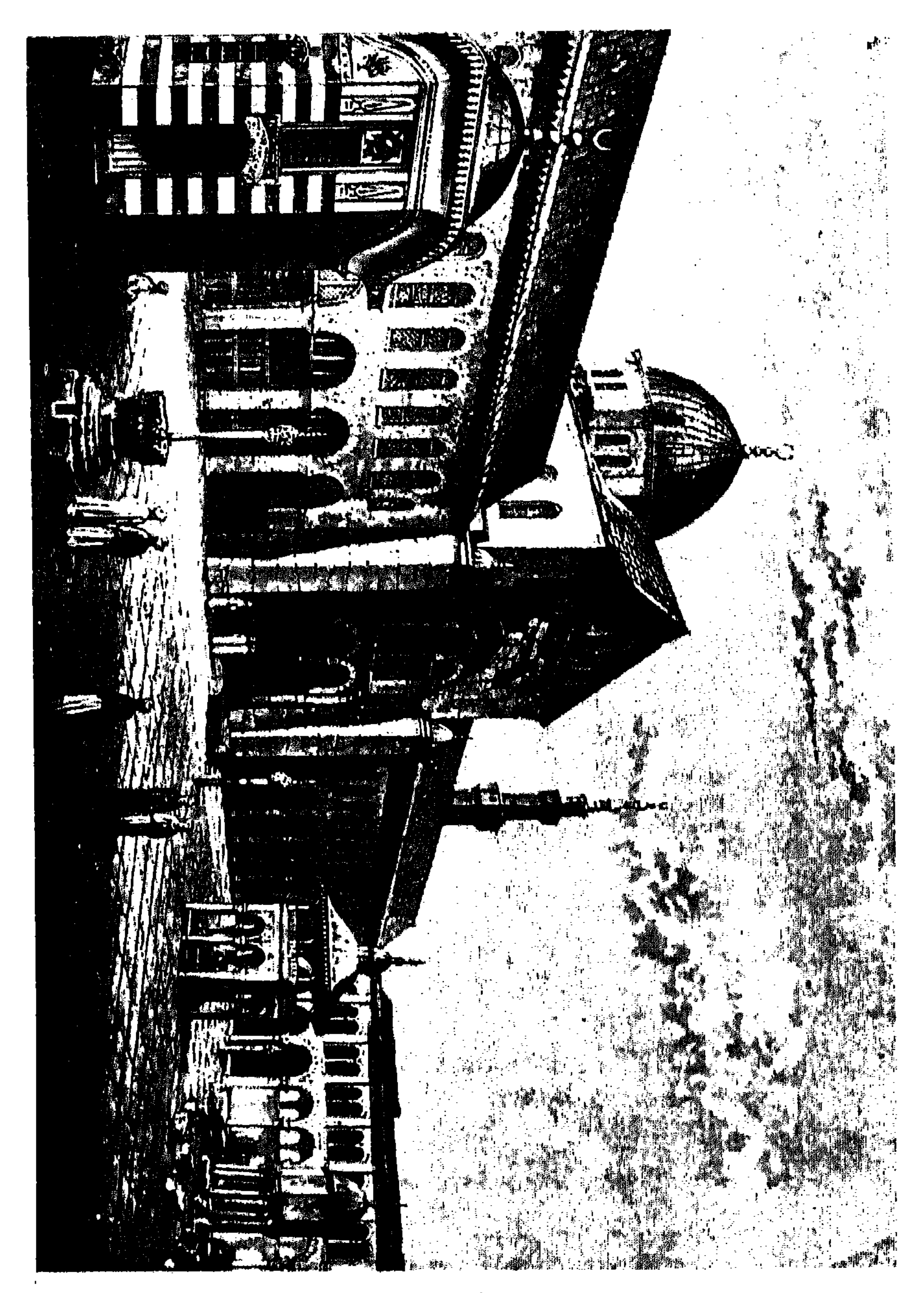
العربية السعودية ، وإلى جناب رشيد باشا الناصر القنصل العام للدولة العربية في دمشق .

وقالت جريدة (النذير) الحلبية لصاحبها الأستاذ أحمد قنبر في العدد /٩٧١/ المؤرخ ٤ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ / ١١ نيسان ١٩٤٠ م . تحت عنوان [أمنية كبرى تتحقق : زيارة قبر الرسول الأعظم ﷺ] .

وقد نشرت جريدة (الكفاح الدمشقية) نبأ سفر الطليعة الأولى التي ستكون فَرَطاً للقافلة ، ورائداً يختبر الطريق ، ويعمل على إصلاح ما يجب إصلاحه ، فيسافر إلى معان ـ المدورة ـ تبوك ـ العلا ـ ثم يعود منها إلى تبوك لاستقبال الزوار .

الاستقبال في درعا ، وزيارة سمو الأمير عبد الله

انتخب لهذه الغاية الجليلة وفد كان في طليعته الأستاذ الجليل الشيخ محمد مكي الكتاني والأستاذ عبد القادر العاني والشيخ ياسين عرفة والشيخ محمود الحفار ، مع وفد من شركة السيارات السورية المساهمة وبضعة عشر من العمال ، استقبلوا كما ودعوا بحفاوة وإكرام . وقد أعد الاستقبال الوجيهان السيد بكري الحايك والسيد محمد علي الحلبي ، وزار وفد الطليعة سمو الأمير عبد الله المعظم راجياً إعفاء الزوار من رسم الدخول على حدود الأردن تسهيلاً لهذه المهمة الغالية .



المسجد الأموي بدمشق

الفصل الثاني
بدء السفر ـ طريق الذهاب

سفر وفد الزيارة

في صباح يوم الأربعاء ١٠ ربيع الأول ١٣٥٣ هـ / ١٧ نيسان ١٩٤٠ م أقيمت حفلة وداع في الجامع الأموي أمام ضريح السيد الحصور سيدنا يحي عليه وعلى نبينا وسائر النبيين أفضل الصلاة وأتم التسليم ، افتتحت بتلاوة عشر من القرآن الكريم للقارئ الشيخ عبده قويدر العربيني ، ثم تتالت الكلمات وتعاقبت الخطب ، ثم خرج رجال الجمعية وحولهم عدد كبير من المودعين إلى السيارات التي أعدت لهم .

أما أنا فما كنت قط أفكر في أنني سأكون أحد رجال هذه الزيارة ، وما حضرت إلا مودعاً ، وحينما زرنا وكيل رئيس المديرين ومدير العادلية العام السيد خليل رفعت فاتحني بالترحيب فقلت ما مؤداه : إن وفد الجمعية جاء شاكراً وعاتباً . فقال : لماذا العتب ؟ قلت : لأنه أذن للجمعية بالسفر ولم يؤذن لرئيسها . قال : وكيف لا يؤذن لرئيسها ؟ قلت : إن الحصول على الإذن أمر عسير فقال : أنت مأذون وأنا بذلك زعيم . واتصل من توه بالمسؤولين الذين بيدهم أمر السفر والإذن من الوظيفة وتسهيل جميع السبل ، فلم ينته دوام ذلك اليوم إلا وجواز السفر بيدي ؛ مما أظهر لي لطف الله تعالى وعونه ورضاه .

وَدَّعْتُ الأسرة وداعاً مقتضباً لأنني لم أكن على يقين من إنهاء عمل الجواز ،

ومضينا إلى العسالي قرب ضاحية القدم ، والعسالي مكان قريب من قرية القدم ذو فضاء متسع قد اخضرت أرضه ، وأخذت زخرفها ، وازَّيَّنت ، وأحاط به من الأشجار الباسقة ما زاده بهجة وجمالاً ، وقد بنى فيه أحد ولاة الحكومة العثمانية المرحوم (كوجك باشا) مسجداً يوم كان والياً بالشام بإشارة من شيخه (الشيخ أحمد العسالي) ، فكان الشيخ يقيم فيه . وقد وقف له الوالي أوقافاً كثيرة ، وأجرى له فيه الماء .

ولما توفي الشيخ دفن فيه ، ثم لما قُتِل الوالي (أحمد كوجك باشا) (بأمر من السلطان العثماني) أُتِيَ برأسه فدُفن عند شيخه في الجامع المذكور ، ثم بنى فيه الشيخ أمين الجندي مفتي الشام غرفتين علويتين ، كان يقطنهما في فصل الربيع . والمشهور أن ثمرات هذه الأوقاف وقف على المفتي العام في بلاد الشام ، ثم تسلط الفلاحون جيران هذه الأراضي وجيران مسجدها على مائه فسرقوه لمزارعهم وبساتينهم ، وفي أيامنا تسلط بعض الظلمة على المسجد نفسه ، فأسكن فيه أفراد الجند من العساكر ، وبنى جداراً عظيماً قسم فيه المسجد إلى قسمين : قسم للمصلين وقسم لمصلحة أفراد جيشه ، وفتح للقسم الأخير باباً جديداً .

السير إلى درعا فعمان فالزرقا

بعد أن ودعنا رفاقنا في العسالي بالقدم ، سارت سيارتنا تؤمّ درعا فاجتازت بنا الكسوة[1] فغباغب فخربة الغزالة[2] ووصلت إلى درعا[3] بُعيد

(١) هي أكبر قرى وادي العجم ، يروي أراضيها نهر الأعوج . عن كتاب (من عمان إلى العمادية أو جولة في كردستان الجنوبية) للأستاذ علي سيد وكوراني سكرتير المجلس التشريعي الأردني ص ٥ .

(٢) فيها قتل الحورانيون علاء الدين بك الدروبي رئيس وزراء الحكومة السورية وعبد الرحمن بك اليوسف رئيس مجلس الشورى فيها .

(٣) درعا : هي من المحافظات السورية وملتقى خطوط دمشق ـ حيفا ـ عمان .

العصر ، ولبى رجال الجمعية دعوة الشهم الكريم السيد بكري الحايك وابن أخته الشاب السيد محمد علي الحايك ، ثم سار الوفد شاكراً مثنياً نحو عمان فبلغ بلدة (الرمثا) بين العشاءَيْن .

فائدة : من لطيف ماسمعناه أثناء صلاتنا العشاء في جامع الرمثا كلمة (لبيك) حينما يقول الإمام أثناء قراءته ورد الصلاة ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٥٦/٣٣] فيقول الجميع بصوت واحد : (لبيك : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد) إلخ ...

غريبة : هذه الصيغة في الصلاة على النبي ﷺ وهي : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كال الله ، وكما يليق بكماله) ، وهي التي اعتاد أهل الرمثا أن يقولوها ، هي التي اعتاد أن يقولها أهل دمشق في كثير من مساجدهم ، وهي صيغة مشهورة جداً في كثير من البلاد الإسلامية ، ولا تعرف الحكمة في هذه الشهرة ؛ مع أن أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ هي الصيغة الإبراهيمية . قال السبكي في طبقاته[1] بعد أن ساق سنده إلى كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ قلنا : يانبي الله ، قد علمنا كيف السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » أخرجاه في الصحيحين من حديث الحكم . إلى أن قال : وفي رواية « على إبراهيم » بدل « آل إبراهيم » . وفي رواية « على إبراهيم وآل

(١) ٩٦/١

إبراهيم » (وجمع بينهما) ، ثم قال : سمعت أبي رحمه الله يقول أحسن ماصُلي على النبي ﷺ بهذه الكيفية . قال : ومن أتى بها فقد صلى على النبي ﷺ بيقين . وكان له الجزاء الوارد في حديث الصلاة بيقين . وكل من جاء بلفظٍ غيرها : فهو من إتيانه بالصلاة المطلوبة في شك ، لأنهم قالوا كيف نصلي عليك ؟ قال : « قولوا » كذا .. فجعل الصلاة عليه منهم هي قول كذا . وإذا قالها العبد فقد سأل الله أن يصلي على محمد ﷺ كما صلى على إبراهيم عليه السلام وآله ، ثم إذا قالها عبد آخر فقد طلب صلاة أخرى غير التي طلبها الداعي الأول ، ضرورة أن المطلوبين وإن تشابها مفترقان بافتراق الطالب وأن الدعوتين مستجابتان إذ الصلاة على النبي ﷺ دعوة مستجابة فلا بُدّ أن يكون ماطلبه هذا غير ماطلبه ذاك ، لئلا يلزم تحصيل الحاصل إلخ ...

الأشد غرابة : والأشد غرابة من هذا أن الصيغة الإبراهيمية رويت في الصحيحين وغيرهما بروايات متعددة ليس منها ـ الصيغة المشهورة ـ التي يعتاد قراءتها الناس في آخر التشهد من صلاتهم . يقولون[1] : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد » .

وأقرب الصيغ إلى هذه الصيغة المشهورة الصيغة الإبراهيمية التي أخرجها الإمام أحمد[2] وأبو داود والنسائي وابن ماجه وعبد الرزاق في المصنف وابن حِبان في الصحيحين ، ولفظها : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على

---

(١) في الروضة : إن هذه الصيغة هي الأكمل . راجع ابن علاّم على الأذكار . قلت : وهذه الصيغة موجودة بلفظها في كثير من كتب الفقه دون عزو إلى كتاب في الحديث .

(٢) راجع شرح الإحياء ٥/٥٠

إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنـك حميـد مجيـد . اللهم بـارك على محمـد وعلى آل محمـد كما بـاركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنـك حميـد مجيـد » . أخرجهـا الشيخـان[1] في صحيحيها ولفظها : « اللهم صَل على محمـد وعلى آل محمـد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنـك حميد مجيد » .

متابعة السير

تابعنا السير إلى ـ عمان ـ فبلغناها وقد طلع الفجر ، فتسارع رجـال الركب إلى مسجدها الكبير فأدوا به صلاة الصبح ثم سـاروا إلى مقرهم الـذي اختـارتـه لهم الشركة في سفوح الجبال المزهرة الحافلة بـالنبـات الأخضر والربيع البهيج ، حيث ضربت لهم الخيام فعرج كل قبيل مع قبيلـه إلى فسطـاط لـه خـاص ، وكان يومـاً ممتعاً جميلاً .

كلمة صغيرة عن عمان

عمـان بلـدة قـديـمـة استولى عليهـا الرومـانيون سنـة ٢٨٥ ق . م . اعتنى بهـا الأمـويـون وبغيرهـا من البلـدان الصغيرة في البلقـاء ، ولا سيا مـا كان منهـا على طريق الحاج وقرب البادية ؛ حيث كان مصيف ملوكهم .

ولما اضطرب أمر بني أمية سنة ١٢٦ هـ وهـاجت الفتنـة ، خرج سليمـان بن هشام بن عبد الملك من سجن عمان ـ وكان الوليـد قـد حبسـه بهـا ـ فقتل الوليـد بعمان ، وأخذ ما كان بها من الأموال ، وأقبل إلى دمشق .

وفي العهد العبـاسي كانت ولايـة عمـان وجبل الشراة بيـد الإخشيـد محمـد بن طغج . خَمَلَ شـأن عمـان بعـد الحروب الصليبيـة وظلت في انحطـاط معظم الحكم

---

(١) البخاري في ٦٩/٤ ومسلم في ١٦/٢

العثماني ، وفي سنة ١٣٠٢ هـ عادت للظهور حيث أقطعتها الدولة العثمانية مع بضعة قرى حولها إلى مهاجري الجراكسة ، الذين أُرغموا على ترك بلادهم عقب استيلاء روسيا على القوقاز ، ولما أنشأ الجراكسة فيها مساكنهم جعلها الأتراك مركز حكومة (ناحية) .

وفي ٢٥ أيلول عام ١٩١٨ م خرجت من حكم العثمانيين ، وسقطت بيد القوات العربية الثائرة والجيوش البريطانية .

ولما تألفت في سوريا الداخلية حكومة عربية سنة ١٩١٩ م أُلحقت بها ، ولدى انحلالها إثر دخول الفرنسيين دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠ م بعد معركة ميسلون انفصلت ألوية عجلون والكرك ومعان عن سوريا ، وجعلت حكومة تحت الانتداب البريطاني يديرها الأمير عبد الله أحد أولاد الملك حسين ، فاتخذ عمان عاصمة لحكومته الجديدة لوجودها على سكة حديد الحجاز وتوسطها في البلاد الأردنية .

رسالة الأمير إلى قاضي القضاة في حكومته بصفته وزيراً للمعارف فيها

نشر الأستاذ تيسير ظبيان صاحب جريدة (الجزيرة) هذا الخطاب في العدد /٩٦٣/ من جريدته : « عزيزي توفيق باشا :

من الواجب المتحتم أن ألفت أنظاركم إلى ماسبق التنبيه إليه غير مرة ، وإلى ماصدر بسببه أكثر من بلاغ رسمي فيما يتعلق ببعض النساء المسلمات اللواتي يُرى أنهن لا يبالين بما فرضه الله عليهن من عدم التبرج واتباع اللائق بالمخدرات المؤمنات والفتيات المسلمات من الوقار والحشمة ، لأنه قد عاد بعضهن إلى مانهين عنه بعد أن مضت فترة على البلاغ الأخير بهذا الصدد .

إنني حمدت الله سبحانه أن جمع لكم منصب قاضي القضاة إلى وزارة المعارف الجليلة ، وإنني آمل أن يصاغ بيان جديد يعلن فيه عن ضرورة تحجب المؤمنات لنبرأ إلى الله عز وجل من تبعة الإغضاء عن هذه المخالفة الممقوتة شرعاً ، والتي شرع النساء يقبلن عليها غير محتشمات . وقد جاء في الآية الكريمة[1] قوله تعالى : ﴿ قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وفي الآية الكريمة : ﴿ وَقُل لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء ، وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال تعالى[2] : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

وفي الآية ٣١ من سورة النور ذكر ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمر المقانع ، جمع خمار ، وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جنبيها .

أُمِرْنَ بإلقاء المقانع على ضفورهن تغطية لنحورهن ، فقد قيل إنهن كن يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو صدورهن ، وكنّى عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها ، وقيل إنهن أمرن بذلك ليسترن شعورهن وقُرْطهن وأعناقهن . قال

---

(١) النور ٣٠/٢٤

(٢) الأحزاب ٥٩/٣٣

ابن عباس ـ ونحن نقول بقوله ـ رضي الله عنه : « تغطي شعرها وصدرها وترائبها وسوالفها » .

وإني آمل بالإشارة إلى وزير المعارف بأن من جملة مسؤوليات سعادته التفتيش الجدي على المعلمات في مدارس البنات وما يُلَقّنّه تلميذاتهن ، وهل المعلمات في درجة علمية كافية لهذه المسؤولية الدينية والأخلاقية التي وُضعت على عواتقهن ، إنهن في المدرسة محل الأب والأم فإذا عثر على مديرة لمدرسة أو على معلمة بها تترخص في هذه المقدسات الأخلاقية فلينقلها بدون تردد .

هذا واجبي الذي سيسألني الله عنه أضعه على عاتق الحكومة لتقوم بواجبها نحوه ؛ وإني آمل منكم الاهتمام الشديد بأمرنا هذا ومتابعته وعرض نتائجه علينا وآمل من الأردنيات المسلمات أن يخضعن لأمر الله ونصائحنا في هذا السبيل » .

(عبد الله)

كان نومنا في الفسطاط غير مطمئن لأن الفسطاط كان صغيراً ، فقد اعترانا فيه البرد والضيق ، فهذا رجلاه عند رأس رفيقه ، وآخر يداه فوق وجه صديقه ، وذاك ينفخ فيؤلم جاره ، وآخر يتحرك فيؤذي صاحبه ، ضغطت المناكب على الصدور وآلمت المرافق الخواصر ، وبات القوم متألمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

ابتدأنا السير عقب صلاة الصبح وقد اشتد بنا البرد ، وبدأ الناس بجمع أثقالهم وحشد أمتعتهم ، وسار الوفد يؤمّ (معان) ، فاجتاز في طريقه عدة قرى ومنازل منها القصر ، واليادودة ، مخفر الجيزة ، ضبعة ، خان الزبيب ، وسواقة ، وانتهى به السير عند الظهر عند (القطرانة) .

البركة العظيمة

وقد لفت نظرنا في هذه القرى أمور ثلاثة :

أولها : جودة الهواء الذي يزيد هؤلاء الزوار نشاطاً وقوة .

وثانيها : مرافقة السيارات في مسيرها للخط الحديدي الحجازي نمتع النظر بهذه الأنفاق المحكمة الكثيرة التي بنيت لتقوية الخط وصلاحه ، وتم إنشاؤها اتقاء لعوادي الأمطار وهجمات السيول . وبالجملة لا يعلم إلا الله مقدار مابذل على إنشاء هذا الخط العظيم من الأموال وعقول المهندسين ؛ ومن شاهد بعينيه ماشاهده

ركب الزيارة ، والله المسؤول أن يعيد لهذا الخط مجده فهو في أيامنا عنوان اليد الإسلامية العاملة .

وأما الأمر الثالث فهو هذه البركة العظيمة التي استقبلت الزوار بالترحيب فطهرت أوانيهم ، ونظفت أجسامهم ، وأباحت لهم حماها فحملوا منها ما يرغبون . أرضها إسمنت ، وجدرانها حجارة صلبة بيضاء ، لا يعيبها أن يستفيد منها الألوف ، ولا يعجزها أن ينتفع بها عشرات الوفود : فسبحان الوهاب الحكيم المعطي الكريم . وصلنا إلى القطرانة قبيل الظهر ، فوقفت السيارات لأداء فريضة الظهر : فالهواء نقي والماء عذب كثير .

حرص بعض رجال الركب على أداء صلاة الجمعة : فأخبرتهم بأنها لا تصح عند الشافعية لعدم وجود الأربعين المقيمين ، ولا عند الحنفية لعدم وجود قاض شرعي وحاكم مسلم وإذن من السلطان بإقامتها .

وسألوا عن الحكم عند المالكية فأجاب اليعقوبي والتلمساني المالكيان بأنها لا تقام لعدم وجود ثمانية مقيمين تصح بهم الجمعة . وفي الركب حنابلة من أهل العلم قالوا أيضاً : بأنها لا تصح لعدم وجود أربعين مقيمين ، وعلى هذا صلى الناس الظهر .

الماء في القطرانة

لفت نظرنا في القطرانة بركة ماء ، وبجانبها بركة أخرى يرد الماء إلى الأولى منها بواسطة نفق تحت الأرض يصفي الماء فيجعله عذباً سائغاً للشاربين ، كما لفت نظرنا فيها قبر علامة الشام المرحوم الشيخ حامد العطار ، وهو والد شيخ شيوخ الشام المرحوم الشيخ بكري العطار ، فقد دفن فيها إثر مرض ألمَّ به وهو عائد من أداء فريضة الحج سنة ١٢٦٤ هـ ، وكان رفيقه في أداء الحج العلامة الدمشقي

الكبير المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكزبري الذي مرض ومات ودفن في المعلاّة مقبرة مكة المكرمة . سرنا من القطرانة نحو الظهر فمررنا بمحطة المنزل فعزيرة فالحسا ، فجروف الدراويش ، فعنزة ، فمعان ، والطريق طويل كله مياه وأشجار . يمتد الطريق آلاف الأميال والأفق لا يتغير شكله ، وهو بروعته يدعو إلى توحيد موجده ، وأحياناً ترى في منتهى بصرك بحراً خضماً بمائه الأزرق السماوي ، كأن الفلك تمخر عبابه وتغالب أمواجه : فإذا أمعنت النظر تبين لك أنه سراب وسحاب خُلّب . أما هذا الخط الحديدي الحجازي فهو نعم الرفيق لنا نراه تارة عن اليمين وتارة عن الشمال ، وأخرى يغيب لبعض حاجاته فلا يرانا ولا نراه . وألوان هذه الطريق على غاية من البداعة والجمال ، تأسرك روعتها ، ويأخذ بلبك سحرها ، فمن أرض بيضاء يبلغ ذرعها نحو مئة ألف ذراع إلى أرض صفراء لا يحصى ذرعها ولا تحد مساحتها ، ومن أرض جمعت عدة ألوان ما بين أسود وأبيض ، وأحمر وأكدر ، وأزرق وأصفر ، وهناك الأرض السهلة والوعرة والمدحوّة والمتجعدة والجرداء وذات الزرع ، وهناك الشيح والقيصوم والعبيثران ، وكلها من ذوات الرائحة الزكية ، وهناك الزهر الأصفر الجذاب غذاء النحل ومصدر العسل . والحصا مختلف ألوانه ، والشجر مخضرة أوراقه ، وفوق تلك الأكمة القاحلة حجارة وضاءة مختلفة الألوان متعددة الأشكال ، تكسبها الشمس بريقاً يبهج الأبصار ، فسبحان من أتقن ما صنع وأبدع ما خلق .

كان دخولنا إلى (معان) بعد العشاء ، ومسيرنا من عمان إلى معان قرابة عشر ساعات . ثم سارت سيارتنا إلى (الشعار) . صلينا المغرب والعشاء مجموعتين جمع تأخير ، ونزل الزوار للاستراحة .

يوم السبت ١٣ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

المسير من الجفر إلى المدورة

وهي تقع في الكيلومتر /٥٧٨/ . ومعان تقع في الكيلومتر /٤٦٤/ فالبعد بينهما /١١٤/ كيلومتراً ، يجتاز القطار الحجازي بينهما سبع محطات ؛ حيث يجتاز من معان إلى (غدير الحج) ، فالعقبة ، فبطن الغول ، فوادي الرتم ، فتل الشحم ، فالرملة في الكيلو /٥٦٠/ ، فالمدورة في الكيلو /٥٧٨/ ، فالجفر .

وكان يوماً من الأيام اللطيفة البديعة ، ولكن بعض السيارات غاصت في الرمال ؛ فنزل الركاب إلى نزع حشيش العبيتران ليمكن سير السيارات عليه ، ثم إلى شد السيارات بالحبال وبقوة الرجال ، ونام الناس في المدورة حيث ضربت خيامهم .

بقي مرّاً في فمي أمران مؤسفان ، أولهما : وجود الفوضى في قيادة السيارات . والأمر الثاني : قلة المياه حتى اضطررنا للتيمم ، ولكنا حمدنا الله تعالى على صفاء السماء ولطف الهواء وازدهار النجم ، حتى ترك كثير من الناس المكث في خيامهم يسمرون أمام صيوانها .

يوم الأحد ١٤ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

أصبحنا وليس في الأرض ماء ؛ فأممنا (المشاطية) وهي في الكيلو /٥٩٩/ فذات الحج في الكيلو /٦١٣/ ، وجعل الناس يفتتحون السير بقراءة سورة (يس) ، وأذنوا للسيارات بالإسراع مخافة الغوص بالرمل ، وانقطع البعض وتعثر ، ثم جمع الله الشمل ، وابتدأ السير إلى بئر هرماس .

قبل ذات الحج

ذات الحج هي أول أراضي الملك ابن سعود وإلى أميرها يعود أمر مراقبة كل من يريد دخول البلاد الحجازية ؛ لهذا اكتفينا بإرسال سيارتين لإعلام أمير ذات الحج بوصول الركب ، واستصحاب دليل من قبله بعد أن ودعنا الدليل الذي رافقنا من (المدورة) ؛ حيث انتهت معرفته بالأرض التي له علم بها . وعادت السيارتان إلى ذات الحج ومعهما خرّيت[1] أسود اللون استبشر به الزوار . ومضينا نخبّ في أراضٍ سهلة يحسبها الرائي مبلَّطة[2] ، أو فرغ منها عامل الإسمنت في هذه الساعة . وقليلة فيها الأرض الحزون[3] . وما زال القوم جادين في السير فرحين مستبشرين حتى وصلوا إلى (بئر هرماس) ، وهي محطة للسكة الحديدية الحجازية تقع في الكيلومتر /٦٢٧/ فيها بئر ماء لم يحمد القوم الشرب منه .

العودة إلى السير

عدنا للسير صباحاً من (بئر هرماس) ، وبعد العصر بلغنا تبوك ، وقبيل وصولنا إليها خرج لاستقبالنا وفد الطليعة ، وكان ثمة شوق وابتهاج . ومنذ ابتعدنا عن معان غاب عنا الخط الحديدي الحجازي فلم نره إلا في نهاية أراضي شرق الأردن ، حيث عاد إلى مرافقتنا في مبتدأ الأراضي السعودية . فكنا نرى من آثاره الباقية قناطره وجسوره وآثار المحطات التي كانت له ؛ فتهفو لرؤيته القلوب وتطلب من الله تعالى إعادته على المسلمين . وبعد أن حللنا تبوك طلب إلينا أن نذهب إلى مسجدها ، والتقينا بالشيخ ناصر بن محمد الوهيبي القاضي

---

(١) الخرّيت : كسكّيت : الدليل الحاذق (القاموس) .

(٢) بلط الدار وأبلطها فرشها بالبلاط كسحاب وهو الأرض المستوية الملساء (القاموس) .

(٣) الحزن بوزن فَلس ماغلظ من الأرض والجمع حزون بوزن فلوس (المصباح) .



سندة تبوك وفيها الركاب يسحبون السيارات



أمير تبوك مع فريق من أعضاء جمعية الهداية

الشرعي بتبوك ، حيث خرج لاستقبالنـا قبيل المسجـد . وكانت المحكمـة غرفـة في المسجد في الجهة الشرقية منه ، سلمنا عليه ثم مضينـا للسلام على أمير تبوك السيـد (سليمان بن سلطان) ، فألقيتُ كلمة نَوَّهت فيها بفكرة الزيـارة التي قـامت بها جمعية الهداية ، وختمت كلمتي بالثناء على جلالة الملك عبـد العزيز آل سعود وعلى أمرائه الذين لاقت الجمعية منهم كل عطف ومساعدة .

تبوك

تقع تبوك في منتصف طريق المدينـة إلى دمشق تقريبـاً ، وقيل : تبعـد عن دمشق إحدى عشرة مرحلة ، وعن المدينة أربع عشرة مرحلة . قاله صاحب الفتح وغيره . ٦٢/٣ . وهي الآن مركـز للحكـومـة السعـوديـة فيهـا أمير يقـوم بتنفيـذ الأحكام ، وقـاض شرعي تُرى لـديـه جميـع الـدعـاوي والشكايـات . وفي (المصباح) : باكت الناقة تبوك بوكاً سمنت ، فهي بائك . وبهذا المضـارع سميت غزوة تبوك لأن النبي ﷺ غزاها في شهر رجب سنة تسع للهجرة ، فصالح أهلهـا على الجزية من غير قتال ، فكانت خالية من البؤس فأشبهت الناقـة التي ليس بها هزال ، ثم سميت البقعة تبوك بـذلـك .. وهو موضع من بـاديـة الشـام قريب من أهل مدين الذين بعث الله إليهم شعيبـاً . وفي تبوك وقعت هـذه الغزوة المعروفـة بغزوة تبوك ، وقد وردت تسميتها بذلك في الأحاديث الصحيحة عند مسلم وأحمـد والبزار ص ٦٢ وذلك في رجب من السنـة التـاسعـة للهجرة قبل حجـة الوداع بلا خـلاف ، وهي آخر مغـازيـه ﷺ كما رواه أحمـد في حـديث كعب ويـونس في زيـادات المغـازي من مرسل الحسن وابن عقبـة من مرسل الـزهري قـالـه ٦٣/٣ ، وتسمى غزوة العسرة ، قاله البخاري وغيره . وفي حـديث الشيخين قول أبي موسى في جيش العسرة وهي غزوة تبوك ، وتعرف بـالفـاضحـة لافتضـاح أمر المنـافقين فيها لما نزل فيهم من الآيات الدالة على كـذبهم ، وحيث أن بعض النـاس يرى أن

هذه الغزوة لم تكن لها من فائدة لأنه لم يقع فيها حرب ، أحببنا أن نلخص خبرها ونذكر بعض الرجال الذين سطع ذكرهم فيها ، وما نشأ عنها من الفوائد العامة والخاصة . وذلك بمناسبة تشرفنا بها وحلولنا بأرضها فنقول :

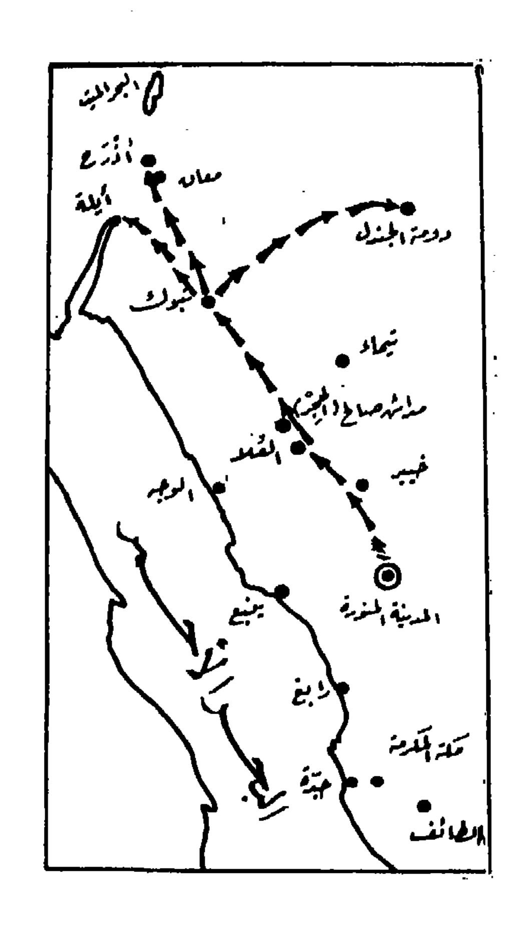
غزوة تبوك من الغزوات المشهورات في تاريخ الإسلام ، والتي جنى المسلمون منها الفوائد العظمى والمنافع الْجُلى . سببها كما نقله الحافظ ابن كثير في ٥/٢ من تاريخه ، ورواه ابن بردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد وابن جرير عن سعيد بن جبير ص ٦٤ إن الله تعالى أمر أن يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره . فقالت قريش : لتنقطعَنَّ عنا المتاجر والأسواق في أيام الحج ، وليذهبَنَّ ما كنا نصيب منها ؛ فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ، مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة ٢٨/٩ - ٢٩] ، وقيل : إن رسول الله ﷺ بلغه أن العرب اتفقوا مع الروم ، وكتب نصارى العرب إلى هرقل فبعث قائداً اسمه قباز ومعه أربعون ألفاً ، فندب النبي ﷺ إلى الخروج ، نقله الحافظ ابن كثير ص ٢ . وقيل : عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لما تجمعوا على قتاله ، دفعاً لشرهم ولأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق وقربهم إلى الإسلام وأهله . وقد قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيْكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة ١٢٣/٩] .

عزم رسول الله ﷺ الخروج لتبوك

لما عزم رسول الله ﷺ على الخروج لتبوك ، كان ذلك في حر شديد وضيق من الحال . نقله الحافظ ابن كثير ص ٢ و ص ٣ ، والقسطلاني عن نصير عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل ، وقال : « حين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص في الحال من الزمن الذي هم عليه ، وكان ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كَنَّى عنها ؛ إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بَيَّنها لبُعد الشقة ليتأهب الناس لذلك ، ودعا من حوله من أحياء العرب للخروج معه فأوجب معه بشرٌ كثير ، وتخلف عنه آخرون ، فعاتب الله من تخلف منهم بغير عذر من المنافقين والمقصرين ، ولامهم ووبخهم وقرعهم أشد التقريع ، وفضحهم أشد الفضيحة ، وأنزل فيهم قرآناً يتلى ، وبيَّن في سورة براءة أمرهم ، وأمر المؤمنين بالنفر على كل حال فقال تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة ٤١/٩ ـ ٤٢] .

المنافقون يرجفون

لما أمر رسول الله ﷺ بالجهاد إلى تبوك ، قال بعض المنافقين لبعض : لاتنفروا في الحر ، أي لاتخرجوا إلى الجهاد في الحر ، زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وتنفيراً من طاعة الله ورسوله ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة ٨١/٩ ـ ٨٢] . أي فليضحكوا قليلاً في الدنيا وسيبكون كثيراً في الآخرة . قال الحافظ ابن كثير : قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه : متاع الدنيا قليل ،



غزوة تبوك

رجب ٩ هـ ، تشرين الأول ٦٣٠ م وهي : غزوة الْعُسْرَة
وآخر غزوات الرسول الأعظم ﷺ

فليضحكوا فيها ما شاؤوا ، فإذا انقضت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً .

حضّ أهل الغنى واليسار على الإنفاق في سبيل الله

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ جدَّ في سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش (كمشه : أعجله ، وتكمش : أسرع كانكمش) هامش ابن كثير . وحضّ أهل الغنى على النفقة والْحُمْلان (بضم فسكون : الشيء الذي يركبون عليه . نقله الزرقاني عن الحافظ ص ٦٧) في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا .

استخلافه ﷺ على المدينة

ثم استتب برسول الله سفره ، وأجمع السير (عن ابن إسحاق) واستخلف ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري (عن ابن هشام) وقيل (عن الداروردي) سباع بن عرفطة (بكسر المهملة وخفة الموحدة وعُرفطة بضم المهملة وسكون الراء وضم الفاء فطاء مهملة) وعلى أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين . وقيل : إنه استخلف علياً رضي الله عنه على أهله وعلى المدينة ، ورجحه كثير من الحفاظ وغيرهم (لصحة الحديث به وترجع جهابذة الحفاظ له وناهيك بابن عبد البر وابن دحية والعراقي) .

خروج رسول الله ﷺ ونفر المؤمنين معه وتخلف المنافقين عنه

لما خرج رسول الله ﷺ لتبوك خرج يوم الخميس (كما رواه البخاري والنسائي) ، وفي رواية للبخاري أيضاً (قلما كان يخرج إذا كان خرج في سفر إلا يوم الخميس) وضرب عسكره على ثنية الوداع ، ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس (جزم به ابن إسحاق والواقدي وابن سعد ورواه الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل والواقدي عن زيد بن ثابت ٧٤/٣) فلما سار تخلف عنه

عبد الله بن أبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب (قال العلماء : كان المخلفون عنه ﷺ أقساماً أربعة : مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ، ومحمد بن مسلمة وابن أم مكتوم . ومعذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون وهم البكاؤون . وعصاة مذنبون وهم الثلاثة الذين خلفوا وأبو لبابة وأصحابه . وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون كعبد الله بن أبي وأصحابه) .

العسرة في الماء والنفقة والظهر

وسار ﷺ بالناس فأصابهم أثناء مسيرهم حرّ وعطش شديدان وضيق في النفقة والظهر . أخرج أحمد حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن عقيل في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة ١١٧/٩] قال : خرجوا في غزوة تبوك : الرجلان والثلاثة على بعير واحد في حر شديد ، فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة في الماء والنفقة وعسرة في الظهر . وما زال رسول الله يسير بالناس حتى نزل بهم الحِجْر (في الفتح الحجر منازل ثمود ، وفي الأنوار هو واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه) وثمود بمنع الصرف على إرادة القبيلة للعلمية والتأنيث المعنوي ، ويصرف على إرادة اسم الأب وكلاهما ورد في القرآن الكريم مثال ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [الأعراف ٧٣/٧] و ﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً ﴾ [الفرقان ٣٨/٢٥] اهـ الزرقاني ٧٣/٣ .

الدعوة عند أمير تبوك

دعينا لتناول طعام العشاء عند أمير تبوك في مكان فسيح أُعِدَّ لذلك ، وضع فيه نحو عشر سفر يتوسط كل سفرة منها صحفة فخمة كبيرة : امتلأت بالرز واللحم والدهن ، وصُفت حواليها أواني المرق الممتلئة باللحم والبصل وأواني الحليب وقطع الخبز والملاعق ، وأحاط بهذا كله خدم يحملون الماء والمراوح ، فأكلنا وشكرنا ووُدعنا بالحفاوة كما استُقبلنا بالترحيب ، وحضر الأمير فدار



أمير تبوك والمرحوم الشيخ عبد القادر العاني وياسين عرفة وكامل القصار



فريق من الزوار وفيهم طبيبا الرحلة
الدكتور محي الدين القوتلي والدكتور مصطفى الحاج ويس
والأستاذ ياسين عرفة

الحديث حول السير في يوم غدٍ . ورأى الوفد أن من واجبه رفع برقية لجلالة الملك عبد العزيز ، وأن الوفد منذ الآن قد أصبح بقيادة جلالته ـ أبقاه الله ذخراً للإسلام والعروبة ـ ولتأكيد وصول البرقية سلمتُها بيدي لأمير تبوك الذي أبدى استحسانه وتأييده . وسارت سيارتنا بسم الله مجريها ومرسيها مغادرين تبوك والأمير وموظفوه واقفون لوداعنا ، وما هي إلا ساعة حتى غاصتْ أولى السيارات في الرمال ثم غاص الذي بعدها فنزل الناس وأخذوا يعملون على إخراج السيارات بإزالة ماتراكم على دواليبها من الرمل ، وبقطع نبات العبيثران لفرشه أمام السيارات وبالشد بالحبال ، وامتد هذا العمل إلى قبيل الغروب ، والكل يدعو الله ويرجوه ويستغيثه ويطلب منه . ومشت السيارات قليلاً ثم عادت للوقوف وعاد القوم للنزول وعاد إضجاج[1] الزوار واستغاثتهم بربهم ؛ فاستُجيب لهم وسارت جميع السيارات واعترى الجميع فرح عظيم .

نوع جديد من وقوف السيارات في الطريق

بينا تسير السيارات بسير صالح منظم إذا بالواحدة تقف فتتبعها التي بعدها ثم تتبع الثانية الثالثة .. وهكذا تسري العدوى إلى الباقيات فيُقال : يجب الانتظار ونقول : انتظروا إنا معكم منتظرون . ويطول أمر الانتظار ويعود الكاشفون للطريق ، فيقال : إن في الطريق ثلاث رملات إذا اجتازتهن السيارات سلم الركب ، ونقول : نوع جديد من الجهاد . وتسير سيارتنا فترتفع لتجتاز أكمة وقفت في سبيلها ثم تعود بعد اجتيازها لها فتنخفض لأن الأكمة تنتهي طبعاً بوَهَدة ، وعند الارتفاع تصطك رؤوس من في السيارة على حين غفلة بسقفها ثم تهوي هذه الأجسام في الانخفاض حتى تمسّ حديد مقاعدها ،

---

(١) أضج القوم إضجاجاً جَلَبوا وصاحوا . فإن جزعوا من شيء وغلبوا قيل ضجوا ، يَضِجون بالكسر ضجيجاً والضجة الجلبة (المختار) .

فيُصاب هذا بضربة على صدغه ، وذاك بضغطة على جبينه ، وآخر بلطمة على ذراعه ، ورابع بضرب على كاهله ، والخامس يلبي الله استغاثة فيحفظه من كل ذلك . وما تكاد تنتهي هذه الأزمة حتى تعارض السيارة رملة تضطر إلى اجتيازها بالإغارة عليها والوثوب من فوقها مع مزيد السرعة ، ثم تعود السيارات إلى هدوئها فيقول البعض : ماأحلى فرج الله ، وآخر يقول : هذه الأجسام يحييها هذا الصدام وثالث يقول : يالروعة الصحراء .

العود أحمد

نعم يعود نوع آخر لإيقاف سير السيارات ، إذ نشاهد على حين غرة أن بعض الركاب ينزل بغتة طلباً لاستراحة عاجلة ، وكان أكثر النازلين من النساء وهكذا يعود القوم فيجتمعون ويعود إليهم أمنهم . ولكن بعضهم لم يكن يفكر بالطعام أو الشراب لانشغاله بالكفاح والجلاد بينه وبين الطريق . ومن الذي يطلب الطعام ؟ وهل إذا طلبه يجده ؟ وهل إذا وجده يسيغه ؟ والسَّيَّارات بين اللاحقة والسريعة والبطيئة والمغامرة والحائرة والجريئة والخائفة والمتربصة ، والناس في أثناء ذلك أسراب أسراب ، وجماعات جماعات : واحد على ظهر أكمة وامرأتان في آخرها وثلة من النساء تتبع الواحدة الأخرى مسرعات إلى سيارتهن التي تقدمتهن .

تقف سيارة الكشف فيقف ما بعدها من السيارات ، والناس في هذا الركب تبع لسياراتهم ، فتجمع الشمل ويلحق المتأخرُ المتقدم ، والشيخ الشابَّ ، والاثنان الجماعة ، والواحد أصحابه .

وما هو إلا أن يبتدئ السير حتى يقف على أثر صراخ يقول : غاصت السيارة الأولى وتبعها غيرها فتعود الاستغاثة بالله والصلاة على رسول الله ﷺ ، ثم يتحلحل الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن يأتي الفرج ويعود الركب إلى المسير .

كيف كان التيم ؟

علمت أن رجلاً من الزوار صلى بطائفة وجمع بين وقتين مقلداً الشافعي بجواز الجمع ، ولكنه ويا للأسف صلى بالناس الفرضين بتيمٌم واحد . والشافعية يقولون [لا يُصلى بالتيم غير فرض واحد] .

ورأيت من تيم ولم يستوعب مسح الوجه ولا اليدين ، فهو يفرق بين التيم وبين الوضوء مع أن استيعابَ الوجهِ واليدين بالتيمُّم هو كا في الوضوء فرض ، وكلاهما لا يصح العمل بدونه . ورأيت من تيم بالرمل الخالص مع أن التيم بالتراب شرط عند الشافعية ، فلا يصح التيم بغير تراب عند الشافعية . وأمضينا ليلتنا هذه مترددين أن ننام داخل السيارات أم ننزل إلى الأرض ، والخيام لما تصل بعد ؛ فتفرق القوم وقد أدركهم التعب وبرَّح بهم العناء . ورافقنا القمر ليلتنا تلك مشرقاً ساطعاً لا يسع الكاتب وصفه ولا البليغ نعته ، فسبحان البديع اللطيف الحكيم .

يوم الثلاثاء ١٦ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

كانت وجهتنا طلعة تبوك . الصحة قد عمت الجميع ونسي القوم ما لاقوا قبلُ من العناء ، فسيارة يقرأ أصحابها شيئاً من القرآن ، وسيارة يذكرون فيها الله تعالى ، وأخرى يُصَلّون فيها على النبي ﷺ ، فلا تسمع إلا أناشيد وأهازيج .

استمر هذا نحواً من ثلاث ساعات متصلة فإذا بطلعة تبوك تشرف علينا يتقدمها واد كبير الاتساع . كنا نظن رابية تبوك جبلاً شديد الارتفاع لا تسير فيه سيارة ولا يجتازه ركب ، فلما وصلنا لم يحقق الْخُبْرُ الْخَبَر . وكل ما رأيناه أن طلعة تبوك رابية ليس من العسير اجتيازها ، ولكن العسير هو هذا الوادي المرمل ذو الوهدات والمنخفضات ، وفي نهاية هذا الوادي تبتدئ رابية تبوك .

ونزل القوم لتذليل الصعاب وإصلاح الطريق الموصلة إليها . فهذا يحمل

أحجاراً صغيرة ، بينما يحمل ذاك حجراً واحداً كبيراً . وهناك جماعة اجتمعوا على حجر عظيم فاقتلعوه من موضعه ليغرسوه في وهدة تعترض طريق المارة . وهناك رجلان يُقلاّن حجراً كبيراً كالصخرة يضعانه على حاشية المسيل ، وعلى ظهر رجل ثالث حجر أملس كبير يبني به حافة الطريق . بل رأت عيني بعض النساء يحملن الأحجار ويرصفنها في مسيل الوادي ؛ فيسهل بذلك مرور السيارات فيه إلى أن صدر أمر قائد السيارات الصغيرة بالنزول في الوادي ، وكانت كلما غاصت سيارة عمل القوم على إخراجها بوسائط مرنوا عليها . وابتدأ بعد ذلك السير إلى الرابية نفسها ، وعاد فرش الأحجار من جديد ، واحتيج لوضع أحجار عريضة تسير عليها الدواليب إضافة لألواح التوتياء الكبيرة . وأخيراً ظهر رأي أخفى ماقبله من الآراء ، وهو وضع شريط عريض تمشي السيارات عليه .

مابعد رابية تبوك

اجتاز الركب قمة (رابية تبوك) ، واستقبل الركاب بعدها أرضاً سهلة منبسطة : سميت بوادي الخنيصر . وبعد ساعة من هذا السير الحسن اشتد الهواء اشتداداً لم يكن مألوفاً ، فكانت العاصفة تنقل أكمة رمل من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين . ولسوء الحال أضحت السيارات في خضم عظيم من الرمل والهواء يثور من الشرق فيقابله ثورة هواء من الغرب ، ثم تهاجمها ثورة ثالثة من الشمال ورابعة من الجنوب ، وهكذا تمتلئ الدنيا رملاً وهواء فلا تكاد تتبين مَنْ أمامَكَ حتى تسمع صوته أو تتلمس يديه ولبست ثياب الناس ووجوههم ورؤوسهم طبقة من رمل وغبار . وجاء الدليلان اللذان بعث بهما أمير تبوك ليكونا مرشدَيْن للركب وهما من الخويّان أي بينهم وبين الأمير مواثيق وعهود أخوية . وبذلا جهداً كبيراً للإنقاذ . وكانت الأرض تختلف اختلافاً واضحاً ، فتارة تجتمع علينا وتارة تبتعد عنا . وتارة تكون ذات سفوح وأخرى تكون ذات تعاريج . واتصلنا بعد ذلك بوادٍ آخر فسيح تحيط به الجبال من جوانبه الأربعة ،

وهو وادٍ ليس فيه غير الرمل ، يتقاذفه الهواء . فسبحان الإله الحكيم العزيز العليم .

السير إلى المعظم

استمر هذا العراك وهذا الاصطدام بين سياراتنا وبين الرياح إلى مابعد العصر ، حيث عادت السيارات تسير بنظام حسن ، آخذة سمتها إلى المعظم .ومن لطف الله تعالى أن أرسل لنا هواء عليلاً ، بعد ذلك الهواء الشديد المحارب ، وذلل لنا الأرض فكانت قليلة الوعر خفيفة الرمل ، فسار الركب براحة وهدوء بال ، ولكن وصوله إلى المعظم طال أمره ، فلم ينفع السيارات قطع المسافات ولم يُفدها أنها جدت وتركت وراءها الروابي والتلال ؛ لأن الركاب رغم كل هذا الكدح لم يصلوا إلى المعظم . والمعظم ببعده متوشح بكبره ، لم يسمح لأحدٍ من الوفد برؤيته ، ولم يمنّ عليهم بالنزول في رحابه . والذي كان يؤلمنا بعد أصحابنا عنا وتفرقهم في هذه الأرض اليباب فلا ندري عنهم خبراً ولا نجد لهم أثراً ، وقد أوصلنا اجتهادنا إلى مواصلة السير وقوّى في نفوسنا صحة هذا الاجتهاد رؤية بعض الطيور ووجود بَرْدٍ في الأرض التي نحن فيها فرجحنا أن هذا برهان على وجود الماء ؛ ونحن في أشد الحاجة إلى رؤيته وإلى سماع خريره ، فالوجوه من الغبار كالحة والأواني متسخة والثياب تبدلت ألوانها وبرز القمر ليحبب إلينا المسير ويذلل أمامنا العسير ، ونادى السائق : إن (البنزين) قد فرغ . فاستصرخنا الرفاق ، وحملنا السيارة بالدفع حتى بلغنا سيارات إخواننا ، وبلغت أرواحنا معها التراق ، ولم يبق لدخول الفجر غير ساعة واحدة . أنهكنا التعب فكان في ذلك غنية عن الطعام ، فافترشنا الأرض واستسلمنا للنوم غير شاعرين بقذائف الهواء وهجماته ، وعويل الرياح وشعث رمالها .

شراب التوت

طلب إلينا الدكتور (مصطفى) طبيبنا أن نشرب معاً شراب التوت من

زجاجة كان وضعها عند طبيب الركب ، بحجة أن الوقت حر وأن الطبيب صديقه وزميله ويكفي برهاناً على صداقته له ، أنه كل هذه المدة يأكل من طعامه . فقلت له : أما أنت فإذا كنت تعلم رضاه فلا بأس من شربك ، وأما نحن فيجب أن نتيقن رضاه أولاً . قال : لا بأس عليكم اشربوا فالدكتور صديقي وأنا بذلك زعيم قلت : إنما هي مسألة حلال وحرام ، فما لم نعلم رضاه لا يحلّ أن نتناول شرابه . جاء في كتاب (الورع) للإمام أحمد حدثنا أبو بكر قال : وسمعت محمد بن إدريس يقول : سمعت بشر بن الحارث يقول : ما ينبغي للرجل أن يشبع من الحلال لأنه إذا شبع من الحلال دعته نفسه إلى الحرام ، فكيف إلى هذه الأقذار اليوم ؟ وفيه قال بشر بن الحارث : سمعت المعافى بن عمران يقول : كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ، وإلا استفّوا التراب . ثم عَدَّ أسماء عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال وإلا استفّوا التراب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ياأيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طَيّباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون ٥١/٢٣] وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة ١٧٢/٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنّى يُستجاب له » . وتمضي مُدَّةٌ فأضَعُ يدي على حديدة مقعد السيارة أتوكأ عليها . فإذا بالطبيب يقبلها على غير علم مني فاستغفرت الله كأني عملت خطيئة . وسألته عن السبب فقال : صدقتم صدقتم يجب أن نكون عند نصيحة العلماء . ثم قال : سألت طبيب الركب ـ وهو صاحب الشراب ـ فلم يسمح أن يشرب منه أحد غيري .

متابعة السير

عادت إحدى سيارات الطليعة تبشر بوجود الماء على بعد خمسة عشر كيلومتراً حاملة معها من الماء ماتيسر ، فهزج الناس وفرحوا وسُروا واستبشروا ، وارتفعت أصواتهم بالترحيب بهذه السيارة وبشكر الله تعالى على مزيد نعمته . واقترضت سيارة من زميلتها ماتقصها من البنزين وأخذت الثالثة من الرابعة مااحتاجت إليه من الزيت ، وانتظر القوم تجمع بقية السيارات المتخلفة ، ولم نر اليوم من تلك الوهدات والأكمات والمنخفضات والمرتفعات ماكنا نراه قبلُ ، ولكنا رأينا جديداً - رأينا أن دولاب السيارة الأيمن الخلفي قد تعطل على حين غفلة ، فطلب السائق من الراكبين النزول ، ولبى القوم الطلب ، ونزلنا قفرة واسعة تحيط بها الجبال السوداء التي أحرقها حر الشمس ، قد امتلأت قيظاً وحَرّاً في وقت الضحوة الكبرى . وتفرق الناس واختلفوا في توقّيهم من الشمس هذا بمظلة ، وذاك تحت بطن السيارة ، وثالث بكوفية وضعها على رأسه ، وأحدثك عني فقد وضعت رأسي داخل السيارة وباقي جسمي في الشمس خارج السيارة حتى لاأثقل على دواليبها ، ثم سرنا على بركة الله ، ولم يمض علينا أكثر من عشر دقائق حتى وصلنا (المعظم) وهي المحطة التي أحرزت هذا الاسم الكريم عن جدارة واستحقاق ، فهي ذات بحيرة عظيمة لا يزعجها أن يحمل من مائها الألوف من الناس ، وفيها أماكن حجرية أثرية لها شأنها وقيمتها يوم كانت السكة الحجازية تغدو وتروح في هذه البقاع . فيها قلعة حجرية من الحجر الأبيض الصلب ، ولعظم الماء في بركتها وضعت السكة الحجازية بناء حجرياً جعلت في أعلاه ناعورة ماء هوائية تجلب الماء من البركة لمصانعها . فنزلنا وأنزلنا أمتعتنا وتواردنا الماء شرباً وتنظيفاً وغسلاً وادّخاراً ، ثم توضأنا وصلينا وحمدنا الله على فضله ومَنّهِ .

ومن لطيف ماسمعناه من الشيخ الأستاذ السيد المكي الكتاني في بلدهم

(فاس) أن الحكومة لاتعين معلماً للصغار إلا أن يكون متزوجاً وذا أولاد ، حتى تكون تربيته للأولاد تربية صحيحة يعرف منزلة الولد على والديه .

الحصن في المعظم

باب الحصن مرتفع شامخ ، مبني من الحجارة الناعمة الصلبة ، وفوق الباب قوس حجري في وسطه شباك على شكل المنافذ الحربية ، واسع من داخله ضيق من خارجه ، وفوق الباب لوحة مكتوب فيها بالحجر (لاإله إلا الله محمد رسول الله) بسطرين . وتحت هذه اللوحة مكتوب باللغة التركية عدة أسطر ترجمتها : « رحم الله بانيها ، ونسأل الله له الدوام والعيش والرغد » . وفوق الباب قبة مبنية من الآجر ، وعلى يسار الداخل من الباب لوحة مكتوبة بالتركية بالخط الديواني فيها اسم الباني ، وعلى يمين الداخل لوحة كتب فيها باللغة التركية : (نسأل الله أن ينصر السلطان سليمان ، ووزيره محافظ الشام) وفيها بئر عمقه خمسون ذراعاً يتصل بالبركة بقناة . في الطابق الأعلى غرف علوية ومنارة ذات نوافذ حربية صغيرة تطل كل واحدة على جهة من الجهات الأربع . وفي هذا الطابق مسجد ومحراب كتب على أعلاه (بسم الباقي الخلاق) وعلى باب الغرفة اليمنى غربي الحصن لوحة كتب فيها : (قد كان محافظ الحصن شمدين ابن المرحوم عارف أفندي العسلي) ٢٠ رمضان ١٣٢٠ هـ . ويخرج إلى الطابق الثالث بدرج حجري عريض ، وفي جهته القبلية في الجنوب منارة ، وفوق هذه المنارة قبة متهدمة . وهي تطل على البركة . وفي الطابق العلوي (روشن) مستدير في كل جهة من جهات الحصن الأربع ، فجزى الله المحسنين والعاملين أفضل الجزاء .

لطف الله بقدره

قبل أن نصلي العشاء سمعنا صارخاً يقول : غرقت المرأة فأنقذوها ، ودوّى الصوت في سرادقات الزوار ، فهرعوا نحوه إلى جهة البركة وما منهم إلا من امتلأ حمية ونجدة ، فإذا هم يرون امرأة طاعنة في السن سقطت في البركة وهي تحاول

إسلام روحها ، وقد كانت خرجت من خيمتها إلى جهة الماء فرآها طبيب الركب الدكتور محيي الدين القوتلي ، فجرى بينه وبينها المحاورة الآتية :

الطبيب : إلى أين ؟

المرأة الكبيرة : إلى البركة .

الطبيب : ارجعي .

المرأة : لاتخف علي .

الطبيب : ارجعي ياأختي .

المرأة : لاتخف إني أسمع وأرى .

ولم يمض على هذه المحاورة برهة قصيرة إلا وسمع الطبيب كأن شيئاً سقط في البركة . فنظر فإذا بالمرأة قد سقطت في الماء ، فجن جنونه ، وصاح بأعلى صوته : (غرقت المرأة فأنقذوها) .

كنت وأصحابي قبل أن نسمع هذا الصوت نتأهب لصلاة العشاء ، فلما سمعنا الصوت دُهشنا وأحاطت بنا الحيرة والخوف من سوء العاقبة . وجعلنا نشرف على الناس من أعلى الحصن ، وأسرع بعضنا فتوسط المعمعة . وعلا صياح الناس ، واختلفت أصواتهم بالاستغاثة . فهذا يستصرخ ربه وهذا ينادي صحبه وذاك يدعو رفاقه ليأتوه بحبل . وألقى أحد الشباب بنفسه في البركة وتبعه شهم ثان فثالث . وما هو إلا أن تعلقت الغريقة بالمنقذ الأول تعلقاً لم يمكنه من الإفلات منها ، الأمر الذي أدى إلى تعذيبه والتضييق عليه تضييقاً خيف معه أن يدركهما الغرق معاً . فارتفعت الأصوات وانخلعت القلوب وهلعت الأفئدة . وارتفعت الأيدي إلى السماء مستغيثين بربهم لاجئين إلى خالقهم . وصاح صائح : الحبلَ الحبلَ . وألقي الحبل في الماء فتعلق به المنقذ وعَلّق الغريقة ، فعظم أمل الناس بإنقاذها ، ولم يمض على هذا الأمل لحظة حتى عادت الغريقة التي خارت قوتها وضعف عزمها ، وتجمدت حركتها ـ إلى السقوط في الماء ثانية . وحينئذ علا

احتجاج الناس ، واشتد لغبهم وصخبهم ، وازداد صراخهم وعويلهم ، وأخذتهم رعدة شديدة من الجزع والهلع . وفي عنفوان هذه الشدة وإبان ثورتها يعود العقلاء منهم إلى الجادة فيلتجئون إلى من لا يخفى عليه شيء من أمرهم ، وإلى من بيده قوتهم وحياتهم فقائل يقول : ياغياث المستغيثين . وآخر يقول : ياحي ياقيوم . ومستمسك بياأرحم الراحمين . ومستمسك بيالطيف يالطيف . ويتعلق المنقذ الأول وغريقته بالمنقذ الثاني فيخاف الخائفون ، ويصيح الصائحون ، ويصدق اللاجئون إلى الله تعالى بالتجائهم ، ويخلص المخلصون باستغاثاتهم فيمطر عليهم الجواد الكريم سحائب جوده وينعم عليهم بعطفه وجوده ، فتنجو الغريقة ويخرج المنقذون ظافرين ، وتتهلل الوجوه بالبشر والفرح ، وتلهف الألسنة بالشكر لرب العالمين . ويسرع طبيب الركب وصديقنا الطبيب الحاج ويس لمداواتها ، ويدوم غم القوم وكربهم حتى يسمعوا كلمة من الغريقة ، يتحققون بها أنها أخذت سبيلها إلى الحياة ، فيعود إليهم فرحهم ، وتنساق إليهم مسرتهم ، ويحيط بهم الأنس ، ويفقهون في هذا الدرس معنى الأخوة الإسلامية والألفة الإيمانية ، ويرجع أهل الغريقة بغريقتهم إلى فسطاطها . وينقلب الناس كل إلى سرادقه ويبيتون ولا حديث لهم إلا البركة وحمية هؤلاء الرفاق ومروءتهم وكيف ضحوا بأرواحهم وفادوا بأنفسهم ، لا تحفزهم إلى ذلك منفعة ولكنها النخوة والحمية تجعل صاحبها يفعل المستحيل فيصبح البعيد قريباً ، والمكروه حبيباً . ثم ينام القوم شاكرين المنعم الحق الذي لا ينقطع خيره ولا يحدّ بره .

لقاء طريف

سرنا بعد صلاة الفجر . وأول مابشرنا به من سهولة الطريق ويسر المسير تفاؤلنا عند اجتماعنا باثنين من العبيد كانا في زيارة السيد الأعظم ﷺ ، ولكن الفاقة قد أضرت بهما فاضطرتهما إلى افتراش الأرض والتحاف السماء : بعد أن جردتهما من الثياب وأخلتهما من الطعام والشراب ، فتبارى القوم في الإحسان



شيخ القراء في عصره الشيخ عبد القادر قويدر العربيلي وتلامذته



فريق من الزوار ورجال الشركة وممثل الجمعية
مع صاحب شركة السيارات الحاج مصطفى العطار

إليهما والبر بهما . وكنت ولله الحمد مستبشراً بهذا العمل لأن الصدقة تطفئ غضب الرب سبحانه وتدعو إلى رضاه . وسار الجميع بتعاون وإخاء .

سعد وسعود

هما أعرابيان اجتمعنا بهما بين المعظم والمدائن ، ودار بيننا وبينهما الحديث الآتي نثبته لطرافته ، ولأنه لا يخلو عن كشف أخلاق هؤلاء وثقافتهم وما يدور من الكلمات العربية الصحيحة في لهجاتهم :

ـ ماسم هذه الجهة التي نحن فيها ؟

ـ مَدْري .

ـ هذه أرض من ؟

ـ أرض الله .

ـ من خلقها ؟

ـ خلقها الله .

ـ تصومون ؟

ـ نعم .

ـ كم تصومون ؟

ـ ثلاثين ليلة .

ـ ماسم الشهر الذي تصومونه ؟

ـ رمضان .

ـ واسم الشهر الذي بعده ؟

ـ الفطر وهما فطران وبعدهما الضحية وعاشور ، وصفر والتوام أربعة ، وبعدها العزا ، وقصير .

ـ هل تتوضؤون ؟

ـ نعم .

كيف تتوضؤون ؟

ـ نغسل الفرج ، والفم والخيشوم والوجـه ، واليـدين إلى الكوعين ، ونمسـح الرأس والأذنين ، ونغسل الرجلين .

ـ كم الجمعة ؟

ـ سبع ليالٍ وأخذ يعدها .

ـ وسألنا الآخر : ماسم النبي ياولد ؟

ـ مدري : محمد .

ـ من الذي يحكمكم ؟

ـ عَدّ أربعة أمراء .

ـ من الذي يحكم هؤلاء الأمراء ؟

ـ ابن سعود .

ـ كيف ابن سعود ؟

ـ زين .

ـ كم صلاة تصلون ؟

ـ خمس : الظهر ، العصر ، الصفرة ، العشاء الآخرة ، الصبح .

ـ كيف تصلي الظهر ؟

ـ نركع ركعتين فضيلة ، ونركع أربع ركعات بلا سلام ، ونتبعها بركعتين بسلام .

ـ كيف تصلي الصفرة ؟

ـ ركعتين . فرده رفيقه للصواب وقال لنا : الصفرة ثلاث .

ـ تشرب ياولد ؟

ـ مابي من ظمأ .

فأتى أحدنا إليه بكعك مبتل بالماء ، وطلب إليه أن يأكل . فجعل يـأكل مع رفيقه .

ـ هل تبيعون اللبن ؟
ـ لا ، اللبن والعيش يعطيان للضيف عندنا بلا بيع . حِنا مانبيع ، حِنا ندبح للضيف ، الضيف ضيف الله .

السير الهادئ الحسن

عاد السير لحاله والهدوء يحوط جميع سيارات الركب ، وكلما سرنا ميلاً غاصت سيارة فوقف الركب كله أو بعضه حتى ينقذها ، ويدوم ذلك نحو ساعة ، ثم يعود كل شيء لحاله . النفوس مبتهجة بخط السكة الحجازية فهو يرافقنا رفقة الصاحب لصاحبه . ضياء الصحراء رائع وشمسها فاتنة وهواؤها يشفي السقيم . أما حصباؤها فلا يشك أحد أنها قد غسلت بالماء النظيف ، خل ألوانها الزاهية وصفاءها الباهر . وأما الرمل فناعم لامع براق ، جعله الله تعالى وسيلة للنظافة ، فأغنى أهله به عن الصابون وما إليه من وسائل التنظيف . وتنتهي هذه اللوحة للصحراء لينكشف الستار عن لوحة أخرى أجمل ذات تعاريج وأشكال هندسية رائعة ، وهناك أطلال أكل الدهر عليها وشرب . أحجارها سود قد أحرقها حر الشمس ، رؤوسها مسودة ، وعواتقها متهلهلة .

ثم تعرض للناظر لوحة ثالثة هي أعجب من كل ما مضى ، فعشرة أذرع منها صخر جلمد ، وسبعة أذرع بعدها رمل ناعم ، ثم يلي ذلك صخر ناتئ ذو رؤوس ، كأنها تريد أن تنطق لتحدثك حديث الأجيال وغابر الأزمان . ويلي ذلك صخر منبسط ، والسيارات بين يدي ذلك كله تنخفض مرة وترتفع أخرى ، ثم تغوص وتعود فتنجو ، والركاب فريق يمشي ليخفف عن السيارة وفريق يدفع سيارة غاصت خلفه ، وفريق يزيل الرمل الذي أحاط بدولاب سيارته ، وفريق يحضر قطع الخشب العريضة لتمر سيارته عليها . ويمر بنا بدوي فنسأله عن اسم المكان فيقول : هو وادي الأبرق وستمرون بالأقرع ، وخور حمار ، وخور النعجة . ويقف الركب في صحراء منبسطة ليستقبل بعدها صحراء وعرة كثيرة الصخور

تحيطها جبال وتلال سود محرَّقة ؛ مشت فيها السيارات وئيداً ، تتقاذفها التلال وتتلقاها الآكام ، تودعها هضاب وتستقبلها وهاد ، ورجال الركب في استبشار وبشاشة ، لعل من أسباب ذلك اجتماعهم في بقعة واحدة يعطف الكبير على الصغير ، ويرحم القوي الضعيف ، ويسلم هذا على ذاك ، ويبش ذاك بوجه هذا ، لقد كان تفرقهم قبل حلول (المعظم) درساً مفيداً ألجأهم إلى الاجتماع وزيّنه في قلوبهم .

الأرض السبخة

وقف الركب في أرض فسيحة متهدمة الأطلال ، وقال قائل : نتبع الدليل ونسير ، إذ جاء أعرابي فزعم أن هناك طريقاً خيراً من هذه الطريق . وانقسم الناس إلى أقسام وداهم الليل الجميع ، وحض أعضاء جمعية الهداية الناس على الاجتماع ونبذ الافتراق ، وارتفعت الأصوات بنداء من تخلف . والكل يطلب الماء الذي أعوزهم فقده ، فعلى من احتاج للشرب أن يمصّ الماء مصّاً ، وأن يكتفي ببلّ ريقه حتى لاتلوكه الألسن مع قول بعض المارين من العرب : إن الماء قريب .

الخلاصة

الخلاصة أن الركب تفرق ، فسيارات قد تقدمت بأصحابها وسيارة سارت من غير أن يكتمل ركابها فكانوا عالة على غيرهم ، وجماعة ارتأوا أن يناموا في موقعهم ، وحجتهم أن السير بالليل عسير . وكان لزاماً على أعضاء الجمعية ألا يبرحوا الأرض حتى يعملوا على جمع ماتفرق من الركب فضربت الخيام ، وتوقف السير ، وتحققت فكرة البيتوتة في هذا العراء .

بشير بن عواد من قبيلة وليدة

يسكن قريباً من المدائن ، سافر إلى الشام وعمان ومعان والعلا والمدينة ، ولديه إبل وغنم كثير يبيع منها ليكسب لعياله ، طلبنا إليه قراءة الفاتحة فقرأها

بلهجته البدوية وبفتح همزة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وسألناه ماذا يقرأ بعد الفاتحة في الصلاة فقرأ : (الْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ فِي خُسْرٍ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُو الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

ثم سألناه الأسئلة التالية :

ـ إلى أين تصلي ؟

ـ إلى قبلة المسلمين .

ـ من أين القبلة ؟

ـ من هنا .

ـ من أين تعرف أنها من هنا ؟

ـ مَدْري .

ـ كيف تدخل الصلاة ؟

ـ أقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وأشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فقط .

ـ من هو محمد ؟

ـ محمد ؟! هو رسول الله .

ـ من هو خير محمد أو أبو بكر ؟

ـ محمد .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه يهدينا طريق الدين .

ـ هل عندكم من يسرق ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ لأن السارق يقطع ابن سعود يده ورجله .

- أين ابن سعود ؟

- في رياض .

- رياض بعيدة من هنا فكيف تقول : إن ابن سعود يقطع يد ورجل السارق ؟

- رجاجيله يقطعون .

- أين رجاجيله ؟ في هذه الأراضي القفرة المديدة الخالية ؟

- رجاجيله في القريّات وفي تبوك وفي ذات الحاج .

وعَدَّ جهاتٍ أخرى .

- كيف تفعل قبل أن تصلي ؟

- أتوضأ إذا وجدت الماء وإلا تعفرنا (أي تيممنا) .

- إذا أراد الإنسان منكم أن يتزوج كم يعطي من المهر ؟

- ماعندنا مهر ، إذا رضيت الزوجة تزوجها الزوج .

- إذا مات الإنسان إلى أين يذهب ؟

- يبعثه الله إلى الجنة إن كانت أعماله صالحة ، وإن كانت أعماله فاسدة فإلى النار .

سعد العنيزي

من قبيلة عنزة ، قبلوا أحكام الحكومة السعودية فأباح لهم الملك ابن سعود الدخول إلى أراضيه ، وكانوا من قبل ممنوعين من دخولها . سألناه :

- هل تصلون ؟

- من لم يصلِّ لانواكله ولا نشاربه ، والمرأة إن لم تصل نضربها ، فإن لم تصل نرسلها لَهْلِها ، وإن صلت نعطيها من الحلال .

- أيهما خير الله أم محمد ؟

- الله وحده مابه شك .

ثم يعود العنيزي فيسأل من سأله : لماذا خلقك الله ؟ بلهجة بدوية فنجيب : للعبادة . فيقول : لا للطاعة والعبادة .

ولم يطل بنا المسير حتى اجتمعنا برفاقنا فسرنا ، وسار القوم وأدركتنا ضائقة الجوع بعد ضائقة الظمأ ، وقد أصبح بعضنا كَلاً على بعضنا الآخر بعد أن نفد الخبز والكعك وكل ما يؤكل ، فالطريق طويلة ، وليس في هذه القفار - وتقدر بمئات الكيلومترات - بائع ولا سوق . وهناك من حملته عزة النفس على الصبر فوجده نعم ما يعتصم به الرجل الشريف ، وهناك من صبر حتى خرج على الحد المعقول والمشروع فمضى عليه ثلاثة أيام لم يذق فيها للزاد طعماً ، وعرض عليه بعض أصدقائه الطعام ضيافة فلم يقبله ، وعرضه عليه بيعاً فلم يقبله ، فعرضه عليه هدية فلم يقبله ، فرجاه قبوله فلم يقبله ، فناشده الله على قبوله فلم يقبله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

المطالع

وبلغنا بعد ذلك محطة المطالع ، وهي من محطات السكة الحجازية ، وتمتاز عن مثيلاتها بأنها محطة وقلعة معاً . تم بناؤها عام ١٣٢٥ هـ وهو بناء قوي كبناء القلاع الحربية . وفرحنا بعودة الخط الحجازي لمرافقتنا بعد طول غياب لكن من المؤسف أن هذا الاجتماع السار بالخط لم يطل أمده ؛ فقد تركنا واستقبلتنا مقدمات الأقرع . ولوعورة حال هذه الأرض اضطررنا إلى النزول من السيارات تخفيفاً عليها . وهناك بدوي نسأله عن الماء فيقول : عند تلك الشجرة . ويمضي الليل بتمامه مشياً على الأقدام ، فلا الوادي ينتهي ولا إلى الماء نصل .



بعض رجال أهل العلم من أعضاء الرحلة في المدائن



الشيخ شريف اليعقوبي والسيد المكي الكتاني وفريق من طلاب العلم في محطة المدائن

الفصل الثالث
بين المدائن والعلا
في طريق الذهاب

مدائن صالح

وقصد الركب إلى مدائن صالح ، وعاد الرمل إلى السيارات يجتمع على دواليبها ، وعاد الركاب إلى النزول منها . وفي الحقيقة كان هذا الطريق صعباً وعسراً والقائلون بسهولته مضلّلون أو مغرورون . ونام القوم في الصحراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ، ولكن ماأحلى صباح رجال هذا الركب .

يوم السبت ٢٠ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

ماأحلى هذا الصباح ! وما أبدع نشاط الرجال ! استيقظوا وقد منحهم الحق تعالى أثمن نعمة بعد الإيمان وهي العافية ، ورزقهم القوة وحسن الظن به سبحانه ، وحبب بعضهم إلى بعض . واستبشرنا خيراً إذ كان أول مافاتحنا في طريقنا اليوم الخط الحجازي ، وهو الرفيق الذي تنعش رؤيته القلوب : لأنه يحمل هذا المعنى الإسلامي العظيم .

(شجرات الرتم) لايحصيها العد ، وتظنها شجر العنب في دوما ، وورق الكروم في داريا ، وبهذه الشجيرات المخضرة حيناً ، والترابية اللون حيناً آخر ، وأخيراً بهذا الأفق الزاهي الذي يهزأ بكل ماذُكر من المعاني : ولم يتمكن من

التعرف على حقيقته أحد . كما تيمّنا بأحد أصحاب الشركة حين أقر بالعجز وبوجوب الالتجاء إلى الله تعالى : فهو وحده المنجي والمغيث ، ورجا أن يكون ذلك بدعاء أحد الصالحين المقربين إلى الله تعالى ، وقال : « لا بمن هو مثلي من المذنبين العاصين » . بكل هذا تيمّنا وتفاءلنا وسرنا فوصلنا ـ ولله المنة ـ إلى [محطة أبي طاقة] ، ولم يبق بيننا وبين مدائن صالح غير محطة [مبرقعة الناقة] .

الاجتماع والمذاكرة في تخفيف هذه الضائقة

لما اشتد الأمر على الناس ، وضاق السهل برحبه عليهم ، وأجمعوا على ذم وتنقيص من كان السبب في رحلتهم فقدحوا في ساقهم[1] ، فسهلوا لهم ركوب هذه الطريق ودخول سعير هذه المآزق ، وتكلم كل وجيه بما عنده حتى إذا ماأفرغ كل واحد منهم ماعنده ، قلت لهم ماخلاصته : الواجب علينا أن نبذل جهدنا كله في طلب الماء ، فإذا حضر الماء وزالت هذه المرارة من الأفواه ، ثم نجدّ بعد ذلك في إحضار الطعام ، وبعد ذلك تسير منا سيارة تتحمل آلام السير ومشقة الكدح حتى تصل إلى أمير العُلا لمساعدة النساء فقط . وكانت هذه الكلمة هي القول الفصل ، وعاد سير الركب وعمل بعضنا على تمشية السيارات على الألواح (التوتياء) ، وصفّوا أمام السيارة بمقدار عشرين ذراعاً ، ثم تحمل الألواح من خلف السيارة إلى أمامها ثانية وهكذا ، وقد دام هذا الجهد إلى قريب الغروب حيث جاء الفرج وحضر الماء ، فشربنا وطبخنا الطعام المعهود (برغل بسمن) ، فأكل الناس ، وباتوا شاكرين راضين .

---

(١) قدح في ساق أخيه : غشه (المنجد) .

يوم الأحد ٢١ ربيع الأول عام ١٣٥٩ هـ

نـام النـاس بعـد الأكل وشرب المـاء . ومع أذان الفجر استيقـظ القوم وجمعوا ثيابهم وأمتعتهم وبدأ المسير ، وعـاد النـاس إلى إزالـة مـا يقع حوالي الـدواليب من الرمل ، وجمع الأحجـار لتـوضـع في مـوضـع الرمـل المـزال ، ثم إلى وضـع قسم من (الرتم)[1] إلى دفع السيـارة حتى نزلنـا الوادي قبـل المـدائن . يمتـاز هـذا الـوادي بكثرة صخوره ، وبمنحدراته المتتابعة ، وبوجود أجبل صغيرة في أثنائـه ، ينحـدر عن سفوحها الرمل المملوء رتماً وحجارة سوداء ، وبكونه يبتدئ بجبلين يجتمعـان ثم يفترقـان حتى يتم لهما تشكيل زاويـة عظيمـة ، تنحـدر عنهـا صخرات منبسطـات وغير منبسطـات . وفي شـدة هـذا الضيـق واشتـداد هـذا الكرب تكرم الله تعـالى بالفرج من عنده ، فجـاءنـا بعض عسكر أمير العُلا بكميـة من المـاء البـارد العـذب السائغ ، فكان فاتحة خير شكرنا الله وحمدنـاه واستزدنـاه من خيره ونعمـه ، ثم تبع ذلك هبوب ريح باردة ، ونسيم عليل . وواصلنا السير ، فإذا نحن نقارب الباديـة العظيمة التي تتقدم المدائن .

ألف طبّة ولا تغريزة

أكرمنـا الله تعـالى بواحـد من خـدم أمير العُلا اسمـه (زعل) ، ولكن فعلـه فرح ؛ هو أسود اللون ، أبيض الخصـال ، عَرّفنـا بـالأرض قليلـة الرمل ، وفي أقل من سـاعـة قطعت السيـارة بنـا نحو ثلاثـة فراسخ بين ارتفـاع وانخفـاض ، وقعود وقيام ، وتيامن وتياسر ، وانحدار وتقهقر . ولله ماأعظم هذه الباديـة ! ومـا أكثر رتمها وأشجارها ! كأنها بساتين الشام . وأكثر ماهالنا منها اتساعها وهذا الاشتـداد في السير الذي يسير فوق الرمل كأنه البرق ، وما على السـائق إذا ارتـاح الركاب أو

---

(١) الرتم : نوع من الشجر بذره كالعدس الواحدة رتمة .

لم يرتاحوا ، شدخت رؤوسهم أو جباههم أو لم تُشدخ ، استقرت أمعاؤهم في بطونهم أم لم تستقر ، والدليل زعل يقول : [ألف طبة ولا تغريزة] ويقول للسائق : [اكبس بنزين] ، وفي بعض الأماكن طلب السائق من الركاب النزول من السيارة حتى لم يبق إلا السائق والدليل .

الوصول إلى المدائن

وقصد ناسٌ المدائنَ مشياً على الأقدام ، ورأينا الكثير من إخواننا قد سبقونا إليها واطمأنوا إلى مائها ؛ الذي يجلب من بئر عظيمة إلى شبه بركة كبيرة ، ماؤها عذب الطعم ، سائغ الشرب ، صافي اللون ، فهذا يغسل وجهه ورأسه ، وذاك يتوضأ ويغسل بعض ثيابه ، وآخرون يصلون في مسجد هناك . وأكل الجائعون وارتوى الظامئون وارتاح المنهكون ، ولولا أن مَنَّ الله تعالى على من أنقذ النساء ـ وقد أسر الرملُ سياراتهن فأركبهن في سيارات صغيرة ، وألقى بهن بعد ساعة من الزمن في المدائن أمام الماء وعند المزارع وشبه البساتين ـ لولا هذا لكان الألم مضاعفاً ، ولكان الحزن طويلاً .

هدايا أمير الْعُلا

وصلت هدايا أمير العلا وهي عبارة عن عشرة رؤوس من الغنم ، وكيسين من الأرز ، وأربعة أكياس من التمر ، وبأن الأمير سيأتي لاستقبال الوفد . وانتُخِب جماعة لاستقبال الأمير منهم رئيس الشركة ورئيس الجمعية ، وممثل عن العلماء وآخر عن الخطباء وثالث عن المدرسين ، ثم القراء والشيوخ والشرفاء والمجاهدين والأطباء . نصبت الخيام واستُقبل الأمير أحفل استقبال ، وألقى في الجمع كلمة موفقة خلاصتها : « نحن مقصرون معكم فلا تؤاخذونا . أبرق لنا أمير تبوك بخروجكم إلى الْعُلا ، فانتظرنا يومين وهي المدة التي تقطع بها سياراتنا مسافة ما بين تبوك إلى الْعُلا ، ثم أمرنا إخواننا فخرجوا لاستقبالكم ومساعدتكم ،

والآن مضى عليهم خمسة أيام وهم ينتظرونكم من الصباح إلى المساء ، ولا علم لنا بهذه المشقات التي تحملتموها ، ولو كان لنا علم بأن سياراتكم كبيرة وثقيلة لطلبت إلى إخواني مرافقتكم حتى يسوقوا لكم سياراتكم . إن سوق السيارات في هذه الأراضي يحتاج إلى قوة ، وسيكون لكم الآن كل ماتبغون من المساعدة حتى تصلوا المدينة في ظل جلالة الملك » . فتكلم الشيخ شريف اليعقوبي شاكراً .

كلمة صاحب هذه الرحلة لأمير العلا محمد بن هَديان

ياسمو الأمير !

إن جمعية الهداية الإسلامية في دمشق رأت أن القوة الحاكمة منعت الناس من سلوك طريق البر لأداء فريضة الحج ، وأكرهتهم على سلوك طريق البحر ، ووضعت القوانين ، ونظّمت النُظُم لذلك ، وأنزلت العقاب فعلاً بكل من علمت أنه حَجَّ عن طريق البر ، وقد عملت جمعية الهداية على الاتصال بالسلطة الحاكمة تطلب بالطرق المشروعة الإذن للناس بالسفر لأداء الحج من طريق البر ، ومنع هذا الحجر الذي حال بين بلاد الشام وبلاد الحجاز وأضرّ باقتصاد البلدين ، فلم يوفق لذلك ومضى على هذا العمل زمن غير قليل ، حتى حصل على الإذن بالسفر عن طريق البر لزيارة النبي ﷺ ، بعد بذل جهود لا يعلم إلا الله كم كانت كبيرة ، واتصلت بالشركات وفاوضتها حتى تم الاتفاق مع هذه الشركة الكبيرة (شركة السيارات السورية الحديثة) ، التي تحمّلت من المصاعب والمتاعب مالم يكن بالحسبان ، ويقيني أنها خسرت الكثير مما كانت تؤمل في ربحه . وتحمل الناس العناء والتعب والكد والنصب فقد أعدوا زاداً لخمسة أو ستة أيام وهي المدة التي قيل لهم إنها المسافة مابين دمشق والمدينة ، وها قد مضى عليهم ثلاثة عشر يوماً ولم يصلوا بعد . وقد بذلت جمعية الهداية كل جهد لافتتاح هذا الطريق الذي أغلقه العدو ليفصل بين البلاد الشامية والبلاد الحجازية ، فيتقوى

الاقتصاد ، وتعمّ الفرحة المسلمين ، وليس هناك من يقدر على تحقيق هذا الأمر العظيم غير جلالة الملك ، فإذا تفضلتم برفع الكتاب الذي ستقدمه لكم جمعية الهداية الإسلامية إلى جلالة الملك لإتمام هذا المشروع العظيم ، تكونون قد قمتم بواجب إسلامي عليه تتوقف حياة البلاد ورفاهية العباد .

إن دمشق الشام كانت قبل منع السفر إلى الحجاز من طريق البر تستقبل كل سنة آلاف الحجاج الوافدين من جميع بلاد الإسلام ، لأداء فريضة الحج فتستفيد منهم بيعاً وشراءً ، وحطاً وترحالاً ، وكذلك بلاد الحجاز . وكم سيكون لجلالة الملك في إتمام هذا المشروع من سمعة حسنة ومنزلة دينية في العالم الإسلامي ، الذي يرى أن بلاد الحجاز مهد الإسلام ومطلع نور الهداية . وإننا لنطلب إليكم ياسمو الأمير الإلحاح على صاحب الجلالة في السعي بفتح هذا الطريق خدمة للمسلمين ، وطلباً لرضاء رب العالمين .

مدائن صالح[١]

الظاهر أن المراد بصالح الذي أضيفت إليه المدائن ، هو سيدنا صالح النبي الرسول العظيم الذي أرسله الله تعالى إلى قوم ثمود . وثمود هذه القبيلة سُموا باسمه : وهو [كما في تاريخ الحافظ ابن كثير][٢] ابن عابر[٣] بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال : وقبيلة ثمود من العرب العاربة كانوا يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك ، فدعاهم سيدنا

---

(١) في الرحلة الحجازية ص ٣١٢ تسمى الحِجْر بكسر الحاء المهملة وإسكان الجيم .

(٢) ١٣٠/٣

(٣) في تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي : ثمود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام .

صالح عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يُشركوا بالله شيئاً ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفرت طائفة وهموا بقتله : بعد أن قتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

ويُقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى عليه السلام أخبر عنهما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ [إبراهيم ١٤/٨ ـ ٩] . إذ الظاهر أن ذلك من تمام كلام سيدنا موسى مع قومه .

وفي تفسير (روح المعاني) أن ثمود كانت ديارهم من الحجر إلى وادي القرى جنوباً .

وفي (تهذيب الأسماء واللغات) للإمام النووي عن أبي عمرو بن العلاء قال : سميت ثمود لقلة مائها ، والثَمَد : الماء القليل ، وكانت مساكن ثمود ـ الحجر ـ بين الحجاز والشام ، وكانوا عرباً . وكان سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام من أفضلهم نسباً ، فبعثه الله تعالى إليهم رسولاً وهو شاب ، فدعاهم حتى شمط[1] . ولم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون ، ولما طال دعاؤه إياهم اقترحوا أن يُخرج لهم الناقة آية ، فكان من أمرها وأمرهم ماذكره الله تعالى في كتابه . وانتقل صالح عليه السلام بعد هلاك قومه إلى الشام بمن أسلم معه ، فنزلوا رملة فلسطين ، ثم انتقل إلى مكة فتوفي سيدنا صالح بها وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، وكان أقام في قومه عشرين سنة والله أعلم . انتهى .

---

(١) الشمط بفتحتين : بياض شعر الرأس يخالط سواده وقد شمط من باب طرب . (المختار) .

وفي (معجم البلدان) لياقوت : الحِجر : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام . قال الإصطخري : الحجر قرية صغيرة قليلة السكان وهو من وادي القرى على يوم بين جبال ، وبها كانت منازل ثمود . قال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء ١٤٩/٢٦] قال : ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الأثالث ، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة ؛ فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطائف ، وحواليها رمل لا يكاد يرتقىٰ : كل قطعة منها قائمة بنفسها لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة ، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها ، وفي الناقة : ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء ١٥٥/٢٦] قال جميل :

أَقُولُ لِدَاعِي الْحُبِّ وَالحِجْرِ بَيْنَنَا ... وَوَادِي الْقُرَى لَبَّيكَ لَمَّا دَعَانِيَا
فَمَا أَحْدَثَ النَّأْيُ الْمُفَرِّقُ بَيْنَنَا ... سُلُوّاً وَلاَ طُولُ اجتِمَاعٍ تَقَالِيَا

وفي الرحلة الحجازية ص ٣١٢ : مدائن صالح نسبة إلى نبي الله صالح الذي أُرسل إلى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون في هذه الجهات إلى يثرب ، وهم قوم من العرب . ذهب بعض المؤرخين إلى أنهم من اليمن نفروا إلى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ، وكانت مساكنهم فيها بحضرموت قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض آثارهم في العلا من الخط المسند (الحميري) .

الأربعاء ٢٤ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

زهد كثير من ركاب السيارات في ركوبها ، وآثروا عليها المشي ؛ ظنّاً منهم بأنها قريبة فمنهم من وصل ظهراً ، ومنهم من وصل بعد العصر ، ووصلنا نحن إلى

العُلا حوالي الثالثة ليلاً ، وسمعت أن امرأة من أهلهم وصلت بعد السادسة ليلاً . وقد وصل كل هؤلاء وليس معهم من أمتعتهم شيء ، فأمتعتهم في السيارات التي تركوها كرهاً . ولولا أن أمير العُلا محمد بن هديان كان عظيم القدر ، رحب الصدر ، سخي اليد ، وَسِعَ منزلُه جميع الزائرين لناموا في العراء . والله المسؤول أن يجعل العاقبة خيراً ، ويُعظم لهذا الوفد أجراً ، ويرفع له ذكراً .

لقد كان همّنا هذا اليوم رؤية أخينا السيد ياسين عرفة أحد الذين ركبوا أمس (الدرزينة) فانقلبت بهم ، فلم تغمض لنا عين حتى علمنا أن من أصيب من ركاب الدرزينة لاتشكل إصابته خطراً ، ولا توجب حزناً ، وقد اشترك قاضي العُلا السيد ضياء الدين رجب في إسعاف صديقنا السيد ياسين في بيته ، وقد تحدثت معه عن هذا العنت الذي أصاب رجال هذا الوفد ، وتركته يذهب للمذاكرة مع الأمير وقد نزل الإخوان إلى حديقة بيته يتنزهون ، ثم حضر مدير مالية العُلا السيد علي جنيد ، وقد اقترح أن نرسل برقية بواسطة أمير العلا إلى جلالة الملك ، نطلب فيها عشر سيارات حجازية خفيفة تحمل الزوار حتى يصلوا إلى المدينة ، وبقينا ننتظر إجابة هذا الطلب .

الحفلة بين يدي الأمير

فُرشت البسط ، وصفّت الطنافس ، وجلس الأمير في صدر منزله ووجهاء الزوار على المقاعد عن يمينه ويساره ، وجلس المتأخرون في أرض المنزل الفسيحة الذي فرش ببساط بديع أخضر ، يقابله بساط مثله أحمر . وافتتحت الحفلة بقراءة آيات من الكتاب العزيز من قبل المفتي رتلها بأداء حسن وهو السيد مصطفى ابن السيد صادق ، ثم تلاه شقيقه الأستاذ السيد حسن بن السيد صادق بخطاب رحب فيه بالوفد ، وأثنى على مهمته .

نص الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أي سلائل الجادة وأحفاد العروبة ، تباركت نهضة هذه أعلامها ، وعظمت أمة تقارب إليها مرامها ، قطران شقيقان يلتقيان ، وللعواطف الفاضلة السامية يتبادلان . زورةٌ عقدتم عليها العزم لتؤدوا واجبين عظيمين ، واجباً دينياً تتقاضاه حقوق بلد أشرف الأنام ، سيد ولد آدم ، رسول الدين والإسلام ، ومسجده الذي انبثقت من بين ربوعه أنوار الدين ، أقرت بعظمته الأمم لدنُها وعُنودها ، مسجد سيرت منه الجيوش الإسلامية منصورة مظفرة ، مسجد يعنيه الله بقوله على أصدق الأقوال وأصح التفاسير ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ [التوبة ١٠٨/٩] وواجباً قومياً وطنياً هو التأليف بين أواصر العروبة ، والتواصل بين عُراها ، فكيف لا نحييكم راجين لكم مقاماً طيباً وسفراً مباركاً . اسمحوا لي أن أتلو أبياتاً أذكرها للأستاذ ضياء الدين رجب :

هِيَ النَّهْضَةُ الْكُبْرَى وَفَتْنَا وَعُودُهَا   فَأَجْمِلْ بِهِ أَنْ يَبْدُوَ الْيَوْمَ عِيدُهَا
وَأَجْمِلْ بِهَا أُمْنِيَّةً عَبقَرِيَّةً   تراءَتْ لآلِيهَا وَضَاءَتْ عُقُودُهَا
وَأَجْمِلْ بِهِ شَعْباً يُصَافِحُ غَايَةً   تَدَانَى عَلَى رَغْمِ الزَّمَانِ بَعِيدُهَا

إلى أن قال :

إِذَا كَانَ لِلغَرْبِ الْحُصُونَ مَنِيْعَةً   وَآطَامُ مَجْدٍ فِي السَّحَابِ يُشِيدُهَا
فَإِنَّ لَنَا مِنْ دِينِنَا خَيْرَ وَحْدَةٍ   تَضُمُّ جُمُوعَ الْخَافِقَيْنِ بُنُودُهَا

هذه عواطف هائجة في نفس كَلَّها العجز ، أضعها بين يديكم في خجل ، مبتهلاً إلى الله العظيم أن يجمع كلمة الإسلام والمسلمين في ظل عاهل العرب مليكنا المفدى عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . لازلتم موضع الكمال ومباءة المجد . والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم تلاه السيد أحمد رجب شقيق القاضي الشرعي فألقى قصيدة دعا فيها لجلالة الملك وأمير العلا محمد بن هديان . وقال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

معالي الأمير ، أيها السادة :

نَسْمَةُ الصُّبحِ وَباقَاتُ الزَّهَرِ وَالأَمَانِي البِيضُ وَالنَّجمُ الزُّهَرْ
وَالغَوَانِي الغِيدُ فِي مَنْطِقِهَا رِقَّةُ الْحُسْنِ وَأَلْطَافُ السَّحَرْ
لَيسَ أَبْهَى مِن جَمَالٍ رَائِعٍ خَفَّ نَادِينَا بِسَادَاتٍ غُرَرْ
وَافِدِي الشَّامِ وَمَرْحَى بِالأُلَى حَمَلُوا فِي الشَّرقِ رَايَاتِ الظَّفَرْ
مَا دِمَشْقُ الشَّامِ إِلاَّ تَوْءَمٌ لِلْحِجَازِ الْفَرْدِ وَالْقُطْرِ الأَبَرّ
فَإِذَا صَافَحَ هَذَا ذَاكُمُ صَافَحَتْ شَمْسُ الضُّحَى نُورَ القَمَرْ
وَخِتَاماً نَتَرَجَّى لَكُمْ رَاحَةً تُذْهِبُ وَعْثَاءَ السَّفَرْ
وَأَدَامَ اللهُ لِلإِسْلاَمِ مَنْ هُوَ لِلإِسْلاَمِ نِعْمَ الْمُدَّخَرْ
سَيِّدَ الْعُرْبِ وَمُعْلِي شَأْنِهِمْ مَلَكْنَا الْمُدْنِي لَنَا أَسْمَى الوَطَرْ
لابنِ هَدْيَانَ نُزَجِّي شُكْرَنَا طَابَ ذِكْراً بَينَ بَدْوٍ وَحَضَرْ

ثم تلاه السيد مصطفى أفندي المفتي فألقى قصيدة بدأها : بسم الله وحمده ، ثم قال : أيها الأجلاّء الأماثل ! أستسمح في تواضع ووقار أن ألقي بين يديكم هذه الكلمة المتواضعة :

عَوَاطِفٌ كُلُّهَا شَوْقٌ وَإِكْبَارُ كَأَنَّهَا أَرَجٌ زَاكٍ وَأَزْهَارُ
أَوْحَتْ إِلَيْنَا مِنَ الإِلْهَامِ أَرْوَعَهُ وَزَانَ إِكْلِيلَهَا فِي حُسْنِهِ الغَارُ
رَاحَتْ تَصُوغُ مِنَ الْقَلْبِ الْمُذَابِ صَدَىً كَالعَرْفِ لَكِنَّهُ فِي مُهْجَتِي نَارُ
أَهَاجَ لِي أَمَلاً فِي النَّفْسِ مُعْتَلِجاً وَلَيسَ لِي فِي سِوى الأَوْطَانِ أَوْطَارُ
أَنْتُمْ طَلِيعَتُهُ أَكْرِمْ بِطَالِعِهِ عَنهَا تَقْصُرُ آرَاءٌ وَأَفْكَارُ
فَإِنْ وَقَفْتُ أُحَيِّي بَاسِماً غَرِداً فَالْغُصْنُ فِي أَيْلِهِ تُحَيِّيهِ أَطْيَارُ

أَنْتُمْ طَـلاَئِـعُ لِلْمَجْـدِ الَّـذِي صَـدَحَتْ ... بِـهِ مَـدَى الـدَّهْرِ أَلْحَـانٌ وَأَوْتَـارُ
تَقَبَّلُـوهَـا تَحِيَّـاتٍ مُعَطَّرَةً ... فَرَوْضُنَـا بِـأَرِيْـجِ الأُنْسِ مِعْطَـارُ

إلى أن قال مختتماً :

ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى الْمُخْتَـارِ مَـا سَجَعَتْ ... طَيْرٌ وَمَـا بَـزَغَتْ فِي الْكَوْنِ أَقْمَـارُ

والسلام عليكم .

ثم قام الأستاذ محبوب بن يوسف النابلسي فقال ماخلاصته :

بسم الله الرحمن الرحيم .
سعادة الأمير المحبوب ، أيها الضيوف الأفاضل !

السلام عليكم ورحمة الله ، أيها الأجلاء الأماثل . يتلعثم اللسان ، ويضطرب الجنان ، حينما يطفر بأداء التحية لكم ، فيكبتها الشعور بالعجز والقصور . لهذا أترك المجال الرحيب للزملاء الأماثل الذين تباروا في واجب التحية نظماً ونثيراً . أما أنا على ضوء الآية الكريمة : ﴿ يَـاأَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَـائِلَ لِتَعَـارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنـدَ اللهِ أَتْقَـاكُمْ ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] . أقول إن هذه الرحلة الموفقة من جارة شقيقة إلى جارة شقيقة تقوم بها ربيئة[1] فاضلة ، لما يحقق سراً من أسرار التواصل والتواد اللذين ترمي إليهما هذه الآية المعجزة ، فما خابت شعوب تآلفت ، ولا وهنت أمم تواصلت ، وتشاركت في السراء والضراء ، ومن أجل ذلك ركز لنا دستورنا الإلهي مؤتمراً إسلامياً عاماً هو الحج ، إنه ثمرة قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّـاسِ بِـالْحَجِّ يَـأْتُوكَ رِجـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَـأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَـدُوا مَنَـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلَى مارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ [الحج ٢٧/٢٢ ـ ٢٨] فحقيق بنا

(١) الربيئة : الطليعة من الجيش . (المنجد) .

إذن أن نرفع الرأس عالياً إذا رأينا هذه الزيارة المباركة نواة إصلاحية توحد راية العرب ؛ على يد العاهل الأكبر جلالة الملك المعظم .

ثم قام كاتب هذه الرحلة فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال :

إن جلالة الملك ـ أطال الله بقاه ـ جوهرة في عقد ، وإن أمراءه الكرام حبات هذا العقد ، فهم بهداه سائرون ، وعلى طريقته قائمون ، كلهم أَكْرَمَ وفادتنا ؛ فكان لصغيرنا أباً كريماً ، ولكبيرنا أخاً رحيماً . ياسمو الأمير : تعددت طرق إكرامكم لنا وبركم بنا ، وتوّجتم ذلك بتشريفكم لاستقبالنا في المدائن . وكان لهداياكم أجمل الوقع في بحبوحة ورغد ، وبعد هذا تلطفتم بِجُمَلٍ تعرب عن طهارة خلق ، وكريم نفس ، وطيب عنصر ، أَوَ تقولون بعد كل ذلك إنكم مقصرون ؟! وإن هذا الإكرام كله لو كان لواحد من أعضاء هذا الوفد لكان قليلاً بحقه ؛ لأن ضيق سوق العُلا وضعف أهلها في العمل والإنتاج ؛ حال دون وفائكم حقكم من البر والإكرام . وتقولون إن جلالة الملك لو لم يوصِ بكم لكنتم جديرين بكل احترام ، فكيف وقد أوصانا بكم وأوصى جميع أمرائه وكافة عماله ؟

إن مثل هذه العبارات العذبة نتلقفها غذاء للأرواح أحلى وأطيب من الهدايا وموائد الطعام وغذاء الأجسام ... إلى آخر الكلمة الموجودة في الأصل . ثم قرأ الأستاذ المقرئ الشيخ عبدو قويدر العربيني عشراً من القرآن الكريم ، ثم تلاه الشيخ شفيق المشيطاتي فقرأ عشراً من القرآن أيضاً ، ثم أنشد قصيدة أطرب فيها الحاضرين ، وساعده فيها الأستاذ الشيخ هاشم السيد مطلعها :

يَا إِلَهِي أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ غَافِرُ الزَّلاَّتِ سَتَّارُ الْعُيُوبِ

بساتين العُلا

رافقتُ إخواني بجولة في بساتين العُلا ، فإذا أكثر ما يُزرع فيها النخيل ،

ويزرع فيها أيضاً القطن والليمون الحامض والحلو والقمح والشعير والذرة والبندورة والرمان والخوخ والفليفلة والباذنجان والبطيخ والقثاء والعنب ، وتجري في بساتينها جداول الماء ويكثر الهواء العليل حتى في وقت الظهيرة .

سوق العُلا

في العّلا محلتان كبيرتان ، لكل محلة سوق مسقوفة على الطراز القديم ، يباع فيها السمن والأرز والتمر والدخان والطحين والشاي والسكر وبعض أنواع الخضرة والفاكهة ؛ لأن كل ذي حديقة يزرع مايحتاج إليه من الخضر في حديقته لقلة من يرد عليهم من المسافرين . ويكثر بيع مايحتاج إليه البدو من الثياب والخام والأباريق والكاز والبن . والرطل عندهم كالشام أُقّتان ؛ إلا السمن فرطله أقتان وأربع أُوَق .

دوائر الحكومة في العُلا

علمنا أن نفوس سكان العلا بلغ في الإحصاء الأخير أربعة آلاف نفس ، وفيها دائرة شرطة ، ودائرة الكاتب بالعدل ودائرة المالية والرسوم ، ودائرة البرق والبريد واللاسلكي ، وفيها مدرسة تحضيرية ذات خمسة صفوف ، ومحكمة شرعية إليها يعود البتّ في عامة القضايا ؛ فإذا أراد أحد الخصوم استئناف قضيته بواسطة المحكمة الشرعية استأنفها إلى رئيس القضاة بمكة المكرمة وهو عبد الله بن حسن آل الشيخ من أهالي نجد . والمحكمة الشرعية ترفع له دعواه إلى رئيس القضاة من غير أن تكلفه دفع شيء من الرسوم .

وفي العّلا أمير عام لديه عدد من العسكر الخاص (الخوّيّان) ، الذين يُطلق عليهم اسم (الزكرتْ) ، ولديه عسكر مسلّح بشتى أنواع السلاح .

والرسوم في العّلا عبارة عن زكاة التمر والقمح والذرة والشعير والإبل والبقر والغنم .

ولدى حكومة العَلا أمر من جلالة الملك بأنه لا يجوز أخذ غير الزكاة ، ومن ظلم فيها من الموظفين فحسابه على الله تعالى ، وإن ظهر أمره كان عقابه أليماً مُهيناً .

مدير خزينة العُلا يولم لنا

السيد صادق المفتي دمشقي الأصل ، قطن المدينة المنورة ، وعُدّ من تجارها البارزين ، ومنذ سنة ونصف عُيّن مديراً لخزينة العَلا ، دعانا إلى حديقة له ملاصقة لداره ، فيها جدول ماء والنخل الكثير والعنب والرمان .

يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

دخل الأمير إلى المنزل العام ، واصطف ضيوفه فيه ، ثم ألقى الأستاذ السيد محمد المكي الكتاني درساً حض فيه الناس على التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه لا على أحدٍ سواه ، وذكر أن أصحاب رسول الله ﷺ لما كانوا ضعفاء ، وكانوا شديدي الاعتماد على الله سبحانه نصرهم الله في غزوة بدر ، وأيّد كلمتهم وعددهم قليل . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران ١٢٣/٣] ، ولما كانوا أقوياء وكثيري العدد ، واعتمدوا على قوتهم في غزوة حنين انهزموا وولوا الأدبار . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة ٢٥/٩] .

إلى بيت القاضي

قصدنا إلى دار الأستاذ قاضي العَلا لنتعرف منه جواب البرقية المرسلة من سمو الأمير إلى جلالة الملك لطلب مساعدة الركب ، فكان الجواب أن البنزين سيكون عندنا غداً في الظهر ، يحمل من المدينة إلى العَلا ، كما يرجو أيضاً حضور السيارات . ودار بحث حول القضاء في الحجاز وأنه عسير أمره على القاضي بخلاف ما في دمشق الشام ومصر ، فإنه محصور في مسائل الإرث والزواج والطلاق والنفقات والتركات ونواحٍ معينة من الأوقاف .

بعض القضايا التي رآها القاضي
وكيفية مسير الأحكام الشرعية في بلاد الحجاز

قال فضيلة القاضي : رفعت إليه قضيـة تتلخص في أن امرأة ادعت على رجل بأنه أزال بكارتها ، فأنكر المدعى عليـه وأصرت المرأة على دعواهـا ، وقـالت : إنهـا بعد إزالته لبكارتها حملت منه ، ثم أسقطت ، ولا بينة لـديهـا على ذلـك ، فحكمتُ ببراءة المدعى عليه لعدم ثبوت شيء عليـه ورددت طلب المـدعيـة تحليفـه اليمين ، وحكمت عليها بالجلد ثمانين جلدة حدّ القذف ، وحكمت عليها أيضاً بعشر جلـدات حد التعزير لأنها صبرت ولم ترفع دعواها حتى أسقطت ، وهذا قرينـة رضـائهـا . وحكمت بردّ طلبها أرش البكارة . ثم رفع الأمر واستؤنف إلى رئيس القضـاة بمكـة المكرمة فصدّق هذه الأحكام كلها إلا الحكم على المدعية بـالتعزير . وأردت الإصرار على ماحكمت به من تعزيرها ، فأشار علي بعضهم بأنك قد فعلت ماعليك ، فكل إنسان مسؤول عن عمله ، فتركت البحث في الإصرار .

الاجتماع بسمو أمير العُلا

وردت الأميرَ برقيةٌ من جلالة الملك يقول فيها : إنه أمر سيارات في المدينـة بالمجيء إلى العلا لإنقاذ الركب ومساعدتهم . واجتمع الناس في المنزل الصيفي للأمير الذي جلس في وسط المجلس ، وبجانبه السيد المكي فالقـاضي فكاتب هـذه الرحلـة فبقية الإخوان . ودارت على القوم كؤوس الشاي والقهوة . ومن العـادات المتبعـة عندهم أن الأمير إذا قال (قهوة) ينادي واحـداً أو أكثر من أتبـاعـه مكرراً كلمـة (قهوة) ، وهكذا يتناقلهـا من بعـدهم حتى يسمعهـا الموظفون للقهوة في مجلسهم ، فيسرعوا بإحضارها بالفناجين العربية يبدؤون بالقاضي فـالأمير أو بـأكبر ضيوف الأمير ثم بـالأمير ، ثم ينصرف واحـد منهم فيسقي من على يمين الأمير ، وينصرف الآخر فيسقي من على يســاره ؛ حتى يشرب الجميــع ثم يعيــدون الكرة للسقي ، ويكررون ذلك حتى يقول المسقي (تمام) أو يحرك الفنجان بيده ، وذلك عندهم

إشارة الاكتفاء ، ويقدمون على القهوة شرب الشاي ثم يضاف إلى ذلك كله طيب العود يحرق في مجامر ، وتقدم للقاضي فالأمير فمن بعدهما ، إلى أن ينتهي القوم كلهم . وبعد ذلك تلا السيد مصطفى المفتي آيات من الكتاب العزيز ، ثم تلاه مدير مدرسة العَلا السعودية فألقى خطاباً جاء فيه :

الحمد لله الذي ازدهر نوره ، فلقد شاء الله أن يقينا في السراء شر الزهو والبطر ، وألا يصيبنا ذل ولا خَوَر .

سادتي الأماجد :

أقول ماهذه الأنوار الساطعة في أفق السماء . هي في الحقيقة إعراب منزه لما تفيض به قلوبكم من الحب لجلالة الملك المفدى ولبلاده المقدسة مهبط الوحي ومسكن الأنبياء والرسل عليهم السلام .

أيها الأفاضل : إن تشريفكم بلدتنا لتقدير بليغ لما تبذلونه ونبذله في توحيد الكلمة وأواصر الصداقة وعُرا المودة والمحبة .

أيها السادة : سوف تؤدون عن قريب أمانة الله التي عندكم ، وتقومون بما شرع الله لكم ، وتعودون إلى أوطانكم بالبركة واليمن والعافية ، وستجدون إن شاء الله أسباب الراحة والهناءة في زيارة قبر المصطفى ﷺ . أسأل الله تعالى في الختام أن يديم أريكة العرش السعودي ، وأن ينصره هو وأنجاله ومؤازريه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأنشد تلامذة مدرسة العلا السعودية بعنوان الوحدة العربية النشيد الآتي :

لَبَّيْكَ يَا دَاعِي الْوَطَنْ	لَبَّيْكَ سِرّاً وَعَلَنْ
يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى	تَوْحِيدِ أَوْطَانِ الْعَرَبْ
لَبَّيْكَ كُلُّ عَرَبِيٍّ	لِحِمَى الضَّادِ انْتَسَبْ
يَا حَبَّذَا الوَحْدَةُ مَرْحَى	لِلَّذِي بِهَا اعْتَصَمْ

بِهَا تَنَالُ الْعُرْبُ مَا تَسْمُو بِهِ بَيْنَ الأُمَمْ
نَحنُ جُنُودُها وَهَا نَحْنُ إِلَيْهَا سَائِرُونْ
وَفِي سَبِيْلِهَا نَمُوتْ لاَ تَصُدُّنَا الْمَنُونْ
فَيَا بَنِي الضَّادِ إِلَى الأَمَامِ فِي كُلِّ زَمَنْ
وَإِنْ دَعَا الدَّاعِي إِلَى الدِّفَاعِ فَاهْتِفُوا مَعَاً
لَبَّيْكَ يَادَاعِي الْوَطَنْ لَبَّيْكَ يَادَاعِي الوَطَنْ ... إلخ

ثم قام زيد غالي التلميذ بالمدرسة الأميرية فتلا القصيدة الآتية :

فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ إِنْشَادٌ وَتَغرِيدُ لِلْوافِدِينَ ، لَهُم فِي الْقَلْبِ تَمجيدُ
زِيَارَةٌ مِن شَذَاهَا عَمَّنَا فَرَحٌ مَاسَتْ لَهُ الْهَضْبُ وَازْدانَتْ لَهُ البِيدُ
فَإِنْ نُحَيِّي كِرَاماً عَزَّ مَقْدَمُهُم هُمُ الأَمَاثِلُ إلاَّ أَنَّهُم صِيدُ
بِاسْمِ الْمَعَارِفِ وَاسْمِ العِلْمِ نَبْعَثُهَا تَهَانِياً بِحُلاَهَا نُظِمَ الجِيدُ
وَنَحْنُ نَشْءٌ لِصَقْرِ العُرْبِ سَيِّدِهِمْ عَبْدِ العَزِيزِ لَنَا تَزْهُو الأَغَارِيدُ
وَفَخْرُنَا بِابْنِ هَدْيَانَ يُشَجِّعُنَا أَمِيْرُنَا مَنْ بِهِ تَحْلُو الأَنَاشِيدُ
وَإِنْ نَكُنْ نَحْنُ أَطْفَالاً عَلَى أَمَلٍ يَرُوقُنَا اليَوْمَ إِصْلاَحٌ وَتَجْدِيدُ

ثم عاد طلاب مدرسة العُلا فألقوْا بعنوان [كلنا في الحرب جند] النشيد الآتي :

كُلُّنَا في الْحَرْبِ جُنْدٌ تَحتَ رَايَاتِ الْوَطَنْ
نَدْرَأُ الشَّرَّ عَنِ العَرْبِ وَلاَ نَخْشَى الفِتَنْ
أُمَّةٌ تَسْعَى إلى الْمَجْدِ عَلَى خَيْرِ سَنَنْ
تُرْخِصُ الأَروَاحَ فِي الرَّوْعِ بِغَيْرِ مَا ثَمَنْ
مَهْدُهَا الشَّامُ وَنَجْدٌ وَالعِرَاقُ وَاليَمَنْ
وَطَنٌ لا يَقْبَلُ التَّقْسِيمْ فِي أَيِّ زَمَنْ

مَهْبِطُ الْوَحْيِ وَمَهْدُ الرُّ ... سْلِ فِي مَاضِي الزَّمَنْ
لَبِسَ التَّارِيخُ فِي ... غَابِرِهِ أَبْهَى الزِّيَنْ
فَلْيَعِشْ هَذَا الْوَطَنْ ... فَلْيَعِشْ هَذَا الْوَطَنْ

ثم تلا التلميذ بالمدرسة الأميرية عبد الله نويصر الخريقي الخطاب الآتي :

الحمد لله الذي تفضل فأتم إفضاله ، بأن قيّض لنا هذا العهد المبارك في ظل جلالة الملك المفدى .

مولاي الأمير ، أيها الأجلاّء !

لاعجب إن رأينا اليوم بدور المحافل وزينتها ، فبادرنا بالتكريم والاحتفاء بشخصياتكم الكريمة فأهلاً بكم وسهلاً ، وشكراً لله على هذا التضامن والشعور الفياض . إن الشرقيين عن بكرة أبيهم مؤيدون لهذا العرش العربي السعودي الذي أُفعمت القلوب بحبه والولاء له . إنه ولَعمر الحق العهد الذهبي : انتشر فيه التعليم ، وحَلّق فيه العدل ، وجاء الحق ، وزهق الباطل ، .... إلخ .

ثم عاد تلامذة مدرسة العلا فألقوا بعنوان (كن قوياً تحترم) النشيد الآتي :

كُنْ قَوِيّاً تُحْتَرَمْ بَيْنَ عُرْبٍ وَعَجَمْ
كُنْ عَفِيفاً يَحْمِلُ النَّاسُ لَكَ الحُبَّ الأَتَمْ
كُنْ شَرِيفاً يَرتَفِعْ ذِكْرُكَ مَا بَيْنَ الأُمَمْ
كُنْ صَرِيحاً وَغَيُوراً وجَرِيئاً ذَا شَمَمْ
كُنْ مِثَالَ النُّبْلِ وَالأَخْلاَقِ مَحْمُودَ الشِّيَمْ
كُنْ دَؤُوباً فِي سَبِيلِ العُرْبِ مِن غَيْرِ سَأَمْ
وَتَذَكَّرْ أَنَّ أَجْدَادَكَ آسَادُ الأَجَمْ
مَلَؤُوا التَّارِيخَ نُبْلاً وَنُبُوغاً وَذِمَمْ
جَرِّدِ السَّيْفَ وَدَافِعْ حِيْنَ لا يُغْنِي الْقَلَمْ

ثم قام الأستاذ الشيخ صالح الفرفور فألقى كلمة طيبة تناسب المقام ، وكانت القصيدة الأخيرة التي أنشدها تلاميذ مدرسة العَلا بعنوان (شباب العرب) :

يَا شَبَابَ الْعُرْبِ مَهْلاً	زَمَنُ القَوْلِ تَوَلّى
وَهِلاَلُ الجِدِّ هَلاَّ	وَأَتى دَوْرُ العَمَلْ
نَهَضَ الْغَرْبُ وَنِمْنَا	وَمَضَوا هُمُ وَقَعَدْنَا
فَلِهَذَا قَدْ خَسِرْنَا	حَقَّنَا بَيْنَ الدُّوَلْ
يَابَنِي الْمُسْتَعْرِبِينَا	وَهُدَاةَ الْعَالَمِينَا
وَالأُبَاةَ العَادِلِيْنَا	مِنْ مَيَامِينِ الأُوَلْ
غَضْبَةٌ مِنْكُم كَبِيرَةْ	تَخْتَرِقْ أَرْضَ الْجَزِيرَةْ
تَتْرُكُ الْعَيْنَ قَرِيْرَةْ	بِالْمَوَاضِي وَالأَسَلْ

ثم أمر سعادة الأمير بإحضار الراديو ؛ فأسمع الناس أخبار مصر وفلسطين .

يوم الجمعة ٢٦ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

صلينا الصبح بالنخيل ، ثم نودي القوم إلى طعام الصباح عند الأمير ، وجرى ذكر القيافة والعيافة والسيافة ، فقال الأمير : عندنا السيد صالح ممن له براعة في القيافة والقصّ ، فهو عالم بالقص [بالحيل] أي عالم بقص آثار الماشين جداً .

وفي بلوغ الأرب[١] : « ومن علوم العرب علم القيافة والعيافة .

والقيافة على قسمين : قيافة الأثر ويقال لها العيافة ، وقيافة البشر . أما العيافة : فهو علم يبحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر المقابلة للأثر ؛

---

(١) ٢٦١/٣

وهي التي تكـون في تربـة حرة وتشكل بشكل القـدم . ونَفْـعُ هـذا العلم بَيّنٌ ، إذ القـائف يجـد في هـذا العلم الفـارّ من النـاس ، والضـال من الحيوان بتتبع آثـارهـا وقوائمها ، حتى يُحكى أن بعضهم يفرق بين أثر قدم الشـاب والشيخ والرجل والمرأة والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهي الاستـدلال بهيئـات أعضـاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر الأحوال » .

وقد فسرها أبو القاسم الأصفهاني في كتاب (الذريعة) بتفسير أوجز فقـال : « والقيافـة ضربـان : أحـدهمـا تتبع أثر الأقـدام والاستـدلال بـه على السـالكين ، والثاني : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبته . وخص الاستدلال بالقيـافـة البشرية من العرب بنو مدلج[1] وبنو لهب[2] . وذلـك لمنـاسبـة طبيعيـة حـاصلـة فيهم لابتعلم » . قال الأصفهاني : « خص الله العرب بذلك ليكون سببـاً لارتـداع نسائهم عما يورث ثلب نسبهم ، وخبث حسبهم ، وفسـاد بـذورهم وزروعهم » إلى أن يقول : « والقيافة اليوم موجودة في بعض قبـائل نجـد . ويقـال إنهم بنو مرة ، وهم أعلم الناس بها . وقد نقل الثقـات ممن سـافر إلى بلاد نجـد أن كثيراً منهم يرى الأثر ، فيقول : هـذا أثر فلان وفلان ، وهـذا أثر بعير فـلان ، وهـذا أثر أنـاس لم يطؤوا الأرض الفلانية ، وهؤلاء أناس قدموا من كذا وكذا فلم يُخلوا بشيء منها .

وسمعت أن أعرابياً تبع أثر حمـار لـه سرقـه اللصوص وهو ينشـده حتى دخل الحلة[3] . وحتى أوقفه أثره عليه من بين آثار حمير لا تُحصى .

وإذا نظروا إلى عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيـه ، والأخ بـأخيـه ، والقريب بقريبـه . وميّـزوا الأجنبي إذا كان بينهم . ثم يقـول : والقيـافـة محكـوم بهـا في

---

(١) قبيلة من كنانة .

(٢) بنو لَهَب : محركة بطن من الأزد .

(٣) علم لعدة مواضع ، ويريد المؤلف حلة بني مزيد من مدن العراق .

الشرع ، وهي إحدى الطرق الحكيمة . ففي الصحيح من حديث مجزز الأسلمي أنه دخل فرأى أسامة بن زيد ، وزيداً ، وعليهما قطيفة قد غطيا بها رؤوسهما وبدت أقدامهما ، فنظر إليهما مجزز الأسلمي وقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض . فَسُرَّ بذلك النبي ﷺ . وهي ناشئة من كمال الفطنة والذكاء » . انتهى .

قلت : ويقول علماء اللغة : القائف من يعرف الآثار ، جمعها قافة ، وقاف أثره يقوفه قوفاً وقيافة : يتبعه ، واقتافه مثل قافه وكذلك اقتفاه .

وقال ابن الأثير : القائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه ، ومنه الحديث : « إن مجززاً كان قائفاً » .

وفي المصباح : قاف الرجل الأثر قوفاً من باب قال : تبعه . واقتافه كذلك فهو قائف ، والجمع قافة ، مثل كافر وكفرة . ومقتفٍ . اهـ .

وفي المصباح أيضاً : ساف الرجل الشيء يسوفه سوفاً من باب قال : اشتمه ، ويقال إن السافة من هذا . وذلك أن الدليل يسوف تراب الموضع الذي ضل فيه ، فإن استاف رائحة الأبوال والأبعار علم أنه على جادة الطريق وإلا فلا . قال الشاعر :

إِذَا الدَّلِيْلُ اسْتَافَ أَخْلاَقَ الطُّرُقْ

وأصله مفعلة والجمع مسافات . اهـ .

وفي القاموس : السوف : الشم وبالضم . وكصُرَد جمعاً سوقة للأرض ، والمساف والمسافة والسيفة بالكسر البعد ؛ لأن الدليل إذا كان في فلاة شم ترابها ليعلم أعلى قصد أم لا ؟ فكثر الاستعمال حتى سَمَّوا البعد مسافة . إلى أن يقول : والمساف : الأنف لأنه يُساف به ، وفيه استاف : اشْتَمَّ ، والموضع مستاف .

وفي التاج : والعائف المتكهن بالطير أو غيرها من السوانح . وفي حديث ابن

سيرين أن شريحاً كان عائفاً ، أراد أنه كان صادق الحدس والظن . كما يقال للذي يصيب بظنه ماهو إلا كاهن ، وللبليغ في قوله ماهو إلا ساحر إلا أنه كان يفعل فعل الجاهلية في العيافة . اهـ .

مايقوله فقهاء الشافعية في القائف

وفي حاشية الجمل على شرح المنهاج لشيخ الإسلام[1] : لو ألحق القائف الولد بعد انتسابه لغير من انتسب إليه كان المعول عليه إلحاق القائف ؛ لأن إلحاقه كالحكم أو كالبينة . اهـ .

شرط القائف

في شرح المنهج لشيخ الإسلام[2] : شرط القائف أهلية الشهادات[3] ، وتجربة في معرفة النسب بأن يعرض عليه ولد في نسوة ليس فيهن أمه ثلاث مرات ، ثم في نسوة فيهن أمه فإن أصاب في المرات جميعاً اعتُمد قوله ؛ وذكر الأم مع النسوة ليس للتقييد بل للأولوية ، إذ الأب مع الرجال كذلك على الأصح فيعرض عليه الولد في رجال كذلك بل في سائر العصبة والأقارب كذلك ، وبما ذُكر علم ماصرح به الأصل أنه لا يُشترط فيه عدد كالقاضي ولا كونه من بني مدلج ، نظراً للمعنى خلافاً لمن شرطه ـ وقوفاً مع ماورد في الخبر ـ

الأصل في اعتماد خبر القائف

الأصل في ذلك كما في شرح شيخ الإسلام لمنهجه ماروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي النبي ﷺ مسروراً فقال : « ألم تري أن

---

(١) ٤٤٩/٤

(٢) ٤٣٥/٥

(٣) أي من إسلام وعدالة وحرية وذكورة ، وكونه ناطقا بصيرا غير محجور عليه ، وغير عدو لمن ينفي عنه ولا بعضاً لما يلحق به .

مُجَزِّزاً[١] المدلجي دخل علي فرأى أسامة وزيداً »[٢] . وكان أسامة أسود طويلاً أقنى الأنف ، وزيد أبوه كان أبيض قصيراً أخنس الأنف ، وكان الكفار يطعنون في نسبهما إغاظة له ﷺ . فلما وقع من المدلجي ماذكر أقره ﷺ عليه وفرح به ، وهو ﷺ لا يقر على خطأ اهـ (جمل عن المحلي) وكان عليهما قطيفة[٣] قد غطيا بها رؤوسهما وقد بدت أقدامهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض اهـ وفي ذلك رد على المنافقين حيث قالوا : ليس أسامة من زيد لأن زيداً كما تقدم كان أبيض وأسامة كان أسود ، ورضي الله عن أسامة وزيد اهـ .

وجه الردّ

ووجه الرد أن المنافقين كانوا يسلمون الحكم بالقائف ، لأن أمره معروف عند العرب ، قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : فلو لم يعتبر قوله لمنعه النبي ﷺ من المجازفة ؛ لأنه ﷺ لا يقر على خطأ ، ولا يُسر إلا بالحق اهـ . شرح م . ر . وعلى هذا فيجب العمل بقول القائف ، ويثاب على ذلك ، والأقرب أنه لا تجب له الأجرة على ذلك قاله : ع . ش عليه اهـ .

الفراسة

قلت : وقريب من القيافة الفراسة ، التي هي أيضاً من علوم العرب ، وهي ضرب من الظن ونصيب العرب فيها أوفر من نصيب غيرهم ، وما روي عنهم من عجائب هذا الباب شيء كثير ، من ذلك أنه كان لنزار بن معد بن عدنان جد رسول الله ﷺ أربعة أولاد : مضر وربيعة وإياد وأنمار . فلما حضرته الوفاة وصاهم فقال : يابني هذه القبة الحمراء وما أشبهها لمضر ، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه لربيعة ، وهذه الخادمة وما أشبهها لإياد ، وهذه الندوة والمجلس وما أشبهه

---

(١) ضبطه في القاموس في مادة جزز بوزن محدّث .

(٢) أسامة وزيد كانا محبوبيه ﷺ .

(٣) القطيفة : دثار له خمل (المصباح) .

لأنمار ، فإن أشكل عليكم واختلفتم فعليكم بالأفعى الجرهمي بنجران . فاختلفوا في القسمة فتوجهوا إليه . فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رُعي فقال : إن البعير الذي رعى هذا الكلأ لأعور . وقال ربيعة : هو أزور[1] ، وقال إياد : هو أبتر[2] . وقال أنمار : هو شرود[3] . فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل يوضع[4] على راحلته[5] . فسألهم عن البعير فقال مضر : هو أعور ؟ قال : نعم . وقال ربيعة : هو أزور ؟ قال : نعم . وقال إياد : هو أبتر ؟ قال : نعم . وقال أنمار : هو شرود ؟ قال : نعم . وهذه والله صفة بعيري ، فدلوني عليه . فقالوا : والله ما رأيناه ، قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه ؟ وسار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمي ، فناداه صاحب البعير : هؤلاء أصحاب بعيري وصفوه لي بصفته ، وقالوا لم نره . فقال لهم الأفعى الجرهمي : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً واحداً فعرفت أنه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور ! وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ! وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز إلى غيره فعرفت أنه شرود ! فقال الجرهمي لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلبه من غيرهم . ثم سألهم من هم ؟ فأخبروه أنهم بنو نزار بن معد فقال : أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى . فدعا لهم بطعامه فأكلوا وأكل ، وبشراب فشربوا وشرب فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أجود لولا أنها نبتت على قبر ، وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه رُبي بلبن كلب ؟! وقال إياد : لم أر كاليوم

---

(١) أزور أي به زَوَر وهو عوج الزور ، أو إشراف أحد جانبيه على الآخر .

(٢) أبتر : مقطوع الذنب .

(٣) شرود : نفور .

(٤) يوضع : أوضع أسرع في سيره .

(٥) الراحلة : المركب من الإبل ذكراً كان أو أنثى ، وبعضهم يقول : الراحلة الناقة التي تصلح أن ترحل .

رجلاً أسرى لولا أنه يدعى لغير أبيه . وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا .

وسمع الجرهمي الكلام فتعجب لقولهم ، وأتى أمه فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا ولد له ، فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلاً من نفسها كان نزل به فوطئها فحملت منه به ! وسأل القهرمان عن الخمر فقال : من كرمة غرستها على قبر أبيك ! وسأل الراعي عن اللحم فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة لأن الشاة حين ولدت ماتت ، ولم يكن وُلد في الغنم شاة غيرها . فقيل لمضر : من أين عرفت الخمر ونباتها على قبر ؟ قال : لأنه أصابني عليها عطش شديد ! وقيل لربيعة : من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على لبن كلبة قال : لأنني شممت منه رائحة الكلب ! وقيل لإياد : من أين عرفت أن الرجل يُدعى لغير أبيه ؟ قال : لأنني رأيته يتكلف ما يعمله ! ثم أتاهم الجرهمي وقال : صفوا لي صفتكم ، فقصوا عليه ماأوصاهم به أبوهم نزار ، فقضى لمضر بالقبة الحمراء والدنانير والإبل وهي حُمر ، فسمي مضر الحمراء ، وقضى لربيعة بالخباء الأسود والخيل الدُهم فسمي ربيعة الفرس ، وقضى لإياد بالخادمة الشمطاء والماشية البلق[1] ، وقضى لأنمار بالأرض والدراهم ، وهذا الذي ظهر في أولاد نزار من قوة الذكاء وحدة الفطنة تأسيساً لتميزهم بالفضل ، واختصاصهم بوفور العقل ، مقدمة لما يُراد بهم . اهـ . فانظر إلى هذه الفراسة التي كانت تصل إلى حد الإعجاز ، وكانت في الوصول إلى مكنون الحقائق أقوم مجاز فلله تعالى درّ العرب ، فهم مظهر كل عجب .

صلاة الجمعة في العُلا

تقام صلاة الجمعة في المسجد المسامت جداره لجدار منزل الأمير ، وهو مؤسس

---

(١) البلق : جمع أبلق وهو المرتفع التحجيل إلى الفخذين .

بغير زخرفة ولا تجصيص ولا تحوير ، جداره الشمالي في منزل الأمير ، وفي الجدار الجنوبي المحراب يلاصقه منبر المسجد ، وله نافذتان متقابلتان يتخلل منهما الهواء ، كتب في أعلى جدار المنبر والمحراب (لا إله إلا الله محمد رسول الله) سنة ١٣٥٠ هـ ٣ محرم ماشاء الله لا قوة إلا بالله . ويحمل سقف المسجد الجدار الغربي والجدار الشرقي ، وفي وسط المسجد ثلاث أسطوانات من حجر مستور بالطين . دخلنا المسجد لصلاة الجمعة فإذا هو غاص بالمصلين ، وإذا مؤذن يؤذن بين يديْ الخطيب الأذان الثاني بعد أن أذن الأذان الأول على سطح المسجد ، كما هي العادة في الأذان للصلوات الخمس ومن غير أن يتقدمه ما يُعرف ببلادنا (بالتذكير) يوم الجمعة وليلتها . ولما انتهى الأذان الثاني المجرد من التنغيم والتمطيط والترجيع والتطريب ، قام الخطيب الشيخ صالح صَبّاح من أهالي العُلا ، يلبس الثياب البيض ويستر رأسه بكوفية وعقال ، فخطب خطبتين من ورقة يحملها ، وليس في الخطبتين جديد وهما مستوفيتان للشروط المعروفة . وعند دخولنا المسجد كان أمير العُلا يصلي السنة ، ثم دخل بعده القاضي فصلى ركعتين والإمام يخطب ، ثم انقضت الصلاة ولم يصلوا بعد الجمعة ظهراً ، كأنهم رأوا أن جهة هذا المسجد منفصلة عن بلدة العُلا ومستقلة بذاتها .

العَلَم الحريري

تحدث وجهاء الركب بوجوب إهداء سمو الأمير هدية باسم الوفد تكون شكراً لما أسداه من إكرام وحسن وفادة ، فحرّك هذا الحديث إحدى الزائرات هي السيدة فائزة بنت المرحوم السيد كامل الغبرة فصنعت علماً من الحرير الأطلس طرّزته بحرير بلدي أصفر وكتبت عليه بالتطريز ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب ٥٦/٣٣] ثم كتبت (ليحيا الأمير محمد بن هديان) وجعلت فوق العلم شارة من حرير أبيض أرسلته مع أحد أقاربها ، وكان له عند الأمير وقع عظيم . اهـ .

السمر ووداع الأمير

ابتدأنا السمر الليلة عقب صلاة المغرب ، وكنت إلى جانب الأمير ، وتتابع ورود الناس للمجلس ؛ وذكرت إذ ذاك للأمير أن جمعية (الهداية الإسلامية) ترغب في أن تودعه وتشكر له عطفه وبره . فقال ماخلاصته : والله إني مقصر ومعترف بقصوري ، وأرجو الصفح والسماح ، وسترون أمامكم أمير المدينة فتنسون بحسن عمله ورعايته عجزي وتقصيري . ثم فتح بيده (الراديو) وأسمعنا أخبار ألمانيا ، وكان إذا مَرّ بغناء تنحّى عنه إلى غيره .

كلمة عن أمير العُلا محمد بن هديان

لاأدل على عظمة هذا الرجل وعلو شأنه من طيب أعماله ، فلقد رأينا فيه صفات فاضلة كل واحدة منها تكفي لأن ترفع صاحبها أعلى المقامات ، فكيف إذا اجتمعت كلها في شخص واحد ، فهو كريم ، قدّم لعموم أهل الوفد رجالاً ونساءً أحسن ضيافة وأكرم استقبال خلال ثلاثة أيام ، وقد قيل إنه كان يذبح لكل عشاء عشرات من الضأن ، وكان يضع لطعام كل صباح كثيراً من البيض والعجوة واللبن والعسل واللحم ومرق البندورة ، مع مايُختم به الطعام من القهوة والشاي والبخور والعود ، وهو قبل هذا الإنفاق وبعده باسم الثغر طلق المحيا[1] ، رضي الأخلاق ، وهو سهل متواضع ، يرحم الصغير ويواسي الكبير ، يكلم من في إمرته كأنه واحد منهم ، وهو ذو غيرة على راحة ضيوفه ، حضر للاطمئنان عليهم إلى المدائن وأمر خويّانه بمساعدتهم في إنقاذ سياراتهم من الرمل ، وإيصال الماء إليهم وهم على مسافات بعيدة من العُلا . بل كان ينزل بنفسه مع عماله لإنقاذ السيارات ، وقد أبرق لجلالة الملك أكثر من مرة يطلب إليه مساعدة الوفد . وأخيراً جهّز بعض رجال الوفد يوم وداع العُلا بمنح وفيرة وعطايا جزيلة ، وسيّر

(١) المحيا : كالمُحَيا جماعة الوجه أو حره أي مابدا منه (القاموس) .

كثيراً من إخوانه مع الوفد إلى وادي الغضا ، وناساً منهم إلى المدينة المنوّرة ليحافظوا على راحة الناس ورفاهيتهم ، وقد ألزم نفسه أجور البرقيات التي أرسلها ضيوفه .

وهو ذو دِينٍ وتعظيم للعلماء ، يصلي مع الجماعة ، لا يخرج من مكان أو يدخل مكاناً إلا ويطلب إلى قاضي العُلا أن يدخل قبله ، ويقدمه في تناول الشاي والقهوة وغيرهما . ولعمري لو وجد في حكام المسلمين من يعظم علماء الدين كما فعل هذا الأمير لكان ذلك داعياً لنهضة شرعية وتسابق إلى الخلق والفضيلة ، إنه مدرسة إسلامية متحركة يتعلم فيها الكبير والصغير ، فهنيئاً للعلا به ، وهنيئاً للحكومة السعودية بشخصه ، بل هنيئاً لكل العرب بهذا الأمير المحبوب .

السبت ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

أسرعنا إلى الركوب من الصباح المبكر ثم أرسلنا كتاب شكر لأمير تبوك جاء فيه :

إن فهداً وغاغاً الدليلين اللذين أرسلهما قد أديا مهمتهما بصدق وأمانة ، فشكراً للأمير ، والله نسأل له توفيقاً وحسن جزاء .

أسَفي

إذا كنت في هذا اليوم آسفاً على شيء فهو عدم وداعنا لأمير العُلا الوداع الأخير ، لقد كان حسن الذوق ، طاهر الشيم ، رقيق الشعور ، حافظاً للعهد ، معترفاً بالجميل ، وقد استدركنا برسالة شكر كتبها الأخ محمد الكامل القصار ودع فيها الأمير ، وأرسل نسخة منها إليه لعلها تجبر هذا الصدع وتمحو أثر هذا التقصير . وأصل هذه الرسالة محفوظ في أصل الرحلة . أدام الله عطفه ومتّعه بما يحب ويرضاه ، وإن الله لمع المتقين .

الفصل الرابع
الانطلاق من العلا
ومتابعة السير إلى المدينة

مسيرنا إلى وادي الغضا فالبدائع

كان مسيرنا قبل طلوع الشمس ، وسرعان ماعاد الغوص في الرمال والنزول من السيارات وحمل ألواح التوتياء ، ودفع السيارة من آخرها وجانبيها وأطرافها ، كما عاد الانخفاض والارتفاع والأخذ والرد والجذب والدفع ، وارتطام رؤوس الركاب بسرعة في سقف السيارة عند هبوطها بغير مهلة بعد منحنى مفاجئ ، استمر ذلك ست ساعات متواصلة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وبعد نحو ساعة أخرى وصلنا إلى البدائع ، ووقفت السيارات تنتظر مجيء زميلاتها .

هل نسير من البدائع أم لا ؟

رأى بعضنا وجوب بقائنا في البدائع ، ورأى الأكثرون وجوب السير إلى (البئر الجديد) حيث الماء وحيث الراحة والصفاء ، وكان سيرنا حسناً اكتنفنا فيه سهل واسع المدى ينتهي بصر الناظر فيه إلى جبال سوداء ؛ تتخللها شعاب رملية لها لون الزهر تبتعد أحياناً وتقترب أحياناً أخرى . ولو أن قائلاً يقول : إن فيها غَناء عن رياض زاهرة وكفاية عن حدائق مثمرة لم يكن مبالغاً ، فسبحان المبدع الحكيم .

سهل المطر

وصلنا إلى محطة (سهل المطر) ، وهي تابعة للخط الحديدي للسكة الحجازية واقعة في الكيلو /١٠٣٩/ وهي محطة وقلعة معاً ، لا يجد الناظر إليها غير الأسى والحزن على زمان كان فيه هذا الخط الإسلامي منتظم السير ، تهفو إليه قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ويجمع قلوبهم ، فيصل بينها وبين مرقد نبيهم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

سرنا بعد أن وقفنا قليلاً في هذه المحطة إلى سهل واسع أيقظت رماله حرارة الشمس ، فجعلتْها رخوة لينة بعد برودة الليل وانكماش ذرات الرمال ، فصار سهلاً عليها ابتلاع دواليب السيارة أول ما تمر عليها ، لذلك كان اجتيازه علينا عسيراً ، حتى قال قائلنا : قيلوا إلى أن يبرد حر الشمس ، وقال آخر : لا بل يجب أن نسير فالحر شديد .

وتغلّب القائلون بالسير فسرنا . وفي بعض المواضع تأبى السيارة أن تسير إلا على ألواح التوتياء ، فتُغرس الألواح ويُزال ما على الدواليب من رمل ، وتُدفع السيارة كما هي العادة ، ويسرع الرجال في حمل ألواح التوتياء التي تم مشي السيارة عليها ليبسطوها ثانية أمام السيارة ، وهكذا حتى تحول حرارة الشمس دون مواصلة العمل ، ويحيط التعب بالجميع ، فيجبرهم على التوقف والانتظار ، ويأوي بعضنا إلى ظل شجرة من (شوك السعدان) فيجلسون معاً كأنهم على موعد . لقد أنهكهم ما أنهكنا ، وأعياهم الذي أعيانا ، إلى أن تزول الشمس عن كبد السماء ويحين وقت الأصيل فتعود إلى الرجال هممهم ، ويعودوا إلى مهامهم من جديد .

محطة الزمرُّد ووادي الزمرد

أدركتنا عناية الله ، فاجتمعنا بالقرب من محطة الزمرد التي تقع في الكيلو /١٠٥٤/ (بسيارة الحكومة السعودية) تحمل مئتي تنكة من البنزين سلمت شركة سياراتنا منها ستاً وتسعين تنكة ، وأقلت البقية الباقية منها إلى العُلا ، فجبرت القلوب ، وطابت بها النفوس ، ولجأنا جميعاً للدعاء إلى الله تعالى في أن يطيل عمر جلالة الملك ابن سعود ، ويجزي أمراءه خير الجزاء . واستقبلنا مباشرة بعد ذلك (وادي الزمرد) ، وهو وادٍ بديع ، بل هو من أعجب ما خلق الله روعة وصفاء ، وجمالاً وبهاءً ، وحسن مناظر ، يحيط بهذا الوادي جبال متعددة متنوعة ، فجبل أبيض اللون بكدورة ، وإلى جانبه جبل أزهر اللون ، وقريب منهما جبل أحمر قانئ[1] ، وبعيد عنهما جبل أعلاه أسود وسفحه أحمر صافي الحمرة ، يلاصقه جبل زمردي أخضر ضعيف الخضرة ذو بريق ولمعان . الأمر الذي يأخذ باللب ويدع العاقل المنصف يقول : سبحان من خلق فأبدع ، سبحان من أحسن كل شيء خلقه ، سبحان من لا يحيط بقدرته لوح ولا قلم ، سبحان من يفعل ما يشاء ، ويقول للشيء كن فيكون .

وإن تعجب فاعجب لأرض هذا الوادي أيضاً ، فهي أقسام : لكل بلقعة[2] لون ولكل لون روعة ، ولكل قطعة منها جمال وفتنة ، فنحو من أربعين ذراعاً أرض خضراء ، ونحو مئة ذراع أرض سوداء مع بريق ولمعان ، ونحو خمسين ذراعاً أرض حمراء تتدرج في شدة احمرارها حتى تميل إلى لون خمري قاتم ، فسبحان الإله الحكيم والقادر العليم .

---

(١) أحمر قانئ بالهمز من قنأ كنع قنوأ : اشتدت حمرته (القاموس) .

(٢) بلقع : البلقع والبلقعة : الأرض القفر جمع بلاقع (القاموس) .

الصورة

وأخيراً وصلنا مع المغرب إلى (الصورة) ، فيها بركة كبيرة عظيمة الاتساع لا يكاد يدركها البصر عمقاً ، بنيت جدرانها بحجارة محكمة الصنع ، وجُعل للوصول إلى مائها درج من حديد ، ذات رهبة لا يستطيع أشد الناس جرأة أن يسقي من مائها لبعد عمقها وصعوبة الوصول إلى أرضها ؛ التي فيها مستقر الماء . ولولا أن الله تعالى يسّر لنا بدوياً اتخذ سقي الناس من هذه البئر حرفة له لما شرب أحد من الزوار منه قطرة . كان هذا البدوي مجرداً من ثيابه إلا بما يستر موضع العورة يحمل على كاهله قلّة من جلد ، ثم يهبط بها درك[1] البركة فيملؤها ويصعد بها ، فيستوفي ثمنها ممن يطلبها منه قرشاً واحداً سعودياً .

بقي أن كلمة (الصورة) التي سمعنا العرب يطلقونها على هذه البئر وعلى هذا المكان ، ربما سُمّيت بذلك لأنها تظهر فيها صورة الناظر إليها من شاهق ، أو لعلها محرفة عن كلمة (الثورة) فهي من عمل إبراهيم باشا المصري الذي ثار على الحجاز ، وكان هذا المكان ممرّه وطريقه ، وقد أصدر أمره إذ ذاك ببناء هذه البركة وحفر مائها لحاجة جيشه إلى الماء .

يوم الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

سِرنا اليوم قبل الشمس بمدة طويلة ، سائلين الحق سبحانه وتعالى أن يهون علينا السفر ويزيل وعثاءه ، وكنا نهزج ما بقي في أذهاننا من نشيد الوحدة العربية الذي أنشده طلاب مدرسة العَلا السعودية وأوله :

لَبَّيْكَ يَا دَاعِي الوَطَنْ   لَبَّيْكَ سِرّاً وَعَلَنْ

وتمنى القوم لو عرفوا ما بعده من الأبيات ، فطلبوا إلي أن أنظم لهم بعض

---

(١) الدَرَك ـ ويسكن ـ : أقصى قعر الشيء (القاموس) .

الأبيات ليتم لهم التلحين والنغم ، وما أنا ممن ينشئ الشعر ولكني أردت تسليتهم ، فأجبت طلبهم وقلت :

لَبَّيْكَ يَا دَاعٍ أَتَى ... يَدعُو إلى عِزِّ الوَطَنْ
لَبَّيْكَ إنَّا أُمَّةٌ ... تَهْوَى مِنَ الدُّنْيَا الوَطَنْ
لَبَّيْكَ يَادَاعِي الهُدَى ... يَاخَيْرَ حُرٍّ مُؤْتَمَنْ
لَبَّيْكَ قَوْلاً صَادِقاً ... يَمْحُو عَنِ الْقَلْبِ الوَهَنْ
لَبَّيْكَ إنَّا أُمَّةٌ ... تَدعُو إلَى خَيْرِ سَنَنْ
هَانَحْنُ شُبَّانُ العُلا ... أَوْلاَدُ نَجْدٍ وَيَمَنْ
مِنْ كُلِّ شَهْمٍ بَاسِلٍ ... يَرْعَى العُهُودَ وَلاَ يَمَنّ
وَقَدْ زَكَتْ أَخْلاَقُنَا ... فَلَيْسَ فِينَا ذُو إحَنْ
فَلْنَتَّفِقْ وَلْنَجْتَهِدْ ... دَوْماً لإحْيَاءِ الوَطَنْ

وتابعنا المسير إلى أن وصلنا إلى جبلين ؛ تقارب أحدهما من صاحبه قرب تعاون وتحالف ، منع صغرى السيارات من الدخول بينهما فضلاً عن الكبرى ، فاضطررنا إذ ذاك لإعلان الحرب عليهما فهاجمت فؤوسنا أشدهما اعتراضاً للناس في مسيرهم ، وما زال فأس يرتفع وآخر ينخفض حتى لان الحجر وتهدم البناء المشمخر ، وإذ ذاك استقبلنا واد يشبه أسواق الشام ، فلا هضاب فيه ولا وهدات ولا روابي ولا منخفضات ، ومررنا على محطة (البئر الجديد) وهي في الكيلو /١٠٧٧/ ثم على محطة الطويرة بعد ثمانية عشر كيلومتراً ، ومحطة المدرج وهي في الكيلو /١١٢١/ نزلنا بعد هذا إلى سهلة مرملة ، هال سائقي السيارات اجتيازها وطال تفكيرهم في أسلوب اقتحامها وأخيراً ذهب منهم طليعة ركبوا السيارات الصغيرة ، وذهبوا يتعرفون طبيعة الأرض ، وما هي إلا لحة حتى أغار عليها سائق سيارتنا إغارة الشجاع الجريء المطمئن بالنصر ، فإذا بمقاعد السيارة قد قامت وإذا بالقائم فيها قد قعد ، وإذا بالأواني انقلبت ، وإذا بالأباريق الممتلئة

ماء قد انسفحت[1] ، وإذا برؤوس الركاب التي لامست سقف السيارة تنحط بغتة إلى الأرض ، وإذ ذاك لم يشعر الناس بما ألم بهم من أين ألم ، ولا بما أُخذوا به لماذا وكيف حدث ، ولما أدرك السائق سقوط بعض حوائج الركاب من سقف السيارة أوقفها بين أصوات الركاب المرتفعة وصراخهم المتواصل ، وقد أسفر هذا التريث عن ابتلاع الرمل لدواليب سيارته ، فتعثر المشي عليه ، واشتد غضبه ، فأشار على الركاب بالنزول ليعيد الكرة في الهجوم على هذه الرملة ، فإما حياة سعيدة وإما موت عاجل ، ونزل الركاب يحملون ألواح التوتياء بين أيديهم وعلى رؤوسهم والشمس تنال منهم بغيتها ، وتأخذ بحظها من وجوههم وأجسامهم . سارت السيارة مهاجمة الرملة واشتد الضيق على الناس وتقطعت بهم الأسباب وظنوا ألا ملجأ لهم ولا خلاص وجاء نصر الله ، فإذا بالسيارة تقف أمام وادٍ غزير الماء .

الوادي وغدير الماء

هذا الوادي على أبواب (محطة هدية) التي تقع في الكيلومتر /١١٣٨/ ، وقد رأينا حين رأيناه نسمة الحياة وبسمة الصبح ولُقيا المحب وعذوبة بارد الماء للظامئ الصديان ، رأينا فيه شجر الرتم[2] وشجر الدوم[3] ، وهو شجر يشبه شجر النخيل طولاً واخضراراً ، ورأينا فيه سيل ماء عظيم ، يكتنف حافتيه أشجار ذات أوراق خضراء اخضرار لب الفستق ، ورأينا فيه غدير ماء أذكرنا بردى دمشق ، تتفرع منه عدة أنهر ، فترامى الزوار على هذه الأنهر المتفرعة من هذا الغدير الصافي

---

(١) سفح الرجل الدم والدمع سفحاً من باب نفع : صبه (المصباح) .

(٢) الرَّتَم : محركة نبات كأنه من دقته شبه بالرتْم زهره كالخيرى وبزره كالعدس .

(٣) الدوم : في القاموس الدوم شجر المقل والنبق وفيه المقل المكي . ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل وفيه النَّبْق والنَّبِق وكَكَتِف حمل السدر . وفي المصباح : السدر نوعان أحدهما ينبت في الأرياف فينتفع بورقه في الغسل وثمرته طيبة ، والآخر ينبت في البر ولا يُنتفع بورقه في الغسل وثمرته عَفِصة .

العذب ، فهذا يغسل يديه ووجهه ، وهذا يغسل ثيابه وأوانيه ، وهناك من اختار العوم وحده ، وآخر اختار العوم مع أخيه ، واثنان أخذا يتصيدان السمك ويستبقان في اقتناصه والحصول عليه ، وجماعة تفيّؤوا ظل دوحة وقالوا عندها ، وآخرون شغلهم طهي الطعام .

حجارة هذا الوادي

ماراعنا من كل ما رأينا على بداعته وروعته مثل ما راعنا من حجارة هذا الوادي ، كأنها تذكرنا بقول الشاعرة الأندلسية :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ العِقْدِ النَّظِيمِ

أو ربما ذكرتنا بقول المتنبي في وصف شعب بوان :

وَأَمْوَاهٌ تَصِلُّ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلْيِ فِي أَيْدِي الغَوَانِي

فهي أحجار كبيرة وصغيرة ، لها بريق جذاب ، وألوان تأخذ بالألباب ؛ فالأحمر من هذه الحجارة البديعة أقسام : قسم خالص الحمرة شديدها ، وقسم خالص الحمرة ضعيفها ، وقسم أضيف إلى حمرته عروق دقيقة بيضاء ، أو شيبت بنقط بيض خالصة ، أو خالطتها نقط بيضاء وممزوجة بنقط زرقاء .

والأبيض منها أقسام أيضاً : قسم خالص البياض شديده كأنه رخام ، وقسم أُضيف لبياضه نقاط بيضاء براقة كأنها أحجار السكر تلألأت تحت ضوء الشمس ، وقسم خالط بياضه طرق سوداء متعرجة .

والأخضر منها أنواع : نوع خالص الخضرة شديدها ، ونوع خالص الخضرة ضعيفها ، ونوع أشربت خضرته بنقط سوداء ، ونوع امتزجت خضرته بعروق بيضاء ، ونوع أخضر خالطه بياض فجعله ذا نقاط مزدوجة بيض وخضر .

والأسود منها أقسام : خالص السواد شديده كحجر الكعبة لمّاع ، وذو نقط بيضاء خالطت هذا السواد بشكل براق جذاب ، وأسود الظاهر جُعل في باطنه أقلام بيضاء ، فسبحان الخالق العليم والمبدع الحكيم .

والرمل في هذا الوادي وقد ألقيت عليه تلك الأحجار الكريمة مما يأخذ بالأبصار ، ويوجب للقلب الذاكر الاعتبار ، وهو بحسب خلقته من قبل أن تزينه هذه الأحجار البديعة ذو ألوان وبريق فاتن . أسلمنا أنفسنا بعد هذا الوادي المشرق وماء الغدير المغدق إلى ربوة ، أسلمتنا بدورها إلى أرض سهلة ذات رمل ممتزج بأحجار سود ، تمنينا مع أننا لم نكن في سيرنا مطمئنين أن يطول مدى هذه الأحجار السوداء لأنها منعت سياراتنا من الغوص في الرمال وأراحتنا من حمل ألواح التوتياء . ثم انتقلنا إلى أرض مدحّوّة ذات تعاريج ، ثم إلى أرض واسعة أحاطت بها الجبال المتباعدة ، وأخيراً إلى أرض تقاربت جبالها فضاق اتساعها . كانت ممتعة لولا هذه السَّموم[1] التي كانت تهب علينا ، وهذه العَصَرة[2] التي كانت تهاجمُنا فنظن أننا أمام موقد نار أو داخل حمام تكاثف فيه البخار ، ويزيد الألم ألماً أن هذه الريح مما لا يكاد ينقطع هبوبه أو تضعف ثورته ، فالحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار . ولم يخلُ هذا الموقف الأليم من مشهد ممتع[3] كريم . وهو هذه الجبال الكثيرة العدد ، المتنوعة الأوضاع ، فمن أسود إلى أبيض إلى أصفر فوق صفرته غبرة ، إلى أكدر ، إلى متنوع الألوان ، ومن هرمي الشكل إلى مثلث إلى مربع إلى مستطيل إلى منفرد غير متصل بشيء ، إلى سلسلة متصلة متناسقة .

---

(١) السموم : الريح الحارة تكون غالباً بالنهار جمع سمائم (القاموس) .

(٢) العَصَرة : محركة كالإعصار وهو الريح تثير السحاب ، أو التي فيها نار ، أو التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التي فيها العُصار ؛ وهو الغبار الشديد (القاموس) .

(٣) من أمتعه الله بكذا أبقاه وأنشأه إلى أن ينتهي شبابه (القاموس) .

وأعجب مارأينا من هذه الجبال ثلاثة أجبال عظيمة الارتفاع ، كبيرة الحجم ، وكلها مع عظمتها عبارة عن أحجار سوداء صغيرة متساوية ، كأنها قطعت لترصف بها أرض المدن الكبيرة ، ولو أن الذين يرصفون الطرق في المدن عرفوا هذه الكنوز لاستاموها[1] بمئات الألوف . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ[2] بِيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغَرَابِيبُ[3] سُودٌ ﴾ [فاطر ٢٧/٣٥] .

وآية : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[4] [الغاشية : ١٧/٨٨ ـ ١٨] .

محطة النعم

نمنا في محطة النعم من محطات الخط الحديدي ، وتقع في الكيلو /١١٧٨/ . وكان نوماً عميقاً إذ تقدمته مشقة وصعاب .

---

(١) استامها : طلب بيعها (المصباح) .

(٢) الجدد : الخطط والطرائق .

(٣) أي جبال سود شديدة السواد ، وغرابيب معطوف على بيض أو على جدد كأنه قيل : ومن الجبال مخطط ذو جدد ، ومنها ماهو على لون واحد غرابيب . والغربيب تأكيد للأسود ، يقال أسود غربيب وأسود حلكوك وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ، ومنه الغراب . ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ أي ذو جدد بيض وحمر وسود . حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال : ثمرات مختلفاً ألوانها اهـ كشاف وغيره . وفي الجلالين ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ جمع جدد : طريق في الجبل وغيره (بيض وحمر وصفر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف . و ﴿ غرابيب سود) عطف على جدد ، أي صخور شديدة السواد . يقال كثيراً أسود غربيب وقليلاً غربيب أسود اهـ .

(٤) نُصبت : أي نُصبت نصباً ثابتاً لا تميل مع طولها . صنع اللطيف الخبير .

يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ

كان في محطة النعم بئر عذب ماؤه ، يزيد عمقه على العشرين ذراعاً ، بُني من حجر محكم ، وفيه درج حديدي ، وأمامه بناء آخر للخط كأنه قلعة تنتظم غرفاً سفلية وعلوية ، بناؤها من الحجر الأسود القوي المتين . ومما يملأ النفس ألماً التفكر في تبديد هذه الأموال التي صُرفت في سبيل إنشاء هذه المحطات ، وما بني من أجل هذا الخط من جسور وقناطر ومحطات وآبار ومصانع وآثار وحديد وأسلاك برقية ومقاطع للحديد ومعامل للصيانة والإصلاح . وقد أخبرني ذو علم بأن التسوية الترابية وحدها لهذا الخط بلغت خمسة ملايين ليرة ذهبية ، فما بالك فيما بقي من قاطرات وحافلات وما إلى ذلك ، مع أن المعمل الذي أنشئ في محطة القدم في دمشق الشام أربت كلفته على مئات الألوف من الليرات الذهبية ، وقالوا : إنه لا يوجد مثله في المدن الغربية الكبيرة .

كم آلمني أن يكون هذا التبديد لهذه الأموال لهذا الخط الإسلامي بيد إسلامية ، تدفعها من خلفها أياد أجنبية هي معها كالكرة والصولجان مع اللاعب الماهر ، وليس في ملوك المسلمين ورؤسائهم على تعددهم وكثرتهم من يفكر في جمع هذه الثروة وحفظ هذه النعمة ، ولعل جلالة الملك ابن سعود يعير هذه القضية نظره ، ويداوي أدواءها بثاقب فكره وعالي همته ، وهو الجاهر بأن حياة الأمم والأفراد متوقف على سلوك منهج الإسلام واتباع ما جاء به خير الأنام ﷺ .

محطة عنتر أو اصطبل عنتر

مررنا على هذه المحطة وهي في الكيلو /١١٩٤/ ، ثم واصلنا السير إلى (بؤيرة) كأنهم يقصدون بها البئر الصغير ، تبعد عن محطة عنتر تسعة عشر كيلومتراً ، شربنا من مائها الشيء القليل فإذا به خير ماء وردناه ، وأفضل ماء شربناه ، ثم سرنا نؤم محطة (آبار نصيف) .

المؤلم هو تجرؤ الناس على القول بما لا يعلمون ، فأحدهم يقول : الطريق من هنا ، وواحد يقول : هذا غلط ؛ الطريق الصحيحة من هناك ، وواحد يقول نصل المدينة بعد ساعتين ، وآخر يدعي بأننا لا نصل بأقل من عشر ساعات ، وهذا يدعي أن الماء في المحطة الآتية ، فيجيبه رابع لا ماء في المحطة الآتية أصلاً ، وهكذا سرنا ونحن نقول : حسبنا الله ونعم الوكيل إلى أن وصلنا آبار نصيف الواقعة في الكيلو /١٢٣٣/ .

وادي الفستق وإبل الصحراء

عندما اجتزنا آبار نصيف استقبلنا وادٍ يستحق أن يسمى (وادي الفستق) ، فهو من حيث المساحة يسير فيه الماشي يومين ولا يكاد يبلغه ، وقد اجتمع في هذا الوادي كل ما مر بنا من أنواع الزروع والأشجار ؛ ففيه الروم الطويل الذي يشبه النخيل ، وفيه الطرفا وهي أروع أشجار جزيرة الحجاز وأبدعها ، وفيه شوك السعدان ، وفيه الحنظل وثمره كجوزة الهند ، وفيه الرتم الذي يشبه لونه الفستق البديع ، وفي إدامة النظر إليه جلاء القلب وصفاء الذهن ، مناظر لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن ينعتها ناعت .

وأما إبل الصحراء في هذا الوادي فإنها ملونة مُنوَّعة ، هذا أبيض خالص البياض ، وذاك يضرب بياضه إلى حمرة ، وثالث لونه لون التراب ، ورابع كدرته شديدة ، وخامس مجرد كيوم ولدته أمه ، وسادس يقطر وراءه عدداً من زملائه ، وتاسع يمشي وحده ويمنع رفده ، وعاشر له رغاء[1] . وكل واحد من هذه الأنواع يدعوك لتعجب من هذا الخلق الباهر والحيوان العاجز القادر .

---

(١) الرغاء وزن غُراب صوت البعير (المصباح) .

﴿ أَفَلا يَنْظُرونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟

سُئِلَ الحسن عن هذه الآية وقيل له : الفيل أعظم في الأعجوبة فقال : أما الفيل فإن العرب بعيدة العهد به ، ثم هو لا خير فيه لأنه لا يُركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يُحْلبُ دره ، والإبل أعز مال العرب وأنفسه . تأكل النوى والقت[1] وغيره ، وتخرج اللبن ، ومن منافع الإبل أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء ، ومنها أنها فُضلت على سائر الحيوان بأشياء ؛ وذلك أن كل حيوان يُقتنى لخاصة فيه فإما للزينة أو للركوب أو للحمل أو لأجل اللحم ، ولا توجد جميع هذه الخصائص مجتمعة إلا في الإبل فإنها زينة ، وتُركب فيُقطع عليها المفازات البعيدة ، وتحمل الثقيل ، وتحلب الكثير ، ويأكل من لحمها الجمُّ الغفير ، ومنها أنها يُحمل عليها وهي باركة ثم تنهض بحملها بخلاف سائر الحيوان ، ومنها أنها ترعى في كل نبات الصحراء مما لا يرعاه غيرها من الحيوان ، وهي سفن البر ؛ تُقطع عليها المفاوز البعيدة . اهـ خازن .

وفي الكشاف : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ ﴾ نَظْرَ اعْتِبَار ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً عجيباً دالاً على تقدير مقدر شاهداً بتدبير مدبر ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال ، وجرها إلى البلاد الشاحطة ، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز[2] ضعيفاً ، ولا تمانع صغيراً ، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار[3] . وبسبب الرمل كان الخف للجمل ، والخف قدم تفرطحت فيها العظام ، ولبست

---

(١) القت : المفصفصة إذا يبست (المصباح) .

(٢) لا تعاز : أي لا تغالب .

(٣) الأوقار جمع وِقر بالكسر وهو الحمل الثقيل أو أعم (القاموس) .

قفازاً عريضاً من لحم طري باطنه يلين للرمل الذي يخطو عليه ، وظاهره متماسك للحجارة والشوك .

يأكل الجمل من عشب الصحراء مايحبه إذا وجد العشب الطري ، ويختار من النبت الخشن وذا الشوك إذا لم يجد إلا الخشن ، شفة الجمل العليا مشطورة في الوسط فكأنها شفتان بها يمسك الجمل طعامه ، وبها يتحسس النبت الخشن فكأنها أصبعان . ومن تصاميم الخلق - مواءمة بين الحيوان وبيئته - أن حمل الجمل على ظهره سناماً من عضل وشحم ، وهذا السنام يزداد شحماً على الغذاء عندما يكثر ويطيب ؛ فإذا خرج الجمل إلى سفر وعزّه الغذاء أو كاد ينذره الجوع بالفناء ، وجد فيما حمله من شحم في سنامه غذاء يطول به العيش أياماً ، ومن زاد الصحراء الماء ولعله أول زاد ، وفي جسم الجمل من الاحتياط مايحفظ عليه الماء . من ذلك : أنه لا يعرق أو لا يكاد ، والجمل يشرب نحواً من ستين لتراً من الماء ؛ لذا يستطيع البقاء بلا ماء مابين ستة أيام أو عشرة . خفّه المفرطح يمنع قوائمه أن تغرز في الرمل ، وطول هذه القوائم القوية يمنعها أن تصطدم بما يعترضها في الصحراء من أرض قليلة الاستواء . وعلو الجمل منع الإنسان من الصعود إلى ظهره فوجب عليه أن يهبط ، وهو يبرك عندما يؤمر .

ومن أروع مازوّده الله عزّ وجل به هذه الكتلة الشحمية الجلدية التي يرقد عليها مُتَّكأ في صدره ، وأربعة مثلها على كل ركبة من ركبه الأربع ، تعينه في الرقاد وعند القيام .

في عيني الجمل رموش ثقيلة ، وأذناه كثيرتا الشعر ، وأنف الجمل شقان ضيقان يسهل إغلاقهما عند الحاجة ، وهذه كلها لتمنع الرمال من الدخول إلى أجهزة الجمل الداخلية ، وفي هذا الأنف جهاز تبريد كامل كما ذكر العلماء مؤخراً . وشكله الهرمي يساعد على تخفيف وطأة الشمس .

وعن بعض الحكماء أنه حدّث عن البعير ، وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا إبل فيه ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صَبّرها على احتمال العطش ، حتى أن إظماءها لترتفع إلى العشر ، وجعلها ترعى كل نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم . وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شُريحاً القاضي ، فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد الكناسة قلت : وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت .

هذا هو الجمل الحيوان الصبور شديد الاحتمال لما في الصحراء من مشقة وأهوال وشُح ، ومن هنا كانت تسميته الرائعة سفينة الصحراء ، فسبحان المبدع الخلاق .

محطة بواطة ثم محطة حضيرة

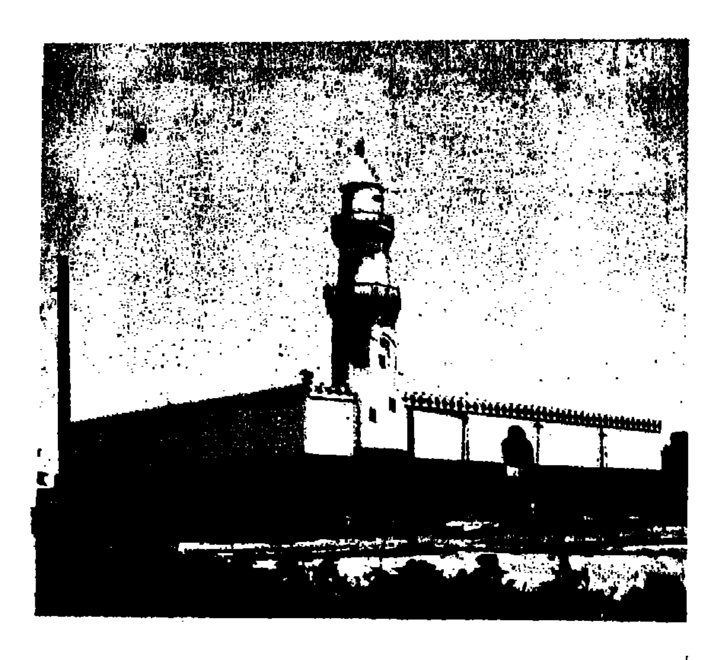
لم يكن بعد وادي الفستق غير مشقات التعب ، فقد علونا ثم هبطنا ، علونا شرفاً ، وهبطنا وادياً ، ثم علونا تلة ، وهبطنا وهدة ، ونازلنا فوق هذا (شوك السعدان)[1] ، واستحب استقبالنا والسلام علينا ، ولولا أن الله تعالى أكرمنا بسحابة أضعفت قوة الشمس لاحترقت قلوب ، والتهبت أفئدة .

وصلنا محطة حضيرة وهي في الكيلو /١٢٧٣/ ، ورأينا قبلها محطة بواطة وتقع في الكيلو /١٢٥٢/ قوية البناء متينة كمحطة النعيم ، إلا أنه لا ماء فيها . وهذه المحطات المتتالية الأخيرة متشابهة البنيان متماثلة الهندسة : أبو النعم - فمحطة عنتر - فمحطة آبار نصيف - ومحطة بواطة - ومحطة حضيرة . من يراها كأنه رأى محطة واحدة لا محطات متعددة ، وما كادت تسير بنا السيارة قليلاً حتى شعرنا بتغير حالنا فأمعنّا النظر فرأينا الجبال ضاحكة مستبشرة : رأينا منها الأحمر القانئ الخالص الحمرة ، ورأينا منها الأبيض اليقق الخالص البياض ، ورأينا

---

(١) السعدان : نبت من أفضل مراعي الإبل وله شوك تشبه به حلمة الثدي (القاموس) .

الأكدر[1] الذي يضرب إلى الحمرة ، وإن كنا قد رأينا من قبل مثل هذا في أثناء الطريق ، ولكننا والله لم نَرَ من الجبال التي رأينا هذا الضحك ولا هذا الاستبشار ، ولم نر هذه البشاشة ولا بداعة الاستقبال . وجعلت سيارتنا تخب بنا الأرض كمشتاق أضناه الوصول إلى مشوقه[2] . وكل ما رأيناه من الألوان في الجبال رأينا مثله في السحاب الذي ملأ السماء ، ورأينا مثله في حصا الأرض وحجارتها ، فسبحان من أنعم وتفضل وأعطى وتكرم .



مسجد قُبَاء

---

(١) الأكدر : الكدر ضد الصفو وبابه طرِب وسَهُل والأكدر الذي في لونه كدرة (المختار) .

(٢) شاقه الشيء من باب قال فهو شائق وذاك مشوق . والشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء (المختار) .

الفصل الخامس

الوفد في أعتاب الرسول ﷺ

خمسة عشر يوماً في رحاب الرسول ﷺ

الابتهاج بالوصول إلى المدينة

هَبَّتْ علينا نفحاتُ المدينةِ المشرَّفة ، وعلى حينِ غفلة منا داهمنا شرطيو المدينة يطلبون جوازاتنا ، ويرغبون في فحص أمتعتنا ، وكان المطر يتتابع بسخاء وكرم ويَسّاقط على الأرض مدراراً ، ثم سرنا إلى دار آل عثمان والأرواح ترفرف اشتياقاً ، والنفوس تضطرب ابتهاجاً ، والقلوب تمتلئ أفراحاً ، والصدور تزداد انشراحاً شكراً لله تعالى على هذه المنة الكبرى والنعمة العظمى والأملِ المنشود ، والهدف المقصود ، ونحن نهزجُ :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

يوم الثلاثاء ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ / ٧ أيار ١٩٤٠ م

أول يوم في المدينة المنورة

كان أول أعمالِنا في هذا اليوم الوضوء في دار الْمَضيف[1] . وبالرغم من أننا

---

(١) الْمَضيفَ بفتح الميم وكسرِ الضادِ من ضافَهَ إذا نَزَلَ عندَهُ فالفاعِلُ ضائف واسم المفعول مَضيف . أصله مضيوف ومضاف كباع فهو بائع وذاك مباع ومَبيع . ويقال أضفته بالألف إذا أنزلته عندك ضيفاً فالفاعل منه مُضيف بضم الميم وكسر الضاد ، أصله مُضْيِفٌ واسم المفعول مضاف أصله مُضْيَف .

كنا بحاجةٍ إلى راحة طويلة بعد هذا العناء الطويل ؛ لكننا كنا في حاجة أشد وشوق أقوى للوصول إلى الحرم النبوي الشريف لأننا واثقون بأن السلام على السيد الأعظم سيجلو كل صدأ ويمحو كل تعب ، ومضينا كأنما على رؤوسنا الطير حتى دخلنا من باب السلام : قلوب تخف وأرواح ترف وألسنة تلهف بالصلاة والسلام على خير الأنام والمبعوث رحمة للعالمين . كل الذي أعرفه أنني كنت أردد أمام المقام الشريف هذه الصلوات الحارة وأقول : الصلاة والسلام عليك ياسيدي يارسول الله . الصلاة والسلام عليك ياسيدي ياحبيب الله ، الصلاة والسلام عليك ياخير خلق الله . أشهد أنك قد أديت الأمانة ، وبلّغت الرسالة ، ونصحت للأمة . اللهم فاجزه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء . السلام عليك ياسيدي أبا بكر ، السلام عليك ياسيدي عمر ، السلام عليكم ياآل رسول الله وأصحابه أجمعين .

وكانت الدموع التي غسلت وجنتي ، وبللت لحيتي لاتستوعبها يداي فاستعنت بمنديل رقيق وشعرت بيد أحد رفاق الرحلة تربت على كتفي وظهري ، وأنا في شبه غيبوبة وصوت يقول : شيخ محمود ، ياشيخ محمود ، هيا بنا إلى الروضة الشريفة حيث القوم بانتظارك . وتراجعت بخطوات هادئة إلى الوراء مسمر الجوارح ، مشدود الفؤاد ، لا يكاد لحظي يفارق شباك هذا المقام ، ولا تكاد عيناي ترفان . كنت أتمنى أن تكون هذه اللحظات نهاية الحياة كلها وأن يكون هذا آخر منظر تشاهده عيناي ، وآخر صوت تسمعه أذناي ، وآخر مايحس به قلبي وتدركه مشاعري ويطمئن إليه وجداني . الصلاة والسلام عليك يانبي الإسلام والمسلمين . الصلاة والسلام عليك مادامت السماوات والأرض . الصلاة والسلام عليك إلى يوم الدين .

وقفنا أمام القبلة في الروضة خاشعين لنصلي ركعتي تحية المسجد ، ونرتل بعض آيات الكتاب الحكيم . ثم لزمت الجدار قريباً من الحجرة الشريفة مرة قائماً

ومرة قاعداً . ومن عجيب ما وقع لي أن الأستاذ الشيخ صالحاً الفضيل بلغه مجيئي فسعى للسلام علي ، ولما رآني أقبل بكليته مسلماً علي فلم أعرفه ولم أحفل به ، ولما اجتمعت به بعد ذلك وأسرعت بالسلام عليه عاتبني فاعتذرت له بأني لم أعلم به ، ولم أشعر بإقباله إلي ولا بسلامه علي .

أتممت الزيارة وعدت إلى الروضة الشريفة فقرأت سورة هود ، وصليت في وقت الضحى ركعتين . ثم طفت المسجد الشريف مع بعض الرفاق متذكراً ما يمكن تذكره من مثل (باب سيدنا جبريل) و (الصُفة) و (خوخة سيدنا أبي بكر) و (سارية سيدنا أبي لبابة) وأخيراً أعدت الزيارة ثانية .

ومضينا لإرسال البرقيات إلى جرائد دمشق ، كما أبرقنا إلى جلالة الملك وإلى أمير العُلا وغيرهم ممن يجب الإبراق إليهم .

الحرم النبوي الشريف في زمنه ﷺ

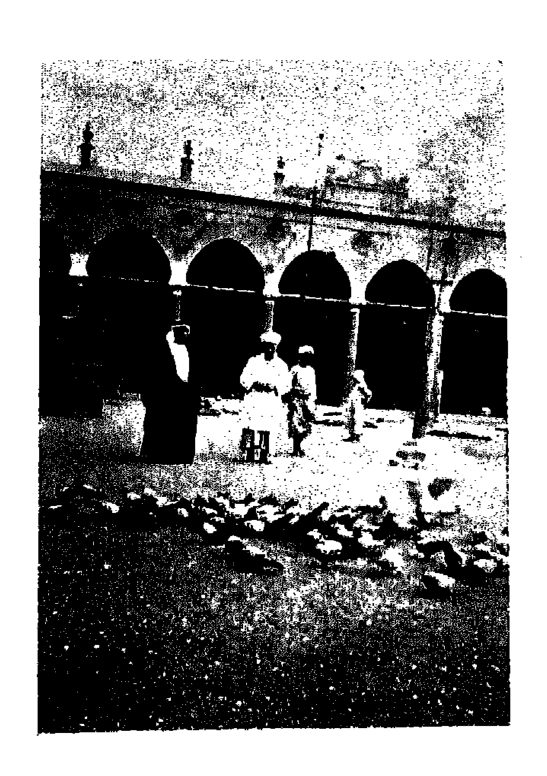
أمر النبي ﷺ ببناء مسجده هذا مقدمه إلى المدينة ، فأرسل كما في البخاري من حديث أنس رضي الله عنه (الزبيدي : ٥٦/١) إلى ملأ من بني النجار فقال : « يابني النجار ! ثامنوني[١] بحائطكم هذا » ، قالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى .

قال أنس فكان فيه ما أقول لكم : قبور المشركين وفيه خِرَبٌ وفيه نخل ، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنُبشت ، ثم بالخِرب فَسُوِّيت ، وبالنخل فقُطع ، فصفوا النخلة قبلة المسجد وجعلوا عضادَتَيْه الحجارة ، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ، والنبي ﷺ معهم وهو يقول :

اللَّهُمَّ لاخَيْرَ إلاَّ خَيْرُ الآخِرَه فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَه

---

(١) ثامنه في السلعة : ساومه في ثمنها (الوسيط) .



الحرم النبوي الشريف قبل التوسعة



سوق المدينة المنورة قبل العمران وتوسعة الحرمين

وفي حديث أبي سعيد الْخُدري رضي الله عنه ـ زبيدي ٥٨/١ : عند البخاري أتي على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لَبِنتين لَبِنتين ، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب ويقول : « ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . الحديث .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : ـ كما في البخاري أيضاً ـ زبيدي ٥٨/١ إن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن وسقفه بالجريد ، وعُمُده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر رضي الله عنه شيئاً ، وزاد فيه عمر رضي الله عنه وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عُمُده خشباً ، ثم غَيَّره عثمان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقِصة (الجص) ، وجعل عُمُده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج (ضرب من الشجر ـ مختار) .

بيوت أزواجه ﷺ

الظاهر أن بيوت زوجاته ﷺ كانت في الجهة الشرقية الجنوبية من المسجد الشريف ، وكانت على غاية من البساطة والبعد عن الزخارف ، وكان بيت سيدتنا عائشة منها موضع قبره الكريم ، وقد ورد عن مالك رضي الله عنه (قُسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر وقسم كانت تكون فيه عائشة ، وبينهما حائط . وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلاً (سافراً ـ كذا) فلما دفن عمر رضي الله عنه لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها .

وكان بيت سيدتنا حفصة قريباً أو ملاصقاً لبيت سيدتنا عائشة ، وكانتا تتهاديان الكلام وهما في منزليهما من قرب مابينهما .

قيل كان محيط هذه البيوت مبنياً باللبن ، وقواطعها الداخلة من الجريد

المكسو بالطين والمسوح التي تشبه مسوح الصوفية ، فكانت لا تتعدى الحال الضروري للحياة .

قال عطاء الخراساني : « أدركت حجر أزواج النبي ﷺ فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يأمر بإدخالها في المسجد فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناس من المدينة ، ويقدم قادم من الآفاق ؛ فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها » .

قال صاحب (الرحلة الحجازية) عقب كلام سعيد بن المسيب : « ومع هذا فإنك إذا أمعنت النظر في هيئة المكان الذي اتُخذ لبيوت أزواجه ﷺ على بساطته وفكرت في وضعه الصحي ، وكيف كانت منافذه مُنقية للهواء وأبوابه داعية إلى السهولة في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة إلى المقصد مما شُرع فيه الآن في العمارات الكمالية ؛ عرفت ما كان عليه رسول الله ﷺ من القناعة والرضا والزهد وحسن الذوق . وهو الذي كان يأتيه جبريل عليه السلام فيقول : أمرني ربي أن أجعل لك جبال مكة ذهباً ، فيقول : « لئن أبتلى بالفقر فأصبر أحب إلي من أن أبتلى بالغنى فأشكر » . و « كان يضع الحجر على بطنه الشريف من الجوع الليالي ذوات العدد » .

ومن تأمل في ذلك رأى فيه خير درس للناس يتعلمون منه كال وضع الأمور في مواضعها من غير زيادة ولا نقص عن الضروري من الحاجات ، وهنالك يرى الغني في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله ، فتتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة في أفئدتهم ، فيصبح الكل بين مُحِب ومحبوب ، وحامد ومحمود ، وشاكر ومشكور . وهنالك تزول عوامل الحسد ، وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتّحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل

كلها لحياته ووجوده ، وإذن يكونون قد قاموا بالواجب الذي أُمروا به وهو خدمة الإنسانية » . اهـ .

الحرم النبوي الشريف الآن

الحرم النبوي واقع في وسَط المدينة المنوّرة يميل إلى الشرق ، وترتفع المدينة المنورة عن سطح البحر بنحو /٦١٢/ متراً ودرجة حرارتها في الصيف تصعد إلى /٢٨/ درجة سانتي غراد ، وتنزل في الشتاء إلى /١٠/ درجات فوق الصفر نهاراً ، وإلى خمسة تحت الصفر ليلاً . وكثيراً ما يُرى فيها الماء متجمداً في آنيته عند الصباح في زمن الشتاء . وهي مبنية في وسط وادٍ شاسع يمتد إلى الجنوب ، وأغلب مبانيها من الحجر المجلوب إليها من المحاجر القريبة منها ، ومنازلها أصغر من منازل مكة ، وشوارعها أضيق ، وأحسن شارع فيها يقع في غرب الحرم ويسمى بحارة الساحة ، وأغلب حاراتها يسمونها لضيقها أزقة ، منها في شمال الحرم زقاق الخياطين وزقاق الجبس ، وفي جنوبه زقاق الكبريت وزقاق القمّاشين ، وأسواقها كثيرة . ومدار تجارتها على وارداتها الخارجية لاسيا واردات جاوة والهند والشام وعلى الخصوص في الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية ، والسُّبَح والليف والحناء والسجاجيد والبسط .

وتجارة البلح فيها من أكبر التجارات لأنّ ضواحيها كثيرة البساتين ، وفيها نخل كثير يُنتج نحو سبعين صِنْفاً من التمر .

ويتبع المدينة أقضية كثيرة منها قضاء الوجه ، وينبع ، والكور ، وتيماء ، ودومة الجندل ، والفرع ، وذو الرمة ، ووادي القرى ، وقرى عرينة ، والسيالة ، والرهط ، وكحل ، ومدين ، وفدك ، وخيبر .

والحرم النبوي في وسطها إلى الشرق على هيئة مستطيل : طوله من الشمال إلى الجنوب نحو مئة وستة عشر متراً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ـ من جهة

القبلة ـ نحو ستة وثمانين متراً ، ومن جهة الباب الشامي نحو ستة وستين متراً ، وينقسم في وضعه إلى قسمين : المسجد والصحن . يبتدئ المسجد من الحائط القبلي إلى الصحن من جهة ، وفي طول مابين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى ـ وهذا القسم جميعه مغطىً بقباب ترتكز على أقواس قامت على عُمُدٍ من الصَوّان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب .

والقسم الثاني وهو الصحن ، ويسمونه الحصوة شكله مستطيل إلى الباب الشامي ، ويحيط به من جهاته الثلاث أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواساً رُفعت عليها قِباب تناطح السحاب .

المقصورة الشريفة

المقصورة الشريفة واقعة في الجهة الشرقية من الحرم ، تحيط بالحجرة المطهرة التي فيها القبر النبوي المعطر ، وهي من نحاس .

أعمدة الحرم الشريف

يبلغ عدد أعمدة الحرم الشريف ثلاث مئة وسبعة وعشرين عموداً بما التصق منها بحيطانه ، منها اثنان وعشرون داخل المقصورة الشريفة .

وفي مدخل الباب الشامي المدرسة المجيدية ، وقريب منه محل الأغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف ، وفيه ميضأتهم وأمكنة راحتهم ، وإلى جواره مخزن الزيت المخصص سابقاً لتنوير الحرم .

وفي الرواق الشرقي من الأروقة التي في الصحن مكان على طول الرواق مستور بشبكة خشبية خاص بالنساء ؛ فيه صلاتهن وعبادتهن مدة إقامتهن في الحرم الشريف .

الحجرة الشريفة

في داخل المقصورة النبوية ـ الحجرة الشريفة ـ وهي المكان الذي توفي به

رسول الله ﷺ في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة /١١/ هـ ودُفن فيه ﷺ ، وفي ٢٢ جمادى الآخرة سنة /١٣/ هـ دفن إلى جانبه من جهة الشمال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه قِبل رأسه إلى قدمي الرسول ﷺ ، ولما طعن عمر رضي الله عنه استأذن من سيدتنا عائشة أن يُدفن مع صاحبيه فأذنت له ، فلما مات يوم الأربعاء /٢٧/ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة دفن إلى جوارهما قِبل رأسه ، محاذياً لمنكبي أبي بكر رضي الله عنهما .

وقد أقيم على هذه القبور الثلاثة بناء على شكل ذي خمسة أضلاع ، ارتفاعه أكثر من ستة أمتار ، وأول من عمل هذا البناء سيدنا عمر بن عبد العزيز في عمارته للمسجد ، ونزل بأساسه إلى غور بعيد ، وجعله على الشكل المُزْوَرّ المتقدم ، قيل : لئلا يكون مثل الكعبة في تربيعها ، فيتخذه بعض الناس قبلةً لهم .

وفي الحجرة الشريفة مكان يسع قبراً ، قيل إن سيدنا عيسى سيُدفن فيه بعد نزوله من السماء في آخر الزمان .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة : لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن متّ دفنت مع رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما ، فقال : والله لَئِن يعذبَني الله عز وجل بكل عذابٍ إلا النار أحب إلي من أن يعلم أني أرى نفسي لذلك أهلاً .

فانظر إلى أدبه رضي الله عنه وتنسكه مع ما كان فيه من التقوى والورع والعبادة والعلم والزهد والخوف من الله تعالى ، ومع ما أوتيه من سعة الملك الذي حلّق على أطراف المعمورة رضي الله عنه وأرضاه .

البناء الذي أحاط بالحجرة الشريفة

وفي سنة /٥٥٧/ هـ أمر نور الدين زنكي الذي كان مشتغلاً بمحاربة الصليبيين بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر نزل بأساسه إلى منابع الماء ، ثم صب

الرصاص على دائرة حتى صار لا يمكن أن تتناوله يد الزمان .

وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يحيط بها حجب مكتوب فيها قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب ٤٠/٣٣] وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي ﷺ .

ويحيط بهذا الستر - على ارتفاع مترين ونصف تقريباً - حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتمتراً ، مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر . وهذه الكسوة كانت تُرسل من الدولة العثمانية عند تولية كل ملك من ملوكها .

أول من كسا الحجرة الشريفة

أول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هارون الرشيد عندما قدمت في حجها لزيارة النبي ﷺ ، وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين .

وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية طريق سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، وكان في زاوية هذه الطريق من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف قيل أهداه إلى الحجرة الشريفة الحجاج ، ويقال إنه من المصاحف الستة التي كتبها سيدنا عثمان بن عفان .

الذخائر التي في المقصورة الشريفة

كانت سماء هذه الطريق التي قلنا إنها بين بناء المقصورة والشبكة النحاسية مملوءة من الثريات الذهبية والفضية ، وكان في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف كثير من المشاكي الذهبية منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ومعلقة بسلاسل النُضار ، وكان مجموع مصابيح الحجرة الشريفة مئة مصباح وستة .

الكوكب الدري

وكان في مقابل الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلنتي في حجم بيضة الحمام يحيط به إطار من الذهب المرصّع ، ويقدرون ثمنه بثمان مئة ألف جنيه ، ويسمونه بالكوكب الدري لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه ، وهو مثبت في لوحة من الذهب ، ورُصِّع محيطه بمئتي وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة .

وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأول أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وقد عُلِّق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر . وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدري ، أهداه إليها السلطان مراد الرابع سنة سبع وأربعين وألف للهجرة .

وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلنط (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أهدته إليها صاحبة السمو والعصمة (عادلة سلطان) بنت السلطان محمود سنة إحدى وتسعين ومئتين وألف هجرية .

وفي الحجرة الشريفة نفائس غير هذا كثيرة لا تقدر بثمن ، منها قطعة كبيرة على مثال الْكُردان ، مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة . وكانت موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي وفي جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم لا يماثله شيء في عظمته وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال . ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين أهداهما السلطان عبد المجيد خان سنة أربع وسبعين ومئتين وألف ، وشمعدانان آخران أهداهما السلطان محمود ، وفيها مصاحف مجوهرة ، ومراوح من اللؤلؤ مرصَّعَة بالأحجار الكريمة ومباخر مرصعة وكثير من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة التي لم تكن مشغولة وغير ذلك من الأساور والأقراط .

تطاول الأشرار إلى ذخائر الحجرة الشريفة

كما أن كثيراً من الملوك والكبراء كانوا يُهدون الحجرة الشريفة نفـائس الجواهر الكريمة ، والذخائر الثمينة . كان الأشرار يتطاولون إلى نهبهـا والاستيلاء عليهـا ، فقد قدّر السمهودي ما نهبه حجـاز بن هبـة في سنـة /٨٢١/ من الـذخـائر بعشرين قنطاراً من الذهب .

الهدايا إلى الحرم الشريف

عـلاوة على مـاقـدمنـا من هـدايـا الملـوك والأمراء تلـك التحف الثمينـة التي وصفنا ، فقد أهدى جملة منهم للحرم الشريف جملة هدايا لم تزل باقيـة على اسمهم إلى يومنا هذا .

فقد أهدى خديوي مصر سنة /١٢٢٨/ هـ شمعداناً كبيراً من الـذهب الخـالص وشمعـدانين من الفضـة مكتـوب عليهـا (العبـد المـذنب محمد علي والي مصر سنـة ١٢٢٨ هـ) . وأهداه عباس باشا الأول شمعدانـات من الفضـة وثريتين (نجفتين) من الفضة ذات عشرات من الشموع معلقة في المحراب العثمـاني وغير ذلـك الكثير . وأمر السلطان عبـد المجيـد عنـدمـا تمت عمـارة الحرم الشريف أن يُوشى بـالنقوش والزخارف التي تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام إلى الشرق سورة ﴿ إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً ﴾ بـالخـط الثُّلث المجوف . وفي السطر الذي تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ، كما كتب في محيط قباب المسجـد قصيـدة البردة ، وفي الـزوايـا التي ترتكـز عليهـا هـذه القبـاب أسماء الله تعـالى وأسماء رسوله ﷺ وبعض صحابته ، وحسبك أن ذلك أثر الخطـاط الشهير المرحوم عبـد بك زهدي الذي أوفده السلطـان عبـد المجيـد لهـذه الغـايـة ، فمكث يعمل بضعاً وعشر سنين بما آتاه الله تعالى من إحكام صنعة ونبوغ في هذه المهنة .

ولسعيد باشا خديوي مصر وبعض كريمات الأسرة الخديويـة هـدايـا أخرى

للحرم الشريف ، وآخر ماأهدي خزائن ثمينة جداً أهدتها والدة الجناب العالي الخديوي لتحفظ فيها الآثار الكريمة .

أقول : حبذا لو نظم أمر قبول هذه الهدايا إلى الحرم الشريف ، وأقيم لها مزاد سنوي علني تباع فيه بأثمان مضاعفة تُصرف بواسطة لجنة من علماء المسلمين في شتى بقاع الأرض على مشاريع صناعية وزراعية ينتفع بريعها كثير من فقراء المسلمين !!

القبة الشريفة

في سنة ثمان وسبعين وست مئة أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك ، وفي سنة ست وثمانين وثمان مئة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقته جميعه بحال مريعة لم تكن تبقي على شيء في طريقها ، إلا أنها مع هذا لم تمس الحجرة الشريفة في شيء . وبلغ هذا الخبر السلطان قايتباي ملك مصر فأمر بأن ينقل إلى المدينة المنورة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المكي : ومازالوا يشتغلون بهمة فائقة في الحرم المدني حتى أتموه على أحسن حال ، وبَنوا الحجرة الشريفة على الفخامة والجلال اللذين تراهما عليها الآن ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة أخرى أعلى منها .

وفي سنة /١٢٣٣/ هـ بنى السلطان محمود العثماني القبة الشريفة ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر سنة /١٢٥٥/ هـ ومن ثم سميت بالقبة الخضراء .

الروضة الشريفة

الروضة الشريفة في غرب المقصورة ، وهي مسافة ما بين القبر الشريف والمنبر ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة[1] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) أخرجاه في الصحيحين ، وفي الزبيدي ٨٣/١ في باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة « مابين بيتي ومنبري ... » إلخ .

« ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » والمعنى أنها من الجنة حقيقة[1] ، أو أنها تُنقل إلى الجنة ، وليست كسائر الأرض تفنى وتذهب . ومعنى قوله : « منبري على حوصي » أي أن الله تعالى يعيده على حاله فينصبه على حوضه . والروضة الشريفة تبلغ اثنين وعشرين متراً طولاً في نحو خمسة عشر عرضاً ، ويفصل الروضة عن زيادتي سيدنا عمر وسيدنا عثمان اللتين في جنوبها (دربزين)[2] من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر .

المنبر الشريف

في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه[3] ، وقد سئل من أي شيء المنبر فقال : « ما بقي بالناس أعلم مني ، هو من أثل[4] الغابة عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ﷺ ، وقام عليه رسول الله ﷺ حين عُمل ووضِع » . الحديث .

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه[5] قال : « كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه » .

وفي الرحلة الحجازية ص ٢٤١ كان منبر رسول الله ﷺ من ثلاث درجات فأضاف إليه سيدنا معاوية درجتين ثم أُحرق في حريق المسجد الأول عام /٦٥٤/ ، وما بقي منه وضع في صندوق ودفن في جوار الجذع ، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر بيبرس ، ثم غيّره الملك

---

(١) قاله ابن حجر نقلاً عن الإمام مالك وغيره راجع حاشيته على الإيضاح ص ٦٦

(٢) دربزين : حاجز من حديد ونحوه .

(٣) أخرجه البخاري راجع الزبيدي ٣٩/١ في أوائل كتاب الصلاة .

(٤) الأثل : شجر كالطَّرفاء لا شوك له يعمل من خشبه القصاع . والغابة : موضع قرب المدينة من العوالي .

(٥) أخرجه البخاري . راجع الزبيدي في كتاب الجمعة ٧١/١

المؤيد بآخر أُحرق في الحريق الثاني سنة /٨٨٦/ وعمل بدلاً منه الملك قاتيباي منبراً نُقل بعد إلى مسجد قباء ، ولا يزال به إلى الآن بعد أن استبدلوا به المنبر الحالي وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية من الجمال وحسن الصناعة ، أُرسل هدية من السلطان مراد الثالث سنة /٩٩٨/ هـ .

أبواب المسجد ومنائره

للحرم الشريف خمسة أبواب : باب السلام وباب الرحمة في الغرب ، والباب المجيدي في الشمال ، وباب النساء وباب جبريل (أو باب البقيع) في الشرق ، ومنائره خمسة : المنارة الرئيسية ، المنارة السليمانية ، المنارة الشكلية ، منارة باب الرحمة ، منارة باب السلام .

خوخة سيدنا أبي بكر

تقدم أن في الحرم الشريف حجرات زوجاته ﷺ ومساكنهن رضوان الله عليهن ، ودور بعض الصحابة الكرام ، وأن ذلك كان فيما يظهر في الجهة الجنوبية وبعض الشرقية من الحرم . وكانت دار سيدنا أبي أيوب الأنصاري ودار سيدنا عثمان قريبتين من الحرم الشريف ، وكانت منازل آل عمر رضي الله عنه إلى جنوب المسجد الشريف . ويوجد إلى الآن بستان ملاصق للحرم في اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جُعل حرماً له ، وبه باب في خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر) .

وكان بجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله ﷺ ، ثم دار مروان بن الحكم وكانت على يمين الداخل من باب السلام .

وكان في غرب المسجد دار أبي بكر رضي الله عنه ، وإلى جوارها شمالاً مما يلي باب الرحمة دار عبد الرحمن بن عوف .

وكان لهذه الدور خوخات وفتحات على المسجد فأمر رسول الله ﷺ بسدها

غير خوخة أبي بكر رضي الله عنه . ولا يزال في جوار المسجد شمال باب السلام باب صغير يمثل هذه الخوخة ، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها بخط جميل (خوخة أبي بكر) ، أو كلمة تؤدي هذا المعنى . وفي صحيح البخاري[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سُدوا عني كل خوخة غير خوخة أبي بكر » .

وفي حديث أبي سعيد الخدري قال : قال ﷺ : « لا يبقين في المسجد باب إلا سُد إلا باب أبي بكر » .

الصُفّة

وفي جنوب رواق النساء سدة يجلس عليها الأغوات ، وهي مصطبة مسطحها نحو اثني عشر متراً طولاً في ثمانية أمتار عَرْضاً وارتفاعها نحو أربعين سنتيمتراً ، يقال إنها كانت في عهده ﷺ مكاناً لأهل الصُفة وهم قوم من أصحاب رسول الله ﷺ قطعوا أنفسهم للعبادة والجهاد في سبيل الله ، وقد جاء في صحيح البخاري (زبيدي ٢٠٧/٢) مالفظه : « وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتت هدية أرسل إليهم وأصاب منها ، وأشركهم فيها » . اهـ .

وتجاه سدة الأغوات من الجنوب سدة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال ، يفصل بين السدتين طريق إلى باب جبريل شرقاً ، وعلى يمين الداخل منه سدة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، وإلى جوارها مخزن خاص بالمقصورة الشريفة .

تحسّن حالة المسجد النبوي

كنتُ في ذي الحجة عام /١٣٥٦/ تشرفت بزيارة المسجد النبوي الشريف فكان يحز في قلبي هذا الإهمال الكبير لأعظم مسجد نبوي في الإسلام ، وليس

(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه . الزبيدي ٦١/١

المقصود الزخرفة ، وإنما تعظيم الحرم بما يوافق الشرع الشريف من قَمِّه وتنظيفه وفرشه بالفرش الذي يزيد في قدره ويرفع شأنه ، سائلاً الله تعالى أن يهيئ من بيده الأمر إلى الاهتمام بهذا الحرم الشريف والاستفادة من معانيه التي منها اتصال الحاضر بالماضي ، ولما مَنّ الله علي في هذه السنة بزيارة هذا الحرم المنيف رأيت ولله المنة ماأذهب حزني فقد أسرعت الحكومة المصرية الفاروقية إلى فرش أرض الحرم بالرخام الأبيض ، ثم إلى فرشه بالسجاد النفيس ، وكتبت على كل سجادة بعد وضع رقم متسلسل لها لفظ (المملكة المصرية) ، فكانت بذلك أسبق حكومات الإسلام إلى هذه الخدمة الجليلة .

ستائر الحجرة الشريفة

ومما رأيته من تحسين حالة الحرم الشريف الستائر التي على الحجرة النبوية الشريفة فقد كانت أثناء زيارتي الأولى مهلهلة ممزقة ؛ فإذا بها اليوم جديدة لامعة حيث تقدم بعض أغنياء الهند فوضعوا لها هذه الستائر اللائقة فجزاهم الله خيراً .

تنظيف الحرم الشريف

أصبح في الحرم الشريف طوائف من العمال لِقَمِّ المسجد وتنظيفه فناس منهم للقم ، وناس للغسل ، وناس للمسح ، وناس لتنظيف القناديل ، وقد كثر الماء فعلى كل باب من أبوابه الخمسة باب السلام وباب الرحمة وباب سيدنا جبريل وباب النساء والباب المجيدي مواضع للوضوء ، يسهل منها تناول الماء .

ماء الشرب في الحرم

أما ماء الشرب فهو في المسجد لا ينقطع ولله الحمد ، وبها أباريق صغيرة ، وآنية كتب عليها اسم الواقف .

ماء المدينة المنورة

ماء المدينة المنورة الذي عليه مدار سقياها من العين الزرقاء التي توجد

غربي مسجد قباء ، وماؤها عذب لذيذ ، وسميت بالزرقاء نسبة إلى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر سيدنا معاوية عندما كان عاملاً له على المدينة (وكان يسمى الأزرق لزرقة عينيه) ، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين إلى هذا الزمان . ويمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين في قباء أيضاً يسمونها عين النبي ، وماء العين الزرقاء يسير إلى المدينة في قناة مبنية بناء متيناً قد تفرّع من هذا المجرى فروع كثيرة في جهات المدينة ، وَبُني لها خزانات تنزل عن سطح الأرض بنحو عشرة أمتار يملأ منها السقاؤون الماء ، ويوزعونه على مساكن المدينة المنورة ، وقد ينزل بعض الناس بواسطة سلالم من حجر إلى هذا المجرى فيملؤون من حنفيات مثبتة فيه ، لهذا كانت مياه هذه العين نظيفة وبعيدة عن التلوث لا يجاريها في ذلك ماء بلدة من بلاد الحجاز كمكة ومنى وجدة وينبع .

عناية أمراء المسلمين بهذه العين الحلوة

كانت هذه العين المباركة محل عناية أمراء المسلمين وحكامهم ، يقومون بترميم ماتهدم من بنائها . وفي أوائل الحكم العثماني للحجاز تهدمت ولبث أهل المدينة زمناً طويلاً يعانون آلام الضيق والشدة حتى عمرها السلطان سليمان سنة /٩٣٢/ . ثم جرفها السيل سنة /٩٩٠/ فأمر بتعميرها السلطان مراد ، واشترى بئر الغربال وألحقها بها .

وفي سنة /١١١١/ هـ اشترى السلطان مصطفى بئر العقد ، وألحقت بها أيضاً وفي سنة /١٢١٢/ هـ بناها السلطان سليم . ولما حاصر الوهابيون المدينة خربت ، فأصلحها محمد علي باشا خديوي مصر ، ثم جددها السلطان عبد الحميد فصارت عظيمة الفائدة كبيرة المنفعة ، جزاهم الله خير الجزاء (بتصرف عن الرحلة الحجازية ص ٢٥٧) .

الأضواء في الحرم الشريف

الأضواء مبثوثة في جميع أنحاء المسجد :

١ ـ أمام شباك النبي ﷺ .
٢ ـ في الروضة الشريفة .
٣ ـ في الرملة المعروفة .
٤ ـ في الرواق المحدث من باب الرحمة .
٥ ـ في المحل الخاص بالنساء .
٦ ـ في المحل المختص بالأغوات .
٧ ـ في الزيارة المحدثة من جهة القبلة وخلف المقام .

بماذا يمتاز المسجد النبوي الشريف عن مساجدنا

الميزة الأولى والكبرى : اجتماع الناس على إمام واحد : وللصلاة عندهم موعد معين معلوم ، لهذا يُهرع الناس لحضور صلاة الجماعة أفواجاً أفواجاً عند دخول الوقت ، فإذا تخلف متخلف صلى إلى جدار أو سارية بصورة تكاد تكون خفية ، وفي مساجدنا لا يجتمع الناس على إمام واحد بل تقوم الجماعة الأولى ثم تتلوها الجماعة الثانية وجماعة ثالثة ، وهكذا إلى أن يخرج وقت الصلاة .

ثانياً : الأذان والإقامة : وطول الفصل بينهما ، من غير أن يتخلل ذلك ذكر أو غيره ، فمن العادات المستحسنة أن المؤذنين يؤذنون في جميع المآذن فرادى ، فلا يجتمعون كما يجتمعون عندنا في بعض مساجد دمشق فيؤذنون الأذان المعروف بـ (أذان الجوق) . ولا يزيد المؤذن على آخر الأذان شيئاً . حتى بلغت الزيادة عندنا أنه إذا أذن المؤذن مع غيره زاد صلاة على النبي ﷺ يرفع بها صوته بنغم مخصوص يتغير بتغير أيام الأسبوع ، حتى ليعلم بعض المتذوقين للأنغام اسم اليوم من نغمة الأذان ، وحين يفتتحون إقامة الصلاة يقرؤون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرات جهراً ، ويختمون ذلك بطلب قراءة الفاتحة من الناس مرة سراً ، ثم

يقيمون الصلاة ، وكل هذا لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه لا من طريق صحيح ولا من طريق ضعيف .

ثالثاً : الإمام في مسجد المدينة المنورة : ميزة هذا الإمام أنه يصلي بالناس في أول الوقت فلا يتأخر ولا يتقدم ولا يتخلف ولا يُرسل وكيلاً عنه ، يتمسك في صلاته بالسنة المطهرة ، فيطيل القراءة ، ويطيل الركوع ، ويطيل الاطمئنان الذي بعده ، ويطيل السجود والفصل بين السجدتين ، ويرفع يديه في تكبيرات الانتقال ، ويخفف القعود الأول ، ويسكت قبل القراءة وبعد انتهائه من الفاتحة ، وإذا انتهى من صلاته استقبل الناس بوجهه ، وهذا كما لا يخفى مما جاءت به السنة الصحيحة . أما في الشام فقلما تجد إماماً يطيل الركوع والاطمئنان ، ويسكت قبل القراءة وبعدها ، ويتبع السنة التي جاء بها رسول الله ﷺ .

وإذا سلم الإمام لم يقم الناس مسرعين إلى أسواقهم وبيوتهم ، بل ظلوا يسبحون ويحمدون ويكبرون ثم يقومون إلى صلاة السنة فيما عدا صلاة العصر . وإذا انصرفوا ينصرفون إلى حضور الدروس وإلى الاشتغال بالعبادة وما إليها ، والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل .

المزايا التي اختص بها المسجد النبوي الشريف

في الصحيحين حديث : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه » وفي رواية : « صلاة في المسجد الحرام مئة ألف صلاة وصلاة في مسجدي ألف صلاة وفي بيت المقدس خمس مئة صلاة » . ولهذا في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

ومن ميزات المسجد النبوي الشريف هذه الزيارة التي تملأ القلب سروراً ونوراً ، ومنها أيضاً الاعتكاف في الروضة ، ويُرجى لمن جلس في الروضة مؤمناً راجياً فضل الله وإحسانه ، [وهي روضة من رياض الجنة] ، ألا يحرمه الله دخول الجنة في الآخرة بعد أن مَنَّ عليه بالمكث بها في الدنيا .

ومنها أن من صلى في هذا المسجد الشريف أربعين صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب ، وكان بريئاً من النفاق (كما في حديث أحمد) اهـ .

عبد الله السديري نائب أمير المدينة

شرحنا للأمير اهتمام جلالة الملك بهذا الوفد وتسهيل الطريق له وتوالي برقيات جلالته بالسؤال عنه وإعفائه من الرسوم حثاً له على أن يحذو في معاملة الوفد هذا الحذو الكريم ، ثم زرنا السيد عبد الله بن جعفر في البلدية ورئيس البلدية ، وأخيراً مضينا لزيارة الأستاذ الشيخ محمد بن تركي نائب قاضي القضاة في الحكومة السعودية . وحدثنا أنه زار مصر والشام وأنه استمع معنا ذات مرة درس أستاذنا السيد محمد بن جعفر الكتاني بمحلة العمارة بدمشق ، وأنه اجتمع بالمرحوم الشيخ بدر الدين الحسني ، وحضر درس المرحوم الشيخ أمين سويد في صالحية دمشق .

ثم دار بنا الكلام حول السؤال المشهور (ما هو السبب في تأخر المسلمين ؟ هل هو أمراؤهم أو علماؤهم ؟ فقال ما خلاصته : لا شك أن الأمراء هم السبب في ذلك لأنهم يحبون من العلماء من يجاملهم ولا ينكر عليهم ، أما من لم يدافع عن أغراضهم منهم فربما أوصلوا أذاهم إليه فنَحَّوْه ونفوْه ، وهم لا يحبون وقوع مثل هذا الخلاف بينهم وبين العلماء ، ولهذا يقرّبون من لا ينكرون عليهم أعمالهم ممن هم في زي العلماء من المنافقين والدجالين ، وعلى هذا فالعالم المتشبع في دينه وعلومه لا يقدر على مقاومة الأمراء الذين بيدهم القوة والمال والوظائف والتقديم والتأخير ، ويذهب إنكاره عبثاً ، ولا يجد من يؤيده من العامة أو الخاصة ، بل

لا يجد المعاضد من العلماء أنفسهم ، لذلك ينبغي للعلماء أن يتناصروا ويتعاونوا على البر والتقوى ، ولا برَ أبرُّ من كلمة حق عند سلطان جائر .

وأن يدعو العالم إلى سبيل الله كما أمره الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل ١٢٥/١٦] فأتى بالحكمة مطلقة ؛ لأنها إن تحقق وجودها لا تحتاج إلى قيد فهي وافية بالمقصود ، ولما ذكر الموعظة قيدها بالحسنة لأنها إذا لم تكن حسنة لا تفيد بل قد تحدث أضراراً ، ولما ذكر المجادلة قيدها أيضاً بالتي هي أحسن ، لأن المجادلة يجب أن تكون بالتي هي أحسن ، وإلا آلت إلى المخاصمة فالمشاكسة فالعداء .

الخلاصة

قال : والخلاصة أن العلماء المنكرين بقلوبهم مقصرون سواء اعتزلوا الناس أو خالطوهم ، والعلماء الذين لا يُنكرون المنكر مذنبون وآثمون ، أما الذين يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر فقد ذكرهم الله تعالى في كتابه وذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ثم قال لنبيه ﷺ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾ [الأنعام ٩٠/٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيْهِم أَلفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت ١٤/٢٩] وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥/٤٦] فعلمنا بهذا أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يقتدي بالأنبياء ، فيصبر ولا ييأس ، وأن تكون طريقته الحكمة والموعظة الحسنة .

زيارتنا الأستاذ الشيخ صالح التونسي الفضيل

زرنا السيد الأستاذ الشيخ صالحاً الفضيل وعنده جماعة من وفد الزيارة ، قد طال مجلسنا معه في داره ، وقد حدثنا كيف هاجر إلى المدينة ، وكيف تيسرت أسباب هجرته إليها بطرق لا عمل له فيها ، وكان موضع عناية كل من رآه ومر به حتى إن جلالة الملك عبد العزيز سمح له بالاجتماع معه منفرداً .

السيد الخضر حسين نزيل مصر

وقال عن صديقنا الأستاذ السيد الخضر صاحب مجلة الهداية الإسلامية التي تصدر في مصر : إنه رفيقه في الطلب طلب العلم ، غير أن الشيخ صالحاً غلب عليه الاشتغال بفن الحديث والفقه والتفسير ، واشتغل السيد الخضر بالأدب والكتابة والإنشاء ، وهو إذا كتب لا يبارى ولا يجارى .

يوم الخميس ٢ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ (البقيع)

صلاة الفجر في الحرم الشريف مع الإمام الأول ، ثم الذكر وتلاوة القرآن كالمعتاد ، ثم إلى زيارة البقيع . يقال له : بقيع الغرقد لكثرة هذا النوع من الشجر فيه قديماً ، وهو تربة أهل المدينة ، وقد دفن فيه من الصحابة والأئمة والتابعين وتابعيهم ، ومن العلماء والصلحاء ما لا يحصيه عد ولا يحيط به حدّ .

ويرى مزوِّرنا أن على يسار الداخل من باب البقيع حديقة مهجورة يقول إن فيها قبور عمات رسول الله ﷺ ، والمعروف عند أهل العلم أن عمات رسول الله ﷺ ست : أم حكيم ، عاتكة ، برة ، أروى ، أميمة وهؤلاء الخمس أشقاء لسيدنا عبد الله والده ﷺ . وصفية وهي شقيقة سيدنا حمزة . ولم يَسلم من عماته ﷺ اللاتي أدركن البعثة من غير خلاف إلا سيدتنا صفية ، وهي أم سيدنا الزبير بن العوام ، أسلمت وهاجرت وماتت في خلافة سيدنا عمر . قيل : وأسلمت عاتكة التي هي صاحبة الرؤيا يوم بدر ، وقيل وأروى . قال بعضهم : والمشهور أن عاتكة لم تسلم . قاله في السيرة الحلبية . قال ابن حجر على إيضاح الإمام النووي ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ومشهد صفية رضي الله عنها مشهور أيضاً .

ويقول : على يمين الداخل قريباً من الباب مسجد أُبي بن كعب . ورأيت فوق باب هذا المكان حجرة مكتوب عليها أنه ﷺ صلى فيه غير مرة .

ويقول : وبعده على يمين الداخل أيضاً قبور أهل البيت : سيدنا العباس

وسيدتنا فاطمة الزهراء وأسيادنا زين العابدين ، وجعفر الصادق ، ومحمد الباقر ، والحسن المجتبى ، والذي في حاشية ابن حجر على إيضاح الإمام النووي ص ٢٦٧ و ٢٦٨ أن في البقيع مشهد الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وبجانبه قبر فاطمة رضي الله عنها على الأرجح . ومع الحسن في قبره ابن أخيه زين العابدين ومحمد الباقر بن زين العابدين ، وجعفر الصادق بن محمد الباقر .

وليس في هذا كما ترى ذكر لسيدنا العباس .

والذي نص عليه أهل العلم كما في ابن حجر أن مشهد سيدنا العباس في البقيع يقابل مشهد إسماعيل بن جعفر الصادق في جهة المغرب ، وفيه أيضاً أن مشهد سيدنا العباس معروف عند قبر سيدنا الحسن وعليهما قبة قديمة .

ويقول : في آخر البقيع قبر عثمان بن عفان ، وبعيداً عنه إلى اليمين قبر سيدنا أبي سعيد الخدري ، وقبر سيدتنا فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي ، وبعدهما قبر سيدتنا حليمة السعدية ، والذي عند ابن حجر أن قبر أمير المؤمنين عثمان في حسن كوكب وهو بستان ليس بالبقيع ، وإنما أدخله فيه بنو أمية ، ويقول : وقريب من باب البقيع قبر سيدنا إبراهيم ابن سيدنا رسول الله ﷺ وقبله إلى الباب قبر سيدنا مالك بن أنس صاحب المذهب ، وعنده قبر نافع شيخ القراء ، وقبلهما إلى الباب أيضاً قبر سيدنا عقيل بن أبي طالب ، مع أن ابن حجر يرى أن المشهد المنسوب لعقيل هو مشهد أبي سفيان بن الحارث ، وعقيل إنما توفي بالشام . اهـ .

وقبر عبد الله بن جعفر الطيار ويلاصقه قبور زوجات النبي ﷺ ، يستثنى منهن سيدتنا خديجة فقبرها بمكة وسيدتنا ميمونة قرب مكة ، وقبلها إلى الباب قبور بناته ﷺ : سيدتنا زينب وسيدتنا رقية وسيدتنا أم كلثوم ، والذي في حاشية ابن حجر أن سيدتنا رقية في البقيع في مشهد مع أخيها سيدنا إبراهيم ، وأما سيدتنا زينب ففي الاستيعاب أنها توفيت سنة ثمان من الهجرة في حياة

ﻳ لما خرجت من مكة إلى أبيها قبل أن تصل إلى المدينة ، وأما
ثوم فقد توفيت سنة تسع من الهجرة ، وظاهر كلام الاستيعاب
لك كان في المدينة .

يارتنا للشيخ محمد علي بن حسين أعظم الهندي

يخ محمد علي الهندي ، وأخبرنا أنه كان بدمشق مع والده وقد حضر
وحيد سنة ١٣٢٦ هـ على المرحوم الشيخ بدر الدين ، وكان القارئ
الشيخ تاج الدين الذي كان يقرأ على الشيخ محمد علي هذا اللغة
بتاز الشيخ محمد علي بثلاث :

ن اعتقاده بشرف المجاورة في المدينة .

اعتقاده بالمرحوم الشيخ بدر الدين فهو يرى أنه الوحيد في مشرق
ها .

ة الصدق على عباراته حينما يقص علينا بعض وقائعه مع المرحوم
ين ، كحكاية إرساله سبحة وسواكاً للمرحوم فؤاد باشا ، وعن زيارة
يخ في مدرسة دار الحديث بدمشق وجلوسه بأدب بين يديه .

زيارتنا للشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي

يخ الشلبي في مدرسته ، وقد استقبلنا أحسن استقبال ، ومما قاله
ب النبي ﷺ وتعظيمه مما يجب أن يستسهل في شأنه كل عنت
عراكم من المشقات (التي بلغنا شيء عنها) لا يذكر بالنسبة لما في
وائد معنوية ومادية ، وقد أثنى على ما تصدره جمعية الهداية
نشرات طالباً المزيد والاستمرار .

لا يرجع من زاره ﷺ خائباً

إن الله تعالى أرسل هذا الرسول العظيم رحمة للعالمين ، والعالمين اسم

عـام يشمل الملائكـة والأنبيـاء والصـالحين وجميـع من في السماوات
بينهما ، ففي هـذه الرتبـة إشـارة إلى أن الجميـع يستفيـدون منـه
رسالته . وأنشدنا لنفسه :

أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ أَنْتَ رَجَـــائِي وَشَفِيعِي إِلَيْـــكَ أَكْ
أأَرَى بَيْنَ أَكْرَمَيْن مُضَـــاعــاً وَمُهَـــانــاً حَـــاشَى

كراهيته الخلاف وخاصة بين العلماء

ومما لفت نظرنـا حضّـه على توثيق عُرا المحبـة ولا سيما بين العلـ
العـالِم كما يقـول زلّـة العـالَم ، فلـو كان لي عشرة تـلاميـذ ولفـلان
اختلفنا وافترقنا ، كان ذلك داعياً لوقوع العداوة والبغضـاء بين أحـ
وأهلي وأهلـه ، فينشـأ كل واحـد من هـؤلاء على البغض لأخيـه وتـ
فيه .

من يتولى الكافر

يقول : إن من يتولى الكافر على المسلم فهو كافر بـالإجمـاع ، لة
﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائـدة ٥/٥١] قـال : وكثيرو
بذهبه ووظائفه ؛ فكانوا عَوْناً له على المسلمين وعيوناً على عَوْراتهم .
إن الذي خرّب بلاد الحجاز على التحقيق هم الأشراف ، ومع هذا فلا
عليهم ، كالوالد يدعو لولده بالإصلاح إذا أساء .

الرسائل والبرقيات والكتب إلى بلاد الشام

ومن هذه الكتب الكتاب المرسل إلى أمير العَلا شكراً على معرو
باسم جمعية الهداية الإسلامية ..

سمو أمير العُلا المعظم . وصلنا المدينة المنورة شاكرين حسن وف
من الأمراء أميراً كمحمد بن هديان ، ولا في الْخُوَيّان خويّانـاً كخو

هديان ، ولا في الرجال رجالاً كرجال محمد بن هديان .

وأبرقنا لجلالة الملك ببعض مارأيناه من بركم وعطفكم ولا سيا ماقدّمه رجالكم الشجعان الأشاوس لمساعدة رجال الوفد كلهم ، مما اضطرنا إلى تخليد طيب عملكم وتأييد شكرنا وخالص امتناننا لكم ، أبقى الله ذكركم ، وأدام بركم وعطفكم .

الاجتماع بعد صلاة الجمعة بالشيخ محمد فوزي بن محمد شريف الباطومي أحد علماء الآستانة والمقيم في المدينة المنورة

وهو عالم تركي ، درّس بالحرم النبوي ، ثم مُنع من التدريس فيه . أهداني رسالته المسماة (النفحة المدنية) ذكر فيها بعض فوائد المدينة المنوّرة . أخذ عن كتاب (وفاء الوفاء) للسمهودي ، وتحقيق (النُصرة) للمراغي العثماني الملخص من (الدرة الثمينة في أخبار المدينة) لابن النجار الحافظ المشهور .

خاتم رسول الله ﷺ

كان في يده ﷺ ، وفي يد أبي بكر رضي الله عنه بعده ، ثم كان في يد عمر بعد أبي بكر ، فلما كان عثمان سقط منه في بئر أريس[1] ، فنُزح البئر فلم يوجد .

---

(١) قال ابن حجر على الإيضاح ص ٢٧١ أريس بوزن جَليس هي البئر التي توضأ ﷺ منها وجلس على وسط قُفها ، وكشف عن ساقيه ودلاّهما فيه ، ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه فاستأذن وجلس عن يمينه ﷺ ثم عمر وجلس عن يساره ﷺ ، ثم عثمان فوجد القف قد ملئ فجلس وجاههم من الشق الآخر . ذكره البخاري وذكر أيضاً أن خاتمه ﷺ الذي كان في يده ثم في يد أبي بكر رضي الله عنه ثم في يد عمر رضي الله عنه ثم في يد عثمان رضي الله عنه سقط من عثمان فيها فنزحها ثلاثة أيام فلم يجده . وفي مسلم : سقط من يُعَيْقيب بعد ست سنين من خلافته فكان مبدأ الفتنة . اهـ .

قال وطول قُفها الذي جلس النبي ﷺ عليه وصاحباه نحو ثلاثة أذرع . ورفعه ابن الزمن ثلاثة أذرع وهي عند مسجد قبا ينزل إليها بدرج متحددة . اهـ .

الأدب في المدينة

المدينة المنورة وجوارها كلها آثار ، لأن بعضها محل نزول القرآن . وبعضها مصلى النبي ﷺ ، وطرقها مسرى النبي ﷺ وموضع قدميه المباركتين ، كل البلاد افتُتحت بالسيف وافتُتحت المدينة بالقرآن : وأسند ابن أبي حثمة حديث : « من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به ، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً ولو قصرة » . قال ابن الأثير : القَصَر محركة أصل الشجر ولو نخلة واحدة . رواه الطبراني . قال عقبة : فليأتينَّ على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أصل كالخارج المجتاز إلى غيرها .

فضل الصلاة في مسجد المدينة

وفي ص ١٣ من ابن حجر على الإيضاح روى أحمد حديث « من صلى في مسجدي أربعين صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب ، وبرئ من النفاق » .

ما بين قبري ومنبري

وفيها من الصحيحين عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه : « ما بين بيتي[1] ومنبري روضة من رياض الجنة » . زاد البخاري من حديث أبي هريرة : « ومنبري على حوضي » .

فضل زيارته ﷺ

وفي ص ١٥ أخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما : « من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة » . صححه ابن السكن .

---

(١) في إيضاح الإمام النووي ص ٢٦٦ : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » . قال ابن حجر وفي رواية : « ما بين منبري وبيتي » ، وفي أخرى : « ما بين حجرتي ومنبري » . ولا اختلاف لأن قبره ﷺ في بيته . والبيت هو الحجرة . اهـ .

المسجد الذي أسس على التقوى

وفي ص ١٦ : كلا المسجدين : مسجد قباء والمسجد النبوي أسس على التقوى ، والمؤسس لهما هو النبي ﷺ ، وجبريل عليه السلام عَيّن قِبلتهما كما في تفسير البغوي . ويبعد مسجد قِباء عن المدينة خمسة كيلومترات ، وهو في الجنوب الغربي للمدينة ، وقد جَدَّد بناءه السلطان عبد الحميد الأول ، وبوسط صحنه قبة أقيمت كما قيل على مبرك ناقته ﷺ حين قدومه إليها في هجرته من مكة .

فضل الصلاة في مسجد قباء

وفيها أخرج الطبراني : « من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم دخل مسجد قِباء يركع فيه أربع ركعات كان ذلك عِدْلَ رقبة » اهـ .

قلت : وفي إيضاح النووي ص ٢٦٩ في الحديث الصحيح في كتاب الترمذي وغيره عن أسيد بن ظهير أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجد قباء كعمرة » . وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً فيصلي فيه ركعتين » ، وفي رواية صحيحة « كان يأتيه كل سبت » .

يوم السبت ٤ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١١ مايس ١٩٤٠ م

بعد صلاة الفجر مع الجماعة الأولى في الحرم الشريف جلسنا في الروضة كالمعتاد ، قريباً من مصلى سيدنا رسول الله ﷺ حتى صلينا الضحى ، ثم قمنا بزيارة أمير المدينة والتكية المصرية والعيادة المصرية ، ومحطة الخط الحجازي في جهة العنبرية .

السيد عبد الله بن أحمد الْجَكَنِيّ الشنقيطي المهاجر إلى المدينة المنورة ومعه رفيقه السيد أمين بن عثمان الْجَكَنِيّ الشنقيطي

هاجرا من بلادهما مشياً على الأقدام ، فمشيا سنة وشهرين حتى وصلا المدينة

المنورة ، واسم بلديها شنقيط الغربية شرقاً من بلاد السودان في إفريقيا ، ويقرب منها بلدة ذُكاء ومدينة أندر ، ويتصل بشنقيط غرباً الدار البيضاء وفاس ، وكانت منقسمة إلى ثلاثة أقسام : الأول قسم بني حسان وهم حكام البلاد لديهم المدافع والقوة ، والقوي منهم يقاتل الضعيف ويكون هو الغالب . والثاني : قسم الزوايا وهم يعيشون على رعي المواشي ، فيهم العلم والديانة ولهم المساجد والمدارس .

والقسم الثالث : قسم الزناك وهم يعيشون أيضاً من تربية مواشيهم ليس فيهم علم ولا ديانة . وفي سنة ١٣٢١ هـ خرج عليهم الفرنسيس من جهة السودان فاجتاح البلاد ، واستخدم بني حسان يتسلط بهم على الناس ، وفرض الضرائب ، ووضع المكوس ، وأخضع الناس والنفوس .

العلوم الشرعية ووسائلها عندهم

قال : أهل شنقيط ذوو أذهان حادة طيبة ، وحينما يفصح الولد عن الكلام يقرأ القرآن ويقرأ من النحو الأجرومية ثم الخلاصة . والأنثى تقرأ شيئاً قليلاً ثم تُعنى بتسمين جسمها وتكثير حليّها وأموالها . قال : لأن المرأة التي لا تكون كذلك غير مرغوب فيها عندنا .

قال : ويقرأ الولد من الفقه رسالة ابن عاشر ، ورسالة ابن أبي زيد ، وتحفة الأحكام لابن عاصم ، ويقرأ خليلاً وشروحه ـ الحطاب ، والخرشي ، والدسوقي ، وعبد الباقي ـ ولا يقرأ شيئاً من الحديث ، بل إذا أدرك قرأ لنفسه الموطأ والصحيحين وهما موجودان بكثرة ، وكذا شروحهما . وتوجد بقية الكتب الستة على قلة ، ويقرئ في النادر بعض الشيوخ بعض كتب المصطلح ، ويقرؤون من المصطلح البيقونية ، وكتاب (طلعة الأنوار) لسيدي عبد الله مؤلف كتاب (مراقي السعود) في الأصول .

قال : وتقل قراءتهم للتفسير ، وأكثر ما يشتغل المجدون منهم بالعربية والفقه ، ويقرؤون على الشيوخ كتب السيرة مثل عمود النسب ، وقرة الأبصار ، وهو نظم له شروح طيبة ، وعندهم السيرة الحلبية ، وسيرة ابن هشام وعندهم لابن الأثير كتاب في السيرة جدّ طيب .

ويقرؤون من كتب الأصول (جمع الجوامع) والشيوخ مولعون به .

ويقرؤون من كتب التوحيد (إضاءة الدُّجُنّة في اعتقاد أهل السنة) لأحمد المقري و (مورد الظمآن) وكثيراً غيرهما . ويقرؤون في اللغة النوادر لابن القالي والشعراء الستة امرأ القيس ، وعنترة ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم ، والنابغة ، وزهيراً ، ويحفظون أشعارهم عن ظهر قلب . ويقرؤون شعر غيلان وهو اسم ذي الرمة (القاموس) ومنهم من يقرأ على الشيوخ القاموس ، ولهم ولع في هذا الفن . ويقرؤون في البيان والمعاني والبديع ألفيّة السيوطي ، وأكثرهم يحفظ القرآن الكريم من رواية ورش وقالون وحفص . وأنشدني لنفسه :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَجْلَسَنِي	حَذْوَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى بِبَدَنِي
وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَامِ	أَسْنَى نُجُومِ النُّورِ فِي الظَّلَامِ
فَلَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ حَذْوَ النَّبِيِّ	أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ جَمِيعِ الذَّهَبِ
وَلَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الرَّوْضَةِ	أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ جَمِيعِ الْفِضَّةِ
وَوَقْفَةٌ عِنْدَ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ	أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ نِسَاءٍ خُرَّدِ

إلى آخر القصيدة

زيارتنا للتكية المصرية قرب باب العنبرية

التكية المصرية من أوقاف الخديوي المرحوم محمد علي باشا الكبير ، أوقفها لفقراء المدينة المنوّرة سنة ١٢٣٢ هـ ، وأوقف أعظم منها لمعاونة فقراء مكة .

أول مااستفتحنا من هذه التكية مسجد أَمَرَ بإنشائه الخديوي عباس يوم أدى

فريضة الحج سنة ١٣٣٠ هـ ، وقد استقبلنا ناظر التكية استقبالاً تذوقنا فيه طعم الأخوة الإسلامية العربية . ومما تعرفنا عليه في هذه التكية أن ميزانيتها تقدر بثلاثة آلاف جنيه مصري تصرف للأسر الفقيرة والمجاورين ، والباقي يصرف لما ينفع الحرم من سقي ماء ونحوه .

وقف البابي الحلبي

وهناك أوقاف لأناسٍ مخصوصين كوقف المرحوم السيد مصطفى البابي الحلبي ، ويقدّر في السنة بـ (٢٧٠) جنيهاً توزع على أربعين طالب علم .

العيادة لإسعاف المرضى

قال : ولدينا عيادة لإسعاف المرضى ، ثم طلب إلى موظف لديه أن يسير بنا لنطلع على تجهيزاتها ، فاستقبلنا فيها الطبيب الأول والطبيب الثاني ، وسارا دليلين لنا إلى بقية غرف المستشفى حتى الصيدلية ، واعترف أطباؤنا المرافقون بإتقان هذا المستشفى بما فيه من أماكن متعددة ومتنوعة . وهذا العمل من تكية وعيادة أسس مثله في مكة المكرمة بصورة أكبر وأوسع ؛ فجزى الله المحسنين خير الجزاء .

محطة السكة الحجازية

على مسافة من التكية في باب العنبرية محطة السكة الحديدية الحجازية ، وهي محطة عظيمة مبنية بحجارة سوداء متينة ، فيها عدة أماكن لمصلحة الخط ، ومسجد غاية في القوة والمتانة ، ومخفر للشرطة ، ومن طريقها تمشي السيارات إلى مكة .

الأحد ٥ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٢ مايس ١٩٤٠ م

صلينا الفجر ولله المنة في الروضة مع الإمام ، وطال مكثنا إلى أن صلينا الضحى ، ثم ذهبنا لزيارة أمير المدينة إجابة لطلبه ، وقد ورد من جلالة الملك

جواب برقيتنا يخاطب به أمير المدينة الذي طلبنا إلى داره وقرأ علينا نص الجواب ، وخلاصته توصية جلالة الملك لأمير المدينة بنا ، وأن جلالته يختار لنا ترك طريق حائل والسير في العودة إلى (خليفة) ثم نتياسر إلى (الشملي) فالمعْدا فنقرة الحِران فتيماء فالقريّات . وأن إذنه لنا بالسير من دمشق إلى المدينة المنورة لم يكن عن رضىً منه ؛ لأنه يعلم وعورة الطريق ولكنه كره أن يقف موقف المانع لنا من دخول الأراضي الحجازية . وأنه أوعز لأمير المدينة أن يرسل معنا دليلاً خبيراً يدلنا على الطريق الذي اختاره لنا .

الشيخ محمد علي المهاب الشنقيطي التركلي

هاجر إلى المدينة من شنقيط ، وله شعر جيد فمنه قوله :

أَضْنَتْ فُؤَادَكَ بَعْد نُسْكِكَ مَهْدَدُ ... وَالْعَظْمُ بَالٍ وَالْهَوَى يَتَجَدَّدُ
وَتَأَوَّدَتْ كَالْغُصْنِ أَخْضَلَهُ النَّدَى ... وَالْغُصْنُ أَيْضاً مِثْلَهَا يَتَأَوَّدُ

إلى أن يقول :

طَلَعْتَ بِبُرْجِكَ لِلْجَزِيرَةِ أَسْعُدٌ ... يَا ابْنَ السُّعُودِ وَأَنْتَ سَعْدٌ مُسْعِدُ
أَلْفَى العَدَالَةَ قَدْ تَبَدَّدَ شَمْلُهَا ... فَدَعَا فَلَبَّى شَمْلُهَا الْمُتَبَدِّدُ
فَتَرَى الضَّعِيفَ مُؤَمَّناً مَا يَخْتَشِي ... مِن بَعْدِ مَا كَانَ الشَّدِيْدُ يُجَرِّدُ
وَتَرَى لِتَوْحِيدِ الإِلَهِ عَقَائِداً ... تَأْبَى الشَّرِيكَ وَلِلإِلَهِ تُوَحِّدُ
وَتَرَى الْحُدُودَ مُقَامَةً بِجَمِيعِهَا ... وَتَرَى الْعُصَاةَ لَهُ تُقَادُ وَتُجْلَدُ

إلى أن يقول :

وَصَلاَةُ مَوْلاَنَا عَلَى الْمُخْتَارِ مَا ... أَضْنَتْ فُؤَادَكَ بَعْدَ نُسْكِكَ مَهْدَدُ

ولما علم جلالة الملك بهذه القصيدة ، أمر له بجائزة تأخر وصولها إليه ؛ فكتب إليه :

أَيَا صَاحِبَ الإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالأَمْنِ ... وَخَيْرَ مُلُوكِ الأَرْضِ فِي سَائِرِ الزَّمَنْ

لَقَدْ جَاءَ عِنْدِي الأَمْرُ مِنكُم بِمِنْحَةٍ فَلَمْ يُعْطَ لِي الْمَثْمُونُ مِنها وَلاَ الثَّمَنْ
وَأَمْرُكَ مَاضٍ لَيْسَ فِيْهِ مُضَارِعٌ وَأَجْزَمُ مِنْ مهما ولما وإن ومَنْ
لِذَا أَطْلُبُ الإِنْجَازَ مِنْكَ تَكَرُّماً أَيَا صَاحِبَ الإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالأَمْنْ

فأرسل إليه بمئة ريال ومشلحٍ وعمامة .

وأنشدنا أيضاً :

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَيَّ مَرِيرَةٌ فَمَا أَنَا حَيٌّ لاَ وَلاَ أَنَا مَيِّتٌ
وَمَيِّتَةٌ تُحْيِي ثُمَّ تُحْيِي وَهَكَذَا أَقَلُّ الَّذِي بِالصَّبِّ تَفْعَلُ مَيِّتَةٌ

وأنشدنا لوالدته :

إِذَا قُلْتُ مَا أَهْوَاهُ حَلَّتْ مَنِيَّتِي وَإِنْ قُلْتُ أَهْوَاهُ يَقُولُونَ ضَلَّتِ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْمَحَبَّةَ جُمْلَةً فَفِي وَجْهِ مَحْبُوبِي جَمِيْعُ الْمَحَبَّةِ

وأنشدنا لنفسه :

مِنْ حُبِّ عَزَّةَ هَاجَ السُّقْمُ وَالأَلَمُ وَالْحُبُّ ثَمْرَتُهُ الآلاَمُ وَالسَّقَمُ
مَا يَجْتَنِيهِ سِوَى صَبٌّ تَلَذُّ لَهُ نَارُ الْغَرَامِ عَلَى الأَحْشَاءِ تَضْطَرِمُ
وَهِتْلَرُ الْحُبُّ فِي الأَحْشَاءِ مَطْعَمُهُ وَانكلترا الصَّبْرُ بِالقُوَّاتِ يَعْتَصِمُ
وَموسوليني الأَسَى يُبْدِي سِيَاسَتَهُ فِيْهَا وَمُتَّحِدُ الأَشْوَاقِ يَنْتَظِمُ
وَأَسْعَدُ الوَصْلِ مَاتَبْدُو كَوَاكِبُهَا إِلاَّ بَدَا الْعَدْلُ وَالإِنْصَافُ وَالْكَرَمُ

وأنشدني لنفسه أبياتاً تُقرأ في الطول والعرض :

سبتني ،	فَتَاةٌ	وَهَذَا ،	حَرَام
فَتَاةٌ ،	يُبَاحُ	لَدَيْهَا ،	غَرَام
وَهَذَا ،	لَدَيْهَا	يُعَدُّ ،	مَدَام
حَرَامٌ ،	غَرَامٌ	مَدَامٌ ،	يُرَام

أي تقرأ سبتني فتـاة .. كالمعتـاد مرة ، ثم تقرأ من الأعلى إلى الأسفـل كلمـة كلمة .

وأنشدني لنفسـه كثيراً من القصـائـد والتشطير المتنوع الطريف والممتع ، مما يدل على ذوق وصفاء وأدب .

بشرى بشرنا بها الأستاذ المذكور

قال : في المدينة رجل مجاور وأظنه مغربي الأصل أخبرني أنه رأى ليلة مجيء وفد الزيارة أنه يقول للوفد : إن الله تعالى قـد تقبلكم ، والـدليل على ذلـك . من علامـة قبول الله تعـالى أهل عرفـة إنزال المطر عليهم ، وهـذا الوفـد حين وصولـه أنزل الله عليه المطر ، فلما رأيت ذلك سعيت إلى الوفد سـاعـة مشيـه إلى الزيـارة أرجو أن يتقبل الله مني به . فلما استيقظ إذا بالوفد قد جـاء ، وبـالفعل أنزل الله المطر حين مجيئه .

سابع أيامنا في المدينة المنورة

يوم الاثنين ٦ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٣ مايس ١٩٤٠ م

أنعم الله علينا في هذا اليوم فأكرمنا بقيام الليل في الروضة الشريفة نفسهـا ، وبعد صلاة الضحى سعينـا لزيـارة مكتبـة شيخ الإسلام عـارف حكمـة أفنـدي . تأسست هذه المكتبة عام ١٢٧٠ هـ ولا يقل عدد مـافيهـا من الكتب عن /٥٤٠٠/ كتاباً ، تقع بالقرب من باب سيدنـا جبريل عليـه السلام ، وهي في بنـاء حجري يقابلك عند الدخول من الباب إلى اليسار غرف أعدت لعمال المكتبة ، والمكتبة في بيت مربع مزخرف مفروش بالطنافس والأرائك . تصفحت من فهـارسهـا فهرس فن الحديث الشريف فرأيت ضرورة الاطلاع على الكتب الآتية ، وهذا نصهـا مع أرقامها :

(٢) أثر الجليل في بيان أحوال أحاديث الجامع الصغير .

(٤) رواتب مسلم وثلاثيات البخاري .
(٥) الأحاديث في تزويج السيدة فاطمة .
(٩) أربعون حديثاً بإسناد واحد .
(١٤) أبواب السعادة في أسباب الشهادة .
(١٥٤) إتحاف الرواة بمسلسل القضاة .
(١٨٩) أجوبة على حديث مامن أحد يسلم علي (للسيوطي) .
(٧٨) بيان خطأ من أخطأ على الشافعي للبيهقي .
(١٢٢) ثلاثيات الترمذي والدارمي وابن ماجه وعبد بن حميد .
(٩) أربعون باباً في الطب من الأحاديث الصحاح والحسان .
(١٠٨) شرح مسند أبي حنيفة لعلي القاري .
(١٦٦) مسند الفردوس للديلمي .
(٧٨) ماورد في حياة الأنبياء وبعد وفاتهم عليهم السلام للبيهقي .
(٢٤٠) تاريخ الإمام البخاري .
(٢٤٢) الأدب المفرد .
(٢٩) أسماء أهل الصفة .
(٧) أسماء الصحابة لابن منده .

وكثير غيرها مثبتة في الأصل .

المكاتب الباقية في المدينة المنورة

في المدينة المنورة غير مكتبة شيخ الإسلام مكاتب أخرى منها ، في باب السلام مكتبة للسلطان محمود ، مقدار الكتب التي فيها (٤٥٦٩) كتاباً أقل نظاماً وأصغر من مكتبة شيخ الإسلام . ومع الأسف أن دار هذه المكتبة آلت الآن للخراب ، وقد وضع مابقي من كتبها في غرفة من غرف هذه الدار .

ومنها مكتبة للسلطان عبد الحميد الأول فيها /١٦٥٩/ كتاباً ، ومكتبة تيسير

آغا في زقاق الخياطين بها ‎/١٢٦٣/‏ كتاباً ومكتبة في رباط عثمان حافلة بنفائس الكتب في مذهب مالك . ويقدر مجموع كتب هذه المكاتب بثلاثين ألف كتاب ، وفيها كثير من الكتب النادرة حبذا لو جمعتها الحكومة في دار واحدة ، وعُمل لها نظام مخصوص أسوة بسائر المكاتب العامة في بلدان العالم .

احتفال مدرسة النجاح برجال الوفد

أقامت مدرسة النجاح برئاسة مديرها عمر عادل احتفالاً كبيراً يوم الاثنين ٥ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ لوفد الزيارة ، استقبله الطلاب بنشيد مطلعه :

طَـــــــــــابَتِ النَّفْسُ سُرُوراً   بِلِقَـــــــا الْقَـــــوْمِ الكِرَامِ
مَرْحَبـــــــاً أَهْـــــلاً وَسَهْـــــلاً   مَعْشَرَ القَـــــوْمِ العِظَـــــــام

إلى آخر النشيد .

ثم قام التلميذ السيد عبد الوهاب فقيه بقراءة عشر من الكتاب العزيز ، ثم عَقَّبه[1] الأستاذ السيد علي الخجا بخطاب رحَّب فيه بالحاضرين ، وأسهب في الحديث عن تاريخ هذه البقاع المقدسة وعن أمل المسلمين في يقظة قريبة تقودها جمعياتهم الإسلامية ، كما تحدث عن الصلات القوية بين المدينة المنورة وبين دمشق حاضرة البلاد السورية منذ القدم ، وعن الخط الحديدي الحجازي بينهما وضرورات إعادة تسييره ليتم ازدهار هذه البقاع من بلاد المسلمين . ثم عقبه التلميذ السيد إبراهيم غلام فألقى قصيدة جاء فيها :

أَرَى مُسْتَقْبَـــــلَ الأَيَّـــــامِ أَوْلَى   بِمَطْمَـــعِ مَنْ يُحَـــــاوِلُ أَنْ يَسُـــودَا
فَمَـــا بَلَـــغَ المَقَـــاصِـــدَ غَيْرُ سَـــاعٍ   يُرَدِّدُ فِي غَـــدٍ نَظَراً جَـــدِيـــدَا

---

(١) عاقبه جاء بعقبه فهو معاقب وعقيب والتعقيب مثله (المختار) .

وفيها :

فَشَرُّ العَالَمِينَ ذَوُو خُمُولٍ إذَا فَاخَرْتَهُم ذَكَرُوا الْجُدُودَا

ثم قام تلاميذ المدرسة بنشيد موسيقي مطلعه :

كُلُّنَا فِي الْحَرْبِ جُنْدٌ تَحْتَ رَايَاتِ الْوَطَنْ . إلخ ....

ثم قام التلميذ السيد حامد الخجا فقدم كلمة طيبة ، وختم الحفلة التلميذ السيد علي رضا فقرأ عشراً من القرآن الكريم كان له وقع حسن في النفوس . ثم قام محرّر هذه الرحلة فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال مامعناه : إني عاجز عن شكركم إذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله سبحانه وتعالى ، غذيتم أرواحنا ، وآنستم غربتنا ، وكنتم إخواناً لنا وسبباً لتعارفنا ، دفعتكم إلى الاحتفاء بوفد الزيارة الذي قطع الفيافي وجاب الصحاري رغبة بالتشرف بزيارة الشفيع العظيم ، وسؤال الحق سبحانه وتعالى أن يغفر زلاتنا ويتقبل أعمالَنا ويعجل بالفرج عنا وعن جميع المسلمين ؛ فقد اشتد الأمر وعظم الكرب وضاق الخناق .

إن وفدنا تحمل المشاق والمتاعب لإحياء سنة التواصل بين هذين القطرين الحجازي والشامي ، فالشاميون إخوان الحجازيين لا غنى لهم عنهم ولا مندوحة لهم عن زيارة بلادهم مهبط الوحي ومنبع العرفان .

بقي لي كلمة أخرى أوجهها إلى حضرات المدعوين بأن أدعوكم لمساعدة هذا المعهد الكريم .

إن المعاهد الإسلامية تعلم أولادنا وتثقف أذهانهم فيجب أن نبذل الجهد في سبيل مساعدتها ، وألا ندخر وسعاً في تأييدها والنهوض بها ؛ أوَلا ترون أن المسيحيين يتسابقون إلى مساعدة مدارسهم ودور العلم عندهم وليس في ديانتهم حض كما في كتب شريعتنا .

زرت الكلية الأميركية في بيروت ، وحدثني مديرها أن الكلية في ضيق مالي اضطره إلى مغادرة بيروت والسفر إلى أمريكا لاستنهاض همم أناس هناك لمساعدة الكليـة ، فلم يبـق في صنـدوقهـا مـا يمكنـه من إدارة المـدرسـة . قلت : كم بقي في صندوق المدرسة ؟ أجابني : نصف مليون فقط !!

إنه مبلغ أظنكم لا تجهلون كثرتـه وأن بعض الـدويلات في ذلـك الوقت أشـد حاجة لمثل هذا المبلغ .

سافر الرجل إلى أمريكا ونزل عند بعض أصدقائه ، وقام هؤلاء بدعوة جماعـة من وجهـاء النصـارى هنـاك وذُكر لهم أمر المـدرسـة وفـاقتهـا ومـا وقعت بـه من ضنك ، فكفوه من أنفسهم أمر هذه الضائقة ، وعاد المدير إلى مدرستـه في بيروت مغتبطاً سعيداً ، مع أن وراء هذه المدرسة وأمثالها مـا وراءهـا من تبشير ومحـاربـة للإسلام .

هذا مثال من أمثلة تضامنهم ومساعدتهم لمدارسهم ، وأنـا أعرف بـأن الواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة لغيرهم ، لا أن يكون غيرهم قدوة لهم .

ثم أخذ القوم بالتبرع فعلاً ، وخرجوا مودّعين بأكثر مما استُقبلوا به من حفاوة وتعظيم واحترام .

ثامن أيامنا في المدينة المنورة

الثلاثاء ٧ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٤ مايس ١٩٤٠ م

أدّينا ولله الحمد صلاة الفجر بالروضة مع الإمام الأول ، ومكثنا نقرأ مـا تيسر لنا حتى صلينـا الضحى ، ثم رافقنـا الإخوان لزيـارة الشيخ ابن تركي ، وقـد كان هـذا الرجل يجـاهر في الحق لا تـأخـذه في ذلـك لومـة لائم . وقـد كان إنكاره على رئيس مجلس القضاة في مكة حينمـا ركل رجلاً في المسجـد ليجلس في مجلسـه سببـاً لإقالته من وظيفته . ثم أوذي ثانية حيث منع من التدريس ، وثالثة حيث وضع

تحت المراقبة ، ومع ذلك بقي صابراً ومصابراً لأنه يرى أن في عنقه ديناً لابد من إيفائه . ثم إنه يكرر القول بأن الحكام هم المؤاخذون والمسؤولون عن تأخر المسلمين وفشو الجهل فيهم ، وأضاف إلى ذلك قوله : نحن لانقصد حكومة معينة إذ لاغاية لنا في ذلك ، وإنما نتحدث عن حكام المسلمين بعامة .

وقد أنكر أشد الإنكار شرب الدخان وحلق الذقن والتصوير ولو غير مجسم ولو كان شمسياً وعلى ورقة . قال : وللحنابلة قول بجواز النصف ، ومع هذا فقد طُلب إليه أن يُصَوَّر فأبى ، وكل هذا مما يوافق مذاهبنا ، والله المستعان على ما يصفون .

الشيخ علي السمان

هو رجل شامي جاور في المدينة المنورة منذ عشر سنين ، واتخذ تعليم القرآن الكريم عملاً له فيها . كريم بغير تكلف ، محب لأهل العلم ولأهل الصلاح ، محب للنبي ﷺ ، دعانا لبستان من أبدع بساتين المدينة وأروعها ، فيه بركة قلما يوجد مثلها في دمشق الشام ، وأقام لذلك حفلة قرئ فيها المولد الشريف والأناشيد الحجازية والشامية في مدح خير البرية وهو يقول : قرّب الله بين قلوب هذين الشعبين . اهـ .

الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري الأيوبي اللكنوي ثم المَدَني

هو من العلماء المجاورين منذ سنين ، شهرته عظيمة وقد اعتزل الناس في المدة الأخيرة ، استقبلنا على تقدّم سنه أحسن استقبال ، وأكرمنا بشراب الشاي ، وذاكرَنا في بعض المسائل العلمية ، وفي مقدمتها سماع القرآن الكريم من الراديو والفونوغراف . ويقول : إن سماع القرآن الكريم عبادة ، والفونوغراف آلة لهو باطل . ولا تكاد تجتمع العبادة مع آلة اللهو . ولأن السماع من الفونوغراف معرض لتغليظ الصوت وتشويهه .

المقاهي في بلاد الشام

ى ما في سماع القرآن الكريم في المقاهي المشتملة في بلادنا الشامية على
ع القمار ، وعلى شرب الدخان ، وعلى رؤية النساء الغاديات
وعلى الغيبة والكذب مما يفضي به الجالس إلى جليسه في المقهى .

ن سماع القرآن الكريم يجب أن يكون فيه تعظيم وتوقير وخضوع
تنافى مع سماعه في الأماكن والكيفيات السابقة . ثم ذكر أن جده
كتاب (السلم) في المنطق وكتاب مسلم الثبوت في الأصول ، وهما
ران عند أهل العلم .

تآليف ورسائل في اللغة والنحو والصرف ، وإسناد صحاح الحديث
. وقد عظم احتفاؤه بنا وبرجال الوفد ، فأدب لنا مأدبة فاخرة
وة علمية منقطعة النظير .

تاسع أيامنا في المدينة المنورة

الأربعاء ٨ ربيع الثاني / ١٥ مايس ١٩٤٠ م

صلينا الفجر في الروضة الشريفة ، ثم جلسنا إلى وردنا حتى صلينا
جتمعنا بالشيخ آب ، وأصل اسمه محمد آب فغلب آب حتى صار
مو شنقيطي قرأ على الشيخ أحمد بدي . أنشدنا لبعض الشناقطة

ا يَسِّرْ لَنَا الأُمُورَا وَهَبْ لَنَا فِي أَوْبِهَا سُرُورَا
ا جَاهَةُ الْمَنْصُورَا تِجَارَةً لَدَيْكَ لَنْ تَبُورَا

ارتنا لسيدنا حمزة ، وشهداء أحد رضي الله عنهم في شمال المدينة المنورة

غرب في مسجد فُرش بالحصا ، وجُعل جنوبه كهيئة المحراب . وكل

الذي رأيناه فضاء أحيط بفضاء واسع وبساتين من نخيل قد زرعت أرة
الخضر ، وأحيط بعض جهات هذا الفضاء بجبال منها جبل (أُحـد) .
منه فسحة مرتفعة ظهر وسطها قبر سيدنـا حمزة عم سيـدنـا رسول الله
محاط بإطارٍ من حجارة سود ، والقبر على شكل سنـام الجمل رُصف بحج
وبُعيد القبر إلى الشمال عين ماء عذب برّاق يأخذ بـالأبصـار ويحـاذيه
منها ، ويسامتها شبه بناء قيل فيه قبور الشهداء . وقد حدث من زار
حمزة قبل تخريبه وتهديم ماحوله ، أن هذا المكان كان شبه بلدة قـائمـة
وبيوت لا يقل ساكنوها عن عشرين ألف نسمة ، ويتضاعف هذا العدد
سيدنا حمزة . والفقراء عنـد قبره كثيرون مُنوعون ، كلهم يمـدون أيـد
وقـد لفت نظري طفل في نحو العـاشرة من عمره يهزج بهـزج لطيف ك
شطرة رفع رفاقه أصواتهم بكلمة (مرحباً) فيقول مثلاً :

ياواد ياشامي	فيرددون (مرحباً)
حمص وزبيب	فيرددون (مرحباً)
زار الحبيب	فيرددون (مرحباً)
بلاده بعيده	فيرددون (مرحباً)
يوديه لبلاده	فيرددون (مرحباً)
وديه لعياله	فيرددون (مرحباً)
خلي له بيَّه	فيرددون (مرحباً)
يخلي له أهله	فيرددون (مرحباً)
يوديه لأحبابه	فيرددون (مرحباً)

ثم رجعنا أدراجنا إلى منزلنا ، فلله الحمد على ماتفضل وأنعم .

عاشر أيامنا في المدينة المنورة

الخميس ٩ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٦ مايس ١٩٤٠ م

دعوة الأستاذ الشيخ صالح التونسي لنا

استجبنا لدعوته بسبب عدم الكلفة ، وقد اشتملت على أناشيد في مدح النبي ﷺ ، ثم قراءة المولد الشريف ، والتمتع بسماع ما يحفظ من الحكم والأحكام والشواهد والأمثال ، والسرور بمجاهرته وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من ذلك قوله : كره مالك أن يعانق الرجل الرجل إذا قابله ، وأجاز ذلك سفيان . قال الشيخ : فاجتمعت ببعض أهل العلم فقلت له : أحب أن أسلم عليك على مذهب سفيان فقال : أنت مقبول على كل المذاهب .

وقال : جمعت في تأكيد أمر الاطمئنان في الصلاة عشرة أحاديث آخرها حديث الموطأ وهو قوله ﷺ : « ما تقولون في الشارب والسارق والزاني ؟ » (وذلك قبل أن تنزل فيها الحدود) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هي فواحش وفيهن عقوبة ، وأسوأ السرقة الذي يسرق من صلاته » . قالوا : كيف يسرق من صلاته يا رسول الله ؟ قال : « لا يُتم ركوعها ولا سجودها » . ويقول : « أبخل الناس من بخل بالسلام وأعجز الناس من عجز عن الدعاء ، وكفى بالمرء شُحّاً أن يقول : آخذ حقي كله لا أترك منه شيئاً ، وكفى به ذنباً أن يحدث كل ما سمع » .

ثم اجتمعنا ـ بعد صلاة العصر بالروضة مع الإمام الأول ـ بالشاعر محمد علي المهاب الشنقيطي فأنشدنا لأمه :

أَعِـــدْ نَظَراً وَلاَ تَحْكُم عَلَيْنَـــا ... أَخَـانَـا بِـالضَّـلاَلَـةِ بِـالْعُمُـومِ
فَـإِنَّ لَنَـا كَمَـا لَكُمْ نَصِيبـاً ... وَحَظّـاً فِي الْعُلُـومِ وَفِي الْفُهُـومِ
وَإِنَّ لَنَـا مُعَـارَضَـةً فَسَلْهَـا ... لِكَيْ تَـدْرِي السَّقِيمَ مِنَ السَّلِيمِ

وَإنَّ النَّصَّ مُحْتَـــــاجٌ لِفَهْمٍ صَحِيْـحٍ فَـــادَّكِرْ قَـــوْلَ الْحَكِيمِ
(وَكَمْ من عَـــائِبٍ قَـــوْلاً صَحِيحـــاً وَآفَتُـــــهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ)

ثم أنشدنا لنفسه :

فُـــؤَادي مِنْ لَهيبِ الْحُبِّ ذَابَـــا فَـذَاقَ الْحُبَّ فَـاسْتَحْلَى الْعَــذَابَـا
وَمَـــا صَـحَّ الْهَـوى إنْ صَـحَّ جِسْمٌ تَعَرَّضَ لِلْمَحَبَّـــةِ فَـــاسْتَجَـــابَـــا
فَـــأَمْطَـــارُ الغَرَامِ عَلَيَّ تَهْمِي وَنَـــارُ الشَّـوْقِ تَلْتَهِبُ التِهَـــابَـــا
وَلاَ أَخْشَى مِنَ النَّـــار اصْطِـــلاَءً وَلاَ أَبْغِي لِجَنَّـــاتٍ ذَهَـــابَـــا
وَلكني أُرِيـــــدُ (وَثَمَّ بُرْئِي مِنَ الأَوْجَـــاعِ وَالعِلَـــلِ) الرَّبَـــابَـــا
وَمـــا لاحَتْ لِـــذِي شَيْبٍ مُعَنَّى بِـــأَنْـــوَاعِ التُّقَى إلاَّ تَصَـــابَى

حادي عشر أيامنا في المدينة المنورة

الجمعة ١٠ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٧ مايس ١٩٤٠ م

مضينـا لـزيـارة جبـل أحـد ـ ثـانيـةً ـ المشرق الضـاحـك الـذي يحب رسول الله ﷺ ، ويحبه رسول الله ﷺ . وهو في شمال قبر سيـدنـا حمزة . يشكل بقسميه العظيمين الكبيرين زاوية بديعة استهوانا قربُها ، وأطمعنا ظلها بـالوصول إليها لنعيش ساعة نتذكر فيها جلسة رسول الله ﷺ ، وقد جلس عن يمينه سيدنا أبو بكر وعن يساره سيـدنـا عمر وإذ ذاك اضطرب الجبل فـأمره رسول الله ﷺ بـالسكـون قـائـلاً : « اسكن أُحُـد ، فليس عليـك إلا نبي وصـديـق وشهيـد » . فسكن .

غمرتنـا لـذة هـذا الحـوار كأنمـا الجبـل الصخر الأصم أضحى يحس ويـدرك ويضطرب ويسكن ، كأنما هذا الجبل أدرك أن هذا الرسول الكريم قـد أُعطي من كبير المعجزات مـا يجب أن تـذعن لـه القلـوب ، وتجتمع عليـه الأفئـدة ، وتطمئن لصدقه العقول والأفكار .

بعدت علينا الشقة ، فتجلدنا حتى وصلنا إلى الزاوية ، وتفيأنا ظل أحد الجبلين ونحن نتأمل أحد ، ونرجو مِمَّنْ مَنَّ علينا فجمعنا في هذا المكان أن يجمعنا في أعلى الجنان . ثم ذكرنا الأهل والأحباب فدعونا لهم ولمن يلوذ بهم . ولفت نظرنا عين ماء شمال قبر سيدنا حمزة ، وتسمى عين الوادي ولأهل المدينة المنورة آبار كثيرة يشربون منها ، منها بئر الأعواف ، وبئر أنس بن مالك ، وبئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفان ليشرب منها المسلمون في صدر الإسلام ، وبئر القويم ، وبئر العباسية ، وبئر صفية ، وبئر البويرة ، وبئر فاطمة ، وبئر عروة ، وبئر الخاتم في قباء ؛ وهي بئر أريس التي سبق الكلام عليها . وفي ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف غربي جبل سَلَع ، وعين الحيث ، وتجري من عوالي المدينة . وعين الوادي هذه بجوار قبر سيدنا حمزة ، وعين السلطان وهي مالحة ، وتجري من قباء إلى المدينة ثم إلى بساتين المدينة .

أهطع الرفاق إلى العوم في ماء عين الوادي الصافي السائغ العذب على شوق إلى الاستحمام وحاجة إليه ، فهذا يغسل رأسه ، وذاك يدلك بدنه ، وأنعم الله علينا بأن نبع الماء في غرفة خاصة ، وثمة غرفة أخرى يسير إليها ؛ فكان من السهل أن يخلو الإنسان بنفسه في واحدة منها فلله مزيد الحمد ومزيد الشكر . ودعانا الأستاذ الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي الأصل المدني الإقامة ودعا معنا رجالاً من الزوار كما هي عادته ، وكثرت الأناشيد في مدح النبي ﷺ ، فكانت ساعة أنس وبركة وسرور .

ثاني عشر أيامنا في المدينة المنورة

يوم السبت ١١ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٨ مايس ١٩٤٠ م

زرنا الشيخ عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي وقد كان كتب إلي يطلب الجمع بين حديثين متعارِضَيْن وهذا نص كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآله وسلم . أخرج أبو داود في سننه في كتاب السنة عن عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار قال : حدثنا أبي قال : سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عتبة عن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌ فقال : يارسول الله : جهدت الأنفس وضاعت العيال ، ونُكبت الأموال ، وهلكت الأنعام فاستسقِ الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله ﷺ : « ويحك أتدري ماتقول ؟ » وسَبَّح رسول الله ﷺ فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : « ويحك : إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ؛ شأن الله أعظم من ذلك . ويحك أتدري ماالله ؟ إن عرشه على سماواته هكذا » . وقال بأصابعه مثل القبة عليه . « وإنه ليئطُّ به أطيط الرحل بالراكب » . قال ابن بشار في حديثه : « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته » وساق الحديث . إلى أن قال : قال النووي في الأذكار وروينا في كتابي الترمذي وابن ماجه عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر جاء إلى النبي ﷺ فقال : ادعُ الله تعالى أن يعافيني . قال : « إن شئت دعوتُ ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك » . قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة . يا محمد : إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي : اللهم فشفعه فيَّ » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح[1] . اهـ . كلام النووي في الأذكار . وله شواهد تعضده ، منها ماأخرجه الترمذي في باب الدعاء أن النبي ﷺ كان يقول : « ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث » . ومعلوم أن الرحمة مخلوقة . رواه أبو هريرة وقد صحح سنده في

---

(١) عزاه ابن حجر الهيثمي في حاشيته على الإيضاح ص ٢٦٦ إلى النسائي والترمذي وصححه . ثم قال صححه البيهقي قال : وزاد « فأقام وقد أبصر » .

الصحيحين . ومنها حديث أصحاب الغار الذين توسلوا بأعمالهم ، ومنه استسقاء الصحابة بالنبي ﷺ ، ومنه استسقاء عمر بالعباس ، وحديث : « إذا طنت أذن أحدكم .. »[١] وحديث « إذا خدرت رجله ... »[٢] .

وحديث : « إذا فلتت دابة[٣] أحدكم فليقل : ياعباد الله احبسوا » ، وحديث : « حياتي خير لكم » . إلى آخر ذلك مما يطول ذكره .

لا تعارض بين الحديثين الشريفين

ثم اجتمعت بالحرم الشريف بالشيخ عبد الله الشنقيطي المذكور ، وأخبرته

---

(١) قلت في الأذكار ص ١٤٤ باب ما يقول إذا طنت أذنه : روينا في كتاب ابن السني عن أبي رافع رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل علي وليقل : ذكر الله بخير من ذكرني » .

(٢) في الأذكار ص ١٤٤ باب ما يقوله إذا خدرت رجله : روينا في كتاب ابن السني عن الهيثم بن حنش قال : كنا عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك فقال : يامحمد ﷺ ، فكأنما نشط من عقال . وروينا فيه عن مجاهد قال : خدرت رجل رجل عند ابن عباس فقال ابن عباس رضي الله عنهما : اذكر أحب الناس إليك فقال : يامحمد ﷺ . فذهب خدره . وروينا فيه عن إبراهيم بن المنذر الخزامي أحد شيوخ البخاري الذين روى عنهم في صحيحه قال : أهل المدينة يعجبون من حسن بيت أبي العتاهية :
وتخدر في بعض الأحايين رجله فإن لم يقل ياعتب لم يذهب الخدر

(٣) في الأذكار ص ١٠٦ (باب ما يقول إذا انفلتت دابته) روينا في كتاب ابن السني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : ياعباد الله احبسوا . ياعباد الله احبسوا . فإن لله عز وجل في الأرض حاصراً سيحبسه » .
قلت : حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم : إنه انفلتت له دابة أظنها بغلة ، وكان يعرف هذا الحديث فقاله فحبسها الله عليه في الحال ، وكنتُ أنا مرة مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها ، فقلت : ياعباد الله احبسوا (مرتين) فوقفت في الحال بغير سبب سوى هذا الكلام .

بأنه لاتعارض بين الحديثين المذكورين ؛ لأن الحديث الذي نقله الإمام النووي في الأذكار عن الترمذي وابن ماجه فيه أنه ﷺ عَلَّمه أن يستشفع به إلى ربه بمعنى أن المخلوق يكون شفيعاً لدى الخالق سبحانه الذي هو وحده مصدر الخَلق والإيجاد والنفع والضر ، وكذا الحال في حديث أصحاب النار ، وحديث الاستسقاء بالنبي ﷺ وبسيدنا العباس ، فكلها استغاثة واستشفاع بالمخلوق الذي لا يملك شيئاً إلى الخالق العظيم الذي يملك كل شيء وبأمره كل شيء .

والحديث الأول الذي أخرجه أبو داود محل الشاهد منه مؤلف من جملتين : الأولى أنا نستشفع بك على الله والثاني نستشفع بالله عليك ، فالأولى عبارة عن الاستشفاع ، وهذا جائز بالنبي ﷺ المخلوق المعظم إلى الله تعالى الخالق المطلق ، بمعنى أن مصدر الخلق ، ومصدر النفع والضر هو الله تعالى والنبي ﷺ المعظم المفضل شفيع لدى هذا الإله العظيم ، وهو معنى ما في حديث الأذكار : « اللهم فشفعه فيّ » وحديث الاستسقاء بالنبي ﷺ وبسيدنا العباس . وبأعمال وطاعات أصحاب الغار (الثلاثة حين انفرجت عنهم الصخرة التي سدت باب الغار فتقبل الله دعاءهم بذكر طاعاتهم) .

والثانية على عكس الأولى إذ هي استشفاع بالخالق الموجد لكل مخلوق لدى المخلوق الذي لا يملك من الأمر خلقاً ولا إيجاداً ولا موتاً ولا إحياء ، بمعنى أنه جعل النبي ﷺ مصدر الخلق والنفع والإحياء والإماتة ، وجعل الله تعالى شفيعاً لديه فقط ، وهذا لا شك عكس الواقع ، وهو مخالف لحقيقة الإسلام وعقيدة الإسلام .

ولذلك قال ﷺ لصاحب هذه المقالة : « ويحك أتدري ماتقول ؟! » .

ثم جعل النبي ﷺ يسبح الله تعالى ، أي ينزهه عمّا نعته به هذا الأعرابي وعاد أخيراً إلى تعليمه وإرشاده ، فقال له : « إنه لا يستشفع بالله على أحد من

خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك » ثم زاد على هذا قوله ﷺ له : « أتدري ما الله إن عرشه على سماواته ... » إلخ ... ومعناه أن الأعرابي لم يعرف الله تعالى بالصفات الواجبة المميزة له عن خلقه ، ولم يَدْرِ عظمة الله ولا جليل شأنه حيث جعله شفيعاً يتطلب الشفاعة من المخلوق الذي هو النبي ﷺ .

وبالجملة فإن النبي ﷺ أنكر على هذا الأعرابي مساواته الخالق بالمخلوق ، وجعلَه الخالق يتطلب الشفاعة من المخلوق ورده إلى الصواب ؛ وهو أن الله تعالى مصدر النفع والضر والإماتة والإحياء ، والنبي ﷺ شفيع لديه فقط . وإنه عليه الصلاة والسلام وجميع النبيين والمرسلين والملائكة المقربين وخيار عباد الله الصالحين بالنسبة لله تعالى : ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/٢٦ ـ ٢٩] .

وبذلك رجع الحديثان بشيء واحد ، واستبان أنه لا تعارض بينهما ، فما يدل عليه حديث الأعرابي هو عين ما يدل عليه حديث التعزير ، والله سبحانه وتعالى أعلم . ويستخلص مما سبق أنه يجوز :

أولاً : أن يتوجه الداعي في دعائه بالنبي ﷺ فيقول : (كما في حديث الترمذي وابن ماجه) : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد إلخ ..

ويجوز أن يقول كما في هذا الحديث أيضاً : (يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتُقضى) ، ويُسمّي حاجته .

ويجوز أن يقول : (اللهم شَفّع[1] فيَّ نبيّك محمداً ﷺ) . كما في الحديث .

---

(١) قال ابن حجر الهيثمي في حاشيته على الإيضاح ص ٢٦٦ : لا فرق بين ذكر التوسل والاستغاثة والتشفع والتوجه به ﷺ أو بغيره من الأنبياء ، وكذا الأولياء . ووفاقاً للسبكي وإن منعه ابن =

ويجوز أن يتوسل بالطاعات والأعمال الصالحة فيقول : (اللهم إني أتوسل بصلاتي أو حجي أو عملي الفلاني الصالح) . فقد توسل أصحاب الغار بأعمالهم الصالحة . وطاعات وأعمال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعظم وأفضل وأكمل من طاعاتنا وأعمالنا .

وكذلك يجوز أيضاً أن يستسقي بالنبي ﷺ وبالرجل الصالح ، فقد استسقى الصحابة بالنبي ﷺ ، واستسقى عمر بالعباس رضي الله عنهما ، ومعنى الاستسقاء بالنبي ﷺ طلب السُّقيا من الله تعالى به وبجاهه ، ومنزلته ، ووجاهته ، وحرمته ، ومقامه عند ربه سبحانه وتعالى . ولا شك أن (طلب الشفاء من الله تعالى) بالنبي ﷺ و (طلب الفرج) و (طلب توسيع الرزق) و (طلب إصلاح الولد) كطلب السقيا به عليه الصلاة والسلام ، وطلب الصحابة رضي الله عنهم السقيا بالنبي ﷺ ، وطلب سيدنا عمر السقيا بسيدنا العباس عند أحد .

البساتين والحدائق في المدينة المنوّرة

وفي المدينة المنوَّرة كثير من البساتين والحدائق والزروع والكروم ، ففي الجهة الشمالية منها بالقرب من السور حدائق عدة ، منها الحديقة الداودية ، وحديقة الزكي ، والسبيل ، والطرناوية ، والفيروزية ، والزينية ، والدرويشية ، وبئر ماء ، والتوانية ، والكاتبية ، وغيرها كثير . وفي داخل السور الحدائق الرومية ، وفي الجهة الشرقية بساتين وكروم كثيرة من النخيل ، وفي جهة قبا وذي الحليفة والعوالي شيء كثير من الزروع والبساتين ، والعوالي الآن مشهورة بثمرها ويزرع فيها كثير من الخضراوات كالكرنب والقنبيط (القرنبيط)

= عبد السلام لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال مع كونها أعراضاً ، فالذوات الفاضلة أولى ، ولأن عُمَر توسل بالعباس رضي الله عنهما في الاستسقاء ولم يُنكر عليه .

والكراث والخرشوف والبامية وإلخ ... ومن الفاكهة البطيخ والقاوون والخوخ والرمان والعنب والموز والتمر والحمضيات إلخ ...

وحول المدينة وديان كثيرة ، ينزل فيها كثير من مجاري السيول وخصوصاً في الجهات المنخفضة منه ، وقد تطفو فتضر بالمدينة وضواحيها ، ولدفع هذا الطغيان أمر سيدنا عثمان حينما فاض وادي مهروز فيضاناً كاد يقوّض أركان المدينة ، أمر ببناء سدين عند بئر مدري فحوّل بذلك مجرى السيل إلى وادي بطحان ، وأمر الخليفة المنصور ببناء سدود في أنحاء المدينة ؛ فتحولت السيول إلى جهات من أرض الحجاز .

وفي وادي العقيق الذي يغزر ماؤه ، ويبهر رداؤه ، وتزهو أزهاره ، ويفوح عطره ، وتزدهي أرجاؤه ، كثير من الرياض الزاهرة والقصور الفاخرة . ومن أماكنه المشهورة الزُغابة ، وأرخم ، والغابة ، وحضيرة ، والخليقة ، والجثجاثة . ويقال إنها كانت كلها لعبد الله بن الزبير وبنيه . وفي حمراء الأسد قصور القرشيين . وكانت خاخ للعلويين ، وبها يقول الأحوص :

وَلَهَا مَنْزِلٌ بِرَوْضَةِ خَاخٍ   وَمَصيْفٌ بِالْقَصْرِ قَصْرِ قُبَاء

ومن أشهر أماكنها ثنية الثريد ، والغراء ، والمعرس ، والبيداء ، وكان في جميعها منازل لأشراف قريش وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المقبل من مكة ، وكان في الجهة الأخرى مكان اسمه الحماد ، وتجاهها في ضيق حرة الوبرة على أربعة أميال من المدينة وإلى ضفيرة أرض عروة بن الزبير ، وبها قصره المشهور بقصر العقيق وبئره المشهورة باسمه ، والتي يقول فيها الشاعر :

كَفِّنُونِي إنْ مِتُّ فِي دِرْعِ أَرْوَى   وَاسْتَقُوا لِي مِن بِئْرِ عُرْوَةَ مَاء

وكان في أسفل هذا القصر تجاه الجماء مكان يقال له العرصة ، وبه قصر سعيد بن العاص عامل سيدنا معاوية على المدينة ، الذي يقول فيه أبو قطيفة :

أَلْقَصْرُ ذُو النَّخْـلِ فَـالجَمَّـاءُ بَيْنَهُمَـا أَشْهَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْـوَابِ جَيْرُونِ

والعوالي الآن مشهورة ، وهي ذات الخضرة والفاكهة التي مرَّ ذكرها .

سور المدينة المنوّرة[1]

لما كانت المدينة المنورة عرضة لهجات الأعراب وغزوات البدو قام عضد الدولة أبو شجاع ، وزير الطائع لله ، وبنى سوراً حول المدينة سنة /٣٦٠/ هـ ، وبقي هذا السور حتى تداعت أركانه في منتصف القرن الخامس ، فبناه الأمير جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الأعجام بالمدينة المنورة ، وزاد فيه نور الدين بن زنكي سنة /٥٥٨/ هـ أثناء عمارته للحجرة الشريفة ، ثم بناه الملك الصالح بن قلاوون سنة /٧٥٥/ هـ ، ثم السلطان قايتباي سنة /٨٨١/ هـ ، ثم السلطان سليم العثماني /٩٣٩/ هـ وعمّره محمد علي باشا والي مصر بعد حرب الوهابية ، وهو الذي فتح فيه الباب المصري ، وجدّده السلطان عبد العزيز العثماني سنة /١٢٨٥/ هـ وجعل ارتفاعه نحو /٢٥/ متراً ، وبنى فيه أربعين برجاً تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها . وهذا السور باقٍ إلى الآن في طريق العنبرية وعلى محيط الأبراج المشحونة بالمدافع والذخائر لصد هجمات الأعراب المعتدين .

وأما سورها الخارجي فهو مهدم في كثير من جهاته ، وفيما بين السورين يعني فيما بين الباب المصري وباب العنبرية دار كبيرة متوسط عرضها /٤٠٠/ م يقال لها المناخة ، سميت بذلك لأن أكثر الحجاج ينيخون بها جمالهم ، ويقيمون بها مدة الزيارة . وفيها مقام ركب المحمل المصري مدة وجوده بها ، وحول المناخة من جهتها الخارجية أبنية كثيرة وبينها يمتد شارع محطة السكة الحديدية ، وفيه التكية المصرية .

---

(١) انظر الرحلة الحجازية ص ٣٦٣

أبواب المدينة المنوّرة[1]

للمدينة ثمانية أبواب وهي : الباب المجيدي ، والباب الشامي ، وباب الكوفة ، وباب العنبرية ، وباب قوبة ، وباب العوالي ، وباب الجمعة ، أما الباب الثامن فلست متأكداً من اسمه .

مناخ المدينة

مناخ المدينة صحّي جداً ، وربما كان ذلك من الأسباب التي ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم التي إذا أضفت إليها ما هم عليه غالباً من الصلاح والأدب وحسن المعاشرة حكمت بأنهم أحسن أهل بلاد العرب على الإطلاق ؛ في مكارم الأخلاق ، وحسن الخلال ، ولا عجب فمجاورتهم للسيد الأعظم أكسبتهم كامل الأخلاق وكريم المزايا ، فسبحان الكريم الوهاب المتفضل على عباده .

ثالث عشر أيامنا في المدينة المنورة

الأحد ١٢ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ١٩ مايس ١٩٤٠ م

صلينا - ولله المنة - الفجر في الروضة وبعد صلاة الضحى دُعينا لدار محمد كامل عثمان ، ومنها ذهبنا إلى زيارة أحد كبير علماء نجد الشيخ عبد الله بن بُلَيْهِد ، داره غربي باب الرحمة ، اشتد عليه المرض ، سأله بعضنا عن مؤلفاته فقال : (نصيحة في جمع الكلمة ونبذ الخلاف) و (رسالة في توحيد العبادة ، وبيان الشهادة) و (بيان زيارة القبور ، وما يجوز منها وما لا يجوز) و (جواب لاثني عشر سؤالاً في بيان الخلافة ومعناها) و (منسك في الحج على المذاهب الأربعة) ، وكلها مطبوعة . وحكى لنا عن نفسه فقال : إن من لا يحب الرسول ﷺ والتقيد بطاعته فلا يعتبر إيمانه ؛ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] ، ثم أمر بإحضار

(١) من الرحلة الحجازية ص ٣٦٦

تمر لنا فأحضر خدامه ثلاثة أنواع من التمر ، ثم حدثهم عن التمر فقال : التمر لا يعرف قديماً في بلادكم .

بين عمر وملك الروم

فقد كتب ملك الروم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أما بعد فإن رسلي جاءت من قبلكم فأخبروني أن عندكم شجرة ذكروا أنها تخرج مثل آذان الحمير ، ثم تتفتق عن مثل اللؤلؤ الأبيض ، ثم يخضر فيصير كالزمرد أخضر ، ثم يحمر فيصير كالياقوت أحمر ثم ينيع وينضج ويكون كأطيب فالوذج وجد على وجه الأرض ، ثم ييبس فيكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر ؛ فإن كانت رسلي صدقت فلا أراها إلا من شجر الجنة . فكتب إليه عمر :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم . أما بعد فإن رسلك قد صدقوا ، والشجرة التي ذكروا عندنا ، وهي التي أخرج الله لأم عيسى حين ولدت عيسى فاتّقِ الله ، ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله . اهـ .

وفي سنن ابن ماجه حديث : « البيت الذي ليس فيه تمر أهله جياع » قال : ولهذا كان من عادتنا أن يحرز كل بيت من التمر مؤونة سنة . ثم ودعنا كما استقبلنا من حبّ وترحيب .

أمضينا الوقت في إصلاح ما وقع من خلاف بين أفراد وفد الزيارة ، ففريق منهم سافر إلى مكة فجدّة ليركب البحر ، وفريق منهم يرى وجوب المشي عصر هذا اليوم أو صباح الغد ، وفريق منهم يحب ألا يبرح المدينة حتى يمضي عليه خمسة عشر يوماً غير يومي الدخول والخروج حسب إعلان الشركة والجمعية . وصلينا الفجر جميعاً في الروضة كالمعتاد ، ثم صلينا الضحى ، وقرّبنا وجهات النظر مع المختلفين ، فنسأل الله تعالى أن يمنحنا رضوانه ، وأن يكتبنا مع المقبولين ، وأن يجعلنا ممن يعظم حرمات الله كلها . وحرمات مساجده وخاصة هذا المسجد الأعظم الشريف .

رابع عشر أيامنا في المدينة المنورة

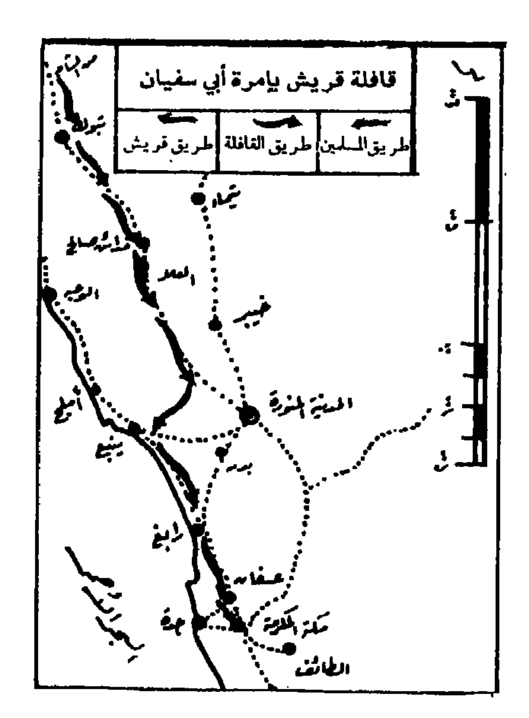
الاثنين ١٣ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٠ مايس ١٩٤٠ م

كالمعتاد صلينا تحت المكبرية ، وهي المكان الذي يجتمع فيه مؤذنو الحرم الشريف ، ومكثنا حتى صلينا الضحى في الروضة الشريفة ، وذهبنا لشراء بعض الهدايا ريثما يحين موعد الغداء الذي دعانا إليه السيد محمد كامل عثمان ، وكان غاية في الإتقان والسخاء ؛ جعل الناس يذكرون الغداء يوم غدٍ في الصحراء ، ويقلبون وجوه العذاب فيه . وبعد صلاة العصر قريباً من الروضة الشريفة توجهنا لوداع المسجد الشريف وصاحبه العظيم محمد ﷺ ، فما شعرت إلا وفي جانبي صديقي الكامل والناس عن أيماننا وعن شمائلنا يزورون ويودعون ويتوبون ويستغفرون ويدعون ويرجون ، وما إن أتممت دعواتي وتسليماتي على النبي ﷺ إلا ورأيتُني قد ارتميت على أخي الكامل أعانقه وأقبل رأسه وكتفيه ، والدموع تتناثر من عينيَّ ، والغصة تكاد تخنقني وتطوق عنقي ، وهو يقابلني على غير انتظام ومدامعه تنحدر على خديه ، وصوته يتلعثم ويضطرب ، وكل منا يسأل الله تعالى ألا يجعل هذه الزيارة آخر العهد ، وألا يطويها البعد ، وألا يجعلنا من المحرومين إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

ثم عدنا إلى منزلنا وجعلنا نحزم أمتعتنا ، ولما أدركتنا صلاة المغرب صليناها في الحرم الشريف قرب باب السلام ، ثم عدنا إلى حياة الروح وغذاء الفكر وفرحة القلب وبهجة الخاطر ؛ عدنا إلى زيارة الحبيب المصطفى ﷺ . فوقفت أمام الحجرة من جهة الوجه الشريف والكل مستغرق في مناجاته ، سابح في عبرات دعواته ، فأمليت عليهم ، وطلبت منهم أن يكرروا هذه الدعوة : (أعوذ بك اللهم من سوء المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد ، اللهم هون علينا سفرنا واطوِ عنّا بُعده) ، ثم طلبت إليهم أن يلحوا في طلب الفرج الشامل للإسلام والمسلمين وإنقاذهم من سيطرة المستعمرين ونفوذ الكافرين ، وأن يجمع

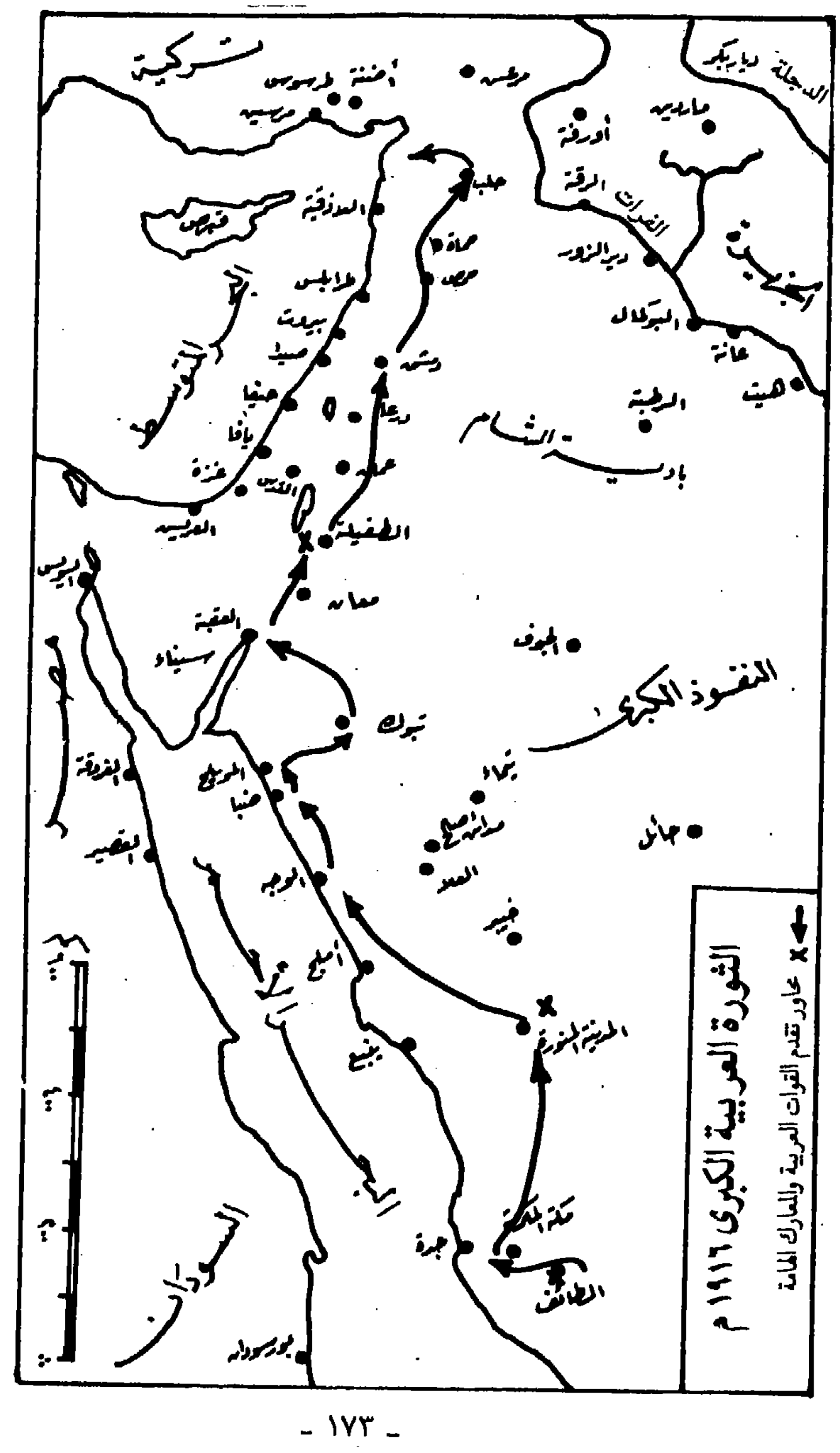


حَرَّة المدينة المنوَّرة



قافلة قريش يامرة أبي سفيان

الله أمرهم ويوحد كلمتهم ويأخذ بيدهم إلى ما يرضيه عنهم . وعلى حين غفلة مني أو لجملة خشع لها قلبي أثناء دعائي رأيتني أجهش ثانية ببكاء تخنق عبراته صوتي والدموع تتناثر على وجهي حتى لاأكاد أبين الكلام ، وتصبرت قليلاً ثم عدت ثانية أقول : اللهم لا تجعله آخر العهد بزيارة هذا البيت المكرم وهذا الرسول المعظم ، واكتب لنا العودة سالمين غانمين ، واجعلنا من المقبولين ولا تجعلنا مع المردودين المحرومين ، واجمعنا يا ربنا تحت لواء هذا الرسول الكريم ، ووفق أولادنا وذرياتنا وأهلينا إلى الخير العميم . ثم ختمنا هذه الوقفة المباركة والزيارة الحلوة بالسلام والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ متوجهين إلى الله تعالى أن يكتبنا مع التائبين المقبولين الصادقين .


الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ م
محاور تقدم القوات العربية والمعارك الهامة
تركية
أضنة
طرسوس
مرسين
أورفة
ماردين
الدجلة
ديار بكر
الفرات
الرقة
دير الزور
البوكمال
عانة
هيت
الرطبة
حلب
حماة
حمص
اللاذقية
قبرص
طرابلس
بيروت
صيدا
حيفا
يافا
غزة
العريش
دمشق
درعا
عمان
الطفيلة
معان
البحر المتوسط
بادية الشام
العقبة
سيناء
السويس
الجوف
النفود الكبرى
تبوك
تيماء
المويلح
ضبا
مدائن صالح
العلا
حائل
خيبر
الوجه
أملج
ينبع
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
الطائف
الغردقة
القصير
السودان
بورسودان

الفصل السادس
وداع المسجد الشريف
وطريقنا في الأياب

أول أيام سفرنا من المدينة المنوَّرة
١٤ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢١ مايس ١٩٤٠ م

بعد خلاف وشقاق ، وبعد أخذ وردّ ، ركبنا سياراتنا متجهين في طريق العودة بسم الله مجريها ومرسيها ، ومررنا في قفرة ببيداء اسمها صويدرة . سرنا سيراً حسناً ، واعترضتنا رملة في شعيب قرب (الحناكية) ، وعانينا في هذه الرملة كالمعتاد . والحناكية عبارة عن بيوت مصنوعة من اللبن والتراب ، وفيها غرفة جعلت مسجداً يكثر فيها شجر الدوم . اضطررنا أن ننزل في جامعها ونستسلم للنوم ، ثم صلينا الظهر في مسجد الحناكية ، واعترضنا بدوي قدَّم لنا ماء مالحاً يبيعه ، وفي نقاش طريف معه قال : إنه لا يغش مسلماً ، ولكن ماء البحر مالح ، وهو الذي يشربونه في مُقامهم هذا . وعزمنا على الخروج من المسجد للتفيؤ في ظلال شجر الدوم الباسقة ، وسرعان ماعُدنا أدراجنا لأن الهواء قد ثار والسماء قد امتلأت سحاباً أكدر حجب الشمس ، وجعل الرمل والغبار يرشق العيون والوجوه ، فاتفقنا على الْمَكثِ في المسجد والتريث حتى تنجلي هذه الغمة .

اضطررنا لانتظار من تخلف في المدينة وكنت أقول : ليتنا انتظرنا في

المسجد النبوي العظيم مع من انتظر ، ولكان خيراً من الانتظار هنا في الحناكية ، وكان الأولى أن يمشي الركب كله جملة ، ولكان قد اتعظ بسوء عمله من شاغب حتى أخرجنا من المدينة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وبعد صلاة العشاء أمام سياراتنا استقبلتنا واستدبرتنا ريح شديدة تحمل قناطير من الرمل فتسفيه على رؤوسنا ووجوهنا ، وعن أيماننا وشمائلنا فأسرعنا إلى المسجد ونحن نسأل الله تعالى العافية والسلامة . وكنا بين الحين والحين نرقب هذا الإعصار[1] لكي نتابع المسير ، ونفد الماء الذي كنا اصطحبناه معنا من المدينة ولم يبق لدينا سوى هذا الماء المالح ، نسأل الله العافية .

ثاني أيامنا في السفر من المدينة المنورة

الأربعا ١٥ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٢ مايس ١٩٤٠ م

في منتصف هذه الليلة سمعت منادياً يقول : يا زوار ، يا زوار السفر . جاءت السيارات ، الجماعة حضروا ، فهب الناس من مراقدهم مهطعين ، وكان ذلك خطأ وتعدياً أيقظ الناس وقد أخلدوا للنوم والراحة ، فاحتمل هؤلاء أمتعتهم وجعل بعضنا يقول (عذّب الله من عذب الناس) ، واشتد الصوت ثانية يأمر الناس بالإسراع ، ونحن لم ننس ماذقناه من حر الشمس أمس وشدة القيظ في المساء ، وطعم الماء المعدني المالح الساخن لم يزل في أفواهنا ، وأسرع الناس وتوضأنا وتوضأ بعضنا وضوءاً مهذرماً ، ومضينا مع الذين كانوا قد تخلفوا في المدينة ، وسرنا سيراً وسطاً ، ثم اجتمعنا على بئر مالحة نضحنا ماءها حتى لم يبق فيها قطرة ماء ، وسميت هذه البئر بالحفنة . مرّ بنا تكروري قد بدا قسم من بدنه لقلة ثيابه وهو يرتجف من البرد . سأله بعضنا : لماذا ترتجف برداً ؟ فأجاب :

(من شان تكسلت : وهو يبدل حرف الغين كافاً) .

---

(١) الإعصار : الريح تثير السحاب أو التي فيها نار ، تهب من الأرض كالعمود نحو السماء أو التي فيها العُصار وهو الغبار الشديد (القاموس) .

لماذا تكسلت ؟ ج : من شان صليت .

لماذا الصلاة ؟ ج : من شان جنات .

ما زالت السيارات تنهب الأرض نهباً ، وتخب في هذه الفلوات خبّاً ، وتصل الليل بالنهار حتى انتهت بنا إلى الْحَليفة ، وهي أبيات من طين يسكنها أعراب فقراء فيها أشجار نخيل باسقة ، وهناك نزل الناس يتفيؤون ظل النخيل ، وكم كان فرحُنا شديداً أن وجدنا ماء عذباً . فلّله الشكر والحمد والمنة . ولكن مُكثنا لم يطل إذ نادَوْا بالرحيل . وقبل التحقق من معرفة القبلة ، ثارت ريح هوجاء عاصفة ، تبعها مطر شديد . أحرمنا بصلاة الظهر فقويت الريح واشتدت وهاجت وثارت ، ورشقتنا بالأمطار المملوءة رملاً وحصىً صغيراً ، وفي برهة صغيرة امتلأ عرض الفلاة بالعجاج فأصاب الناس حيرة أذهلت الخليل عن خليله ، وتفرق الناس لا يدرون ما يصنعون غير أنهم هُرعوا إلى سياراتهم تاركين كثيراً من أمتعتهم في الأرض .

يا لله برهة قصيرة يكون الناس فيها بأتم راحة وأنعم بال ؛ فتهاجمهم ريح هوجاء مليئة بالمطر والرمل والغبار فتفرق جمعهم وتحول أنسهم إلى حزن وراحتهم إلى مساءة ، وتجعلهم يولون الأدبار لا يلوون على شيء من أمتعة وأثقال . لا إله إلا الله ولا يتصرف في الكائنات والكون إلا الله . تابعنا سيرنا من الحليفة فوصلنا إلى (الغزالة) عند الغروب ، مكثنا فيها دقائق . سرنا بعدها نؤم (المهاش) ، وهناك توقف الركب وأنزلنا بعض أمتعتنا إلى الأرض ، استقينا وحملنا الماء وتزودنا منه بما نشاء استعداداً لظمأ وشح قريب .

ثالث أيامنا في السفر

الخميس ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٣ مايس ١٩٤٠ م

صلينا الصبح في (المهاش) ، وبدأنا المسير على بركة الله ، وبدأ الرمل يداعبنا من كل مكان ، مما اضطرنا للنزول ، وسرنا على أقدامنا ، وسار الناس ،

ولحقنا السيارات تارة ، وتارة لحقتنا السيارات إلى أن استقبلتنا ربوة عند الظهيرة تشرف على بيداء قاحلة ؛ تحيط بها جبال سود متقطعة ، فحللنا هذه البيداء التي أصابها حر الشمس ففتّتَ أجزاءها . وفي هذه الرملة الثالثة التهب ماقارب مكان البنزين من سيارة كبيرة ، فجعل الركاب يسفون الرمل والتراب على النار المندلعة ، وكان سائق السيارة جريئاً فأطفأ نار (بلورة الكهرباء) التي التهبت بيده فاحترقت يده وكان عمله مانعاً لسريان النار إلى مكان البنزين ، وسلم الركاب جميعاً من هذه النازلة التي كادت تودي بحياة الكثيرين ولم يكن من نتائجها غير الرعب والخوف الذي عمَّ الجميع ، فالحمد لله على حسن العافية ، ونسأل الله مزيد اللطف والإحسان .

رحلة جديدة

قال أحد رفاقنا كرروا قول (يالطيف) ، أمامكم رملة أشد من سابقاتها فاستعنا بالله واستمسكنا بحباله وتابعنا المسير ، حتى إذا توسطنا الأرض الرملية رأينا أن سيارتنا كادت تطير بجناحيها مرة ، وتهبط بنا على حين غفلة مرة أخرى ، ونحن في هذا نسأل من يمسك السماء والأرض أن تزولا ويجيب المضطر إذا دعاه أن يسلم الركب ، ويفرج الكرب . فسبحان من استجاب فكشف الكرب ، وما هي إلا برهة حتى وقفنا على أرضٍ فسيحة الأرجاء ، عظيمة الاتساع كأن القمّام قمّها[1] لنحلَّ بها . يحيط بهذه الأرض اللطيفة جبل أجأ الذي يقابله جبل سلمى ، وهو جبل مشمخر أكدن اللون ، متصل السلاسل ، كأنما خلق ليكون حصناً (لحائل) ، وعلى قرب من هذه الأرض نخيل حائل وقصر الإمارة فيها ، وكل ما يتصل بحكومة حائل ؛ وهي دار الإمارة الكبرى وهي أراضٍ عربية واسعة عريقة ، تغنى بعظمتها الأوائل واعترفوا بزعامتها قبل أن يبزغ هلال آل

(١) قمّ البيت قمّاً من باب قتل كنسه فهو قمّام . (المصباح) .

سعود . لقد ذاق الناس طعم الأمان والراحة حينما ظهرت شمسهم المشرقة فاجتمعت على تعظيمهم القلوب ، وخشعت لهم الأفئدة والأبصار .

كان أول أعمالنا بحائل أن اجتمعنا للسلام على الأمير محمد بن عبد الله بَتّال وكيل الأمير عبد العزيز بن مساعد أمير حائل ، الذي يقال عنه بحق ملك الشمال . وجاء أحد الموظفين وطلب منا أن نشير على الركب بنصب سياراتهم قرب مقر الأمير ، فضربت الخيام واصطفت السيارات قريبة من الماء ثم أرسل لهم اللحم والحطب ومؤن الطعام ، وفي المساء دُعينا من قبل الأمير ابن بتال إلى طعام المساء .

اجتمع هناك الأطباء السوريون : الطبيب محي الدين القوتلي والطبيب مصطفى الحاج ويس بطبيب حائل الدكتور أنور الخجا وسلّما سلاماً حاراً ، سررنا به نحن واستدعانا إلى داره ، وأكرمنا وأسمعنا أخبار روما والقدس ولندن فجزاهُ اللهُ خيراً .

رابع أيام سفرنا من المدينة المنورة

إبراهيم بن رشيد باشا

الجمعة ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٤ مايس ١٩٤٠ م

قابلنا السيد إبراهيم بن رشيد باشا ، وهو شاب مهذب مثقف ، كان والده معتمد ابن الرشيد في الآستانة ، مكث فيها أكثر من ثلاثين سنة . ولما احتل الملك ابن سعود بلاد ابن الرشيد ومنها حائل التي هي بلدة رشيد باشا سقطت هذه الوظيفة ، وبعد مدة حظي رشيد باشا بمقابلة جلالة الملك ابن سعود الذي عينه معتمداً لجلالته في دمشق ، ودارت القهوة العربية ، ثم ودعنا القوم شاكرين . ومضينا حتى وصلنا (سانية الجمال) لاأذكر أني رأيت بئراً عظيمة كهذه البئر العظيمة ، وهي عذبة الماء غزيرته ، لو اجتمع عليها آلاف الخلق لكفتهم . وقبل الرحيل من حائل أرسلنا برقيات متنوعة إلى دمشق وإلى الرياض وإلى المدينة .

وكنا لا نسير من بلد أمير من أمراء جلالة ابن سعود إلا والبرقيات ترد بسرعة من جلالته بوجوب العناية بالوفد وإرسال الأدلاّء معنا . ومن حائل أرسل معنا الأمير دليلين هما عيادة ، وسليمان الضوير . فودعنا الدليل دَلّيم الذي سار معنا إلى حائل . والله نسأل أن يسهل العسير . لم يبق في النفس من حائل علاوة على جودة مائها وطيب ثمرها إلا اعتياد أهلها على أكل التمر ، فقد أخبرني من زار بستان الشيخ ابن بلهيد أن الخدام فيه على كثرتهم إذا غاب الشيخ بسفر ونحوه ظلوا على التمر والماء مدة غيابه ، ولو كانت أشهراً عديدة لا يضيفون إلى ذلك خبزاً ولا لحماً ولا غيرهما . واقتصارهم على التمر والماء لا يكدرهم ولا يضنيهم لأنهم ألفوا ذلك ومرنوا عليه . وهذا يدفع إشكال من كان يعظم عليه التسليم بحديث عائشة رضي الله عنها (شهر كامل إن هو إلا الماء والتمر) ، ومضت السيارات من حائل إلى الْحُمَيمة فسارت سيراً ميموناً اضطرابه قليل وريحه عليل . وكان لا بد من رملات وبعض أزمات حتى نصل إلى طريق الخلاص والنجاة . أما نومنا في السيارة في الليل فكان عن ضرورة قاهرة ، وهو بلا امتراء مؤلم وشاق إذ المقعد الذي جعل لجلوس الشخص الواحد فيه من غير أن يمد يده أو رجليه ، يتعذر أن يكفي الرجل لينام بكل جسمه مادّاً يداً أو رجلاً أو مستلقياً أو مضطجعاً ، ولهذا كان نومنا ثقيلاً وعسيراً خلا من الراحة ، وامتلأ بالمؤلم من المنغصات . وكان فضل الله علينا عظيماً ، إذ نجانا من حشرات الأرض ومن أضرار البرد .

خامس أيام خروجنا من المدينة المنورة

السبت ١٨ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٥ مايس ١٩٤٠ م

مررنا في سيرنا على (البقعة) وهي أرض قليلة السكان ، فيها أشجار النخيل ولكن عاصفة هوجاء ، صحبت رياحها أتربة كثيفة حالت دون سير السيارات وحجبت الأبصار عن رؤية الأرض وعن النظر إلى السماء ، فلا يعرف الراكب الجهات ، وما هي إلا برهة حتى كشف الله الغمة ، وبدأت الجهات الأربع

تظهر وأصبح السائق يرى طريقه حتى حاذينا (الشعيبة) التي أوصانا ابن بليهد في المدينة المنورة أن نتشبع من مياهها ! ولكن أصحاب السيارات رأوا عدم النزول فيها . وجدَّ بنا المسير في النفوذ أو العرق الأول (الدهناء) ، ويقال إن مساحتها تسع مئة كيلومتر مربع . فنزلنا من السيارات تخفيفاً لحملها . وبعد قليل استقبلنا (النفوذ الثاني) وهو أعظم من الأول كثرة رمل وصعوبة مرور واشتداد حر ، ولما كثر النزول والصعود والارتفاع والانخفاض واشتداد العطش ، شعرت بجفاف ريقي واحتياج جسمي إلى الراحة ، ولكن اللطيف الرحيم عَوَّدنا على كرمه واستجابته لخالص الدعاء فبدأ الهواء اللطيف تدريجياً يتسرب من خلال النوافذ ، وكانت رحمة الله بنا واضحة بيّنة .

بحر من الرمل

ما كدنا نسير بعد النفوذ الثاني إلا قليلاً ؛ حتى رأينا السيارات قد ولجن هذا البحر الكثيف من الرمل ، وأصبحن في وسطه فلا هي بقادرات على اجتيازه ولا هي بمتمكنة من الرجوع عنه ، فَلُجَجُهُ ثقيلة ورماله غزيرة وموجاته رهيبة ومخيفة ، وارتفعت الأصوات أصوات الاستغاثة بالله تعالى واللجوء إليه ، حتى وجدنا أنفسنا على أبواب بحرين من رمل وسحاب :

وَالْغَيْمُ كَالثَّوْبِ فِي الآفَاقِ مُنْتَشِرٌ ... مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ[1]
تَظُنُّهُ مُصْمِتاً لاَفِتْقَ فِيهِ فَإِنْ ... سَالَتْ عِزَالِيْهِ قُلْتَ: الثَّوْبُ مُنْفَتِقُ[2]
إنْ مَعْمَعَ الرَّعْدُ فِيْهِ قُلْتَ: مُنْخَرِقٌ ... أو لاُلأَ الْبَرْقُ فِيْهِ قُلْتَ: مُحْتَرِقُ

---

(١) الأبيات للصابي من (شعراء الشام) لمردم .

(٢) عزاليه : العزلاء وزن حمراء ، فم المزادة الأسفل والجمع العزالي أو العزالى بفتح اللام أو كسرها . وأرسلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزادات اهـ . (المصباح) .

وأراد سـائقنـا المضي ، وهو لا يعلم كيف يسير ولا أين يسير ، فـوقـع في قلبي الخوف من مضيه .

زاد تكاثف السحاب وزادت ظلمته ، حتى خفنا أن يكون هذا عارض عذاب وسحاب مقت . ضاق علينا بحر الرمل برحبه ، واشتد غمُّ الجميع ، ولهجت الألسنـة بـالأدعيـة ، واتجهت القلـوب إلى الحي القيـوم . فمـا أسرع مـا أجـاب ومـا أقرب مـا تفضـل بـه من كشف الكرب وزوال الخـوف ، فـأرعـدت السماء وأنـزل علينـا سبحانه من خيراتها غيثاً مـدراراً أحيـا النفوس ، وبعث الآمـال من جـديـد فكان برداً وسـلامـاً . ونـزل أكثر الركاب من سيـاراتهم يتعرضـون لنفحـات رحمـة الله ، فيسّاقط المطر على رؤوسهم ووجوههم وثيـابهم وحوائجهم فمن رافع يـديـه يلتقـط من هذا القطر السائغ العذب ، ومن فاتح فاه يبلّ ريقه وشفتيه . وهنـاك جماعـة أحـاطوا بواحـد منهم يبتهل إلى الله تعـالى أن يسهل هـذا السفر ، ويطـوي عنهم بعده ، ويذلل لهم صعبه . فسبحان الرحمن الرحيم الوهاب الكريم .

انكشف السحـاب وظهرت الطريـق التي كانت مستـورة ، وتلبـدت الرمـال قليلاً من آثـار المطر فجـدَّ السـائقون السير ، ومـا زلنـا في هـذا الجـد حتى وصلنـا (خب الحَسّك) .

خب الحســـــك

وهنـاك ضربنـا التفريق بسهـامـه ، فسيـارتـان لا يُعرف مقرهمـا ، وثـلاث انقطع خبرهن ، وواحدة في وسط هذه البيداء اختلط عليها يمينها بشمالهـا وأُخرى ضلّت في الصحراء ، وزاد الأمر شدة احليلاك الظلام واشتداد سواده ، فاضطررنا للنزول وأخلدنا إلى نوم لم نعد نشعر فيه بيقظة أو حياة . وبعد سـاعـات أصبحنـا نسمع بعض الأصـوات من هنـا وهنـاك ، ورأينـا من يحمـل ألـواح التـوتيـاء التي أصبحت جزءاً أساسياً في رحلتنا ، وبعض القوم آثر النوم من شدة التعب والإعياء على الطعام والشراب وكل ماسواه .

سادس أيام خروجنا من المدينة المنورة

الأحد ١٩ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٦ مايس ١٩٤٠ م

تيممنا وصلينا الصبح وصعدنا إلى سياراتنا ، وقبل أن نصل إلى مقاعدنا أمرنا السائق بالنزول لتسير السيارة وحدها خفيفة الظهر سريعة الحركة . وكم غاصت السيارة ! وكم عدنا إلى الوظيفة المعهودة ! نحمل ألواح التوتياء ، وننزح عن عجلاتها الرمال ، مشينا والشمس تحيط بنا ، وألواح التوتياء على رؤوسنا ، والعرق يتصبب من جباهنا وأبداننا حتى يسقي مآقينا نحواً من ثلاث ساعات متصلة . وسيارتنا لانَرى لها أثراً كأنها نسيتنا أو ضلت عنا .

رأينا السيارات الأخرى متفرقة تلقي بركابها ، أو تأمرهم بالنزول إلى الأرض والمشي المضني المريع . ورأينا الركاب نساء ورجالاً يمشون ، والكثير منهم يحمل الألواح الخشبية أو ألواح التوتياء ، وطوائف يتفيؤون ظل السيارات التي غاصت ، والدليل قد ضلّ المذهب والمسير .

الكل يلوم ، والكل يرفع صوته بالشكاية والاحتجاج ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وكان فقد الماء مبعث الشقاء ، ومصدر الألم والحسرة . يقولون وقولهم حقّ : الماء حياة الأنفس وأية أنفس هذه ستحيا مع دفع السيارات من الخلف ومن الجوانب في بُحران الشمس وحرِّ الهجير ؟!.

أعوز الناس الماء ، وكان مما خصص على قلته للشرب كريه الطعم ، ساخناً لاتستسيغه نفس ، ولا يروي غُلة ، ولا يزيل غُصة . والأسوأ من هذا أن بعضهم وضعه في آنية البنزين الفارغة فصار طعمه (مُبَنْزَناً) . وآخر وضعه في قُربة اشتراها من حائل جديدة فأصبح أحمر اللون ، فيه طعم الجلد المكروه ؛ لهذا جفت الأفواه ، ويبست الشفاه ، والأجسام تطلب الماء لشدة حرارة الفم وسائر أطراف البدن . وبعد ساعات من رمل النفوذ ورمل خب الحسك وصلنا إلى (الوَنْدية) وبلغت الساعة الثالثة صباحاً ، واضطررنا لانتظار سيارات الزملاء

حتى الساعة التاسعة . وإن أنْسَ لاأنس حرَّ الأرض ساعة أدينا صلاة الظهر مجموعة جمع تقديم مع العصر ، فحسبنا الله ونعم الوكيل . ونسأله تعالى أن يعفو عنا ، ويكشف كربنا ويغفر زلاتنا ، ويجعلنا من المقبولين . سرنا بعيد العصر نقصد (شامة) ، وكنا نظن وأهل الركب معنا يظنون أننا نجونا من عذاب الانتظار في حر الشمس وحمل ألواح التوتياء ، والعرق الذي يتفصّد من الجباه ، والجفاف في الأفواه والشفاه ، والعنت والبلاء والمشقة والعناء ، والبؤس يتلوه البؤس ، واليأس يكاد يستولي على النفس ، وكنا نردد في معمعان هذا الويل (لاحول ولا قوة إلا بالله) .

وداهمنا الليل فاضطررنا إلى المبيت في الأرض التي نحن فيها . بحثنا عن بقايا الطعام والشراب فلم نجد منه إلا القليل ، واكتفينا بشرب القهوة والتمر الهندي ، وبتنا ونحن حامدون ولربنا شاكرون .

سابع أيام خروجنا من المدينة

الاثنين ٢٠ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٧ مايس ١٩٤٠ م

انتظرنا تجمع السيارات ، وصلينا الفجر ، وأُذن لنا بالمسير ، ومضينا بجد وعزم نحو ساعة كاملة فإذا بالدليل يعود بسيارته وهو يقول : الطريق ليست من هنا . فعدنا من حيث أتينا ، وانتظرنا إخواننا ، ثم تابعنا السير حتى الساعة الثانية عشرة ، فوصلنا إلى عرق رملي ، وهناك وبعد غوص سيارتنا وإجراء العملية المعروفة سرنا بقوة وعزيمة ، ولم يرعنا إلا فقد رفيقنا السيد خالد بدير ، فقد نزل من السيارة وسار أمامها حسب إشارة السائق . وحين ركبنا وسألنا عنه بعض الرفاق ، قال أحدهم : إنه رآه قد تعلق بسيارة كبيرة سماها . فهدأ روعنا قليلاً وأخذت سيارتنا سمتها في المسير حتى مجتمع زميلاتها ، وهناك وقفت وإذ ذاك بحثنا عن صاحبنا فلم نجده ، وانتظرنا برهة حتى تبدى لنا شبح عن بُعد أمعَنّا فيه النظر وأطلنا حوله الترقّب فإذا به صديقنا خالد . واتفقنا مع الإخوان

ألا يوجه له أحد كلمة نقد ، وأن نتقبل كل ما يقوله لنا من لوم ولكنه وصل ولم يقل إلا خيراً ، وشكرنا الله تعالى على أنه لم يَرَعْ . وبعد أن سقيناه كأساً من التمر الهندي وهدأ باله باحثناه ، ورجوناه ، وحذرناه . وسارت سيارتنا بشوق إلى اللحاق بزميلاتها . ولكن القدر أبى إلا أن تقف لعطل طرأ على دولابها من جهة اليمين ، فأمرنا بالنزول وليس في هذه البيداء ظل يأوي إليه إنسان ، فأرسل الله لنا هواء عليلاً . وبعد إصلاح العطل مضت السيارة تؤم (تُرَبَه) .

رفيقنا في السيارة من حائل ، أبوه من الحبشة ، وأمه شريفة مغربية ، ولد في (مرسين) من بلاد الأتراك . هاجر به أبوه إلى المدينة المنوّرة . سألناه هل في المدرسة اللاسلكية موظفون أجانب عندكم ؟

ـ لا بل كلهم حجازيون .

ـ كم مدة هذه المدرسة ؟

ـ من سبعة أشهر إلى سنتين .

ـ كم الراتب ؟

ـ حوالي مئة ريال .

ـ هل تتأخر الرواتب ؟

ـ كلا لا تتأخر أبداً .

ـ كم بين مكة والرياض ؟

ـ ألف كيلو متر يأخذها البريد السريع بأربع وعشرين ساعة ، وفي غير السريع بست وثلاثين إلى ثمان وأربعين ، وكان دمث الأخلاق لين العشرة .

جدَّ بنا السير نبتغي الوصول إلى تُرَبَه والتخلص من هذه المهامه .

شح الماء ، وعدنا إلى شرب الماء الموضوع في دنان البنزين . اشتد الحر والقوم تفرقوا في الأرض العراء ، هذا يئن ، وذاك يتأوه ، وهذا يخرج نفسه تِباعاً ، وهذا قد ضَعفت قواه ، وهذا قد ضعف أمله إلى اثنين يختصمان على كأس ماء ، يقول

أحدهما لصاحبه : أنت ألقيت بعضه على الأرض ، فيحلف له رفيقه بالطلاق أنه لم يفعل ، ولا يـدري من أين سقـط على الأرض ، والبيـداء تصفر صفيراً ينـذر بـالموت . وارتسمت على الـوجـوه أسئلـة كثيرة ، مريرة ومثيرة : هـل بعـد هـذه الأزمـة فرج ؟ هـل سينعم أحـد منـا برؤيـة المـاء ؟ هـل سنصـل إلى مستقر من الأرض تقرّ به العين ، ويرتاح إليه القلب ؟

ثامن أيام خروجنا من المدينة المنورة

الثلاثاء ٢١ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٨ مايس ١٩٤٠ م

أصبحنـا على مقربـة من بئر (تربـه) فصلينـا الصبح ، وسعيت لشراء بعض حليب الغنم من عرب نـازلين بـالقرب منـا ، وكانت الأرض موبوءة بروث الإبـل والغنم ، ومـا يرد على البئر من نَعَم . نقـل الإخـوان محلهم إلى مكان آخر بعيـد مشرف على جهة البئر غربـاً ، وهنـاك ضربوا فسطـاطهم واستسلموا للنوم . اشتـد حر الظهيرة واشتـد الضيـق والعطش وسـوء طعم المـاء وسخـونتـه ، وضـاق الأمر بالخلق ، واشتـد الأمر على النـاس ، واشتكى القوم أمراضـاً كثيرة ، وامتنع بعضنـا عن الأكل ، وانتشرت الروائح القذرة والهواء الفـاسـد ، ولم نتمكن من الحصول على الماء لأن العرب الذين سبقونا إلى البئر استأثروا بمائـه لسقي إبلهم ، فلا حـظٌ لنـا فيه حتى يصدر الرعـاء . وفي وقت الضحوة الكبرى جئنـاهم بشيء من العجوة على أن يعاملونا المثل في الانتفاع بـالمـاء ، فـاشترطوا علينـا الصبر حتى ترتوي الإبل ، وكانت روائح روث الغنم والإبل ورائحة الميتة التي ألقيت في تلك النـاحيـة تزيـد الصعوبـات مرارة وألمـاً ؛ فقـد كان المحموم منـا إذا تنفس تنفس عن رائحـة قـذرة تكفي لإهـلاك المئـات . وشعرت كغيري بعمـوم البـلاء ، واستلقيت على الأرض الموبوءة الملـوءة حراً ، المفعمـة بكريـه الرائحـة ، وشعر رفيقي بضيـق في نفسـه وخفقان في صدره ، فوجف قلبه حتى ظن أن ترابـه بتَرَبَـه ، وألا يخرج لـه منهـا البتة . والناس كلهم يُعذَّبون . وتقدمت مع رفيقي إلى ربوة بعد أن ساعدنـا أحـد

الزملاء بإبريق ماء نضحه من البئر بصعوبة جمة . وألححت على الرفيق بالوضوء فتوضأ ، وذهب عنه بعض الضيق وكان نفسه مضطرباً وجعل يحدث نفسه :

هل أصل إلى الشام ؟ هل أرى أولادي ؟ لاأطلب إلا أن أموت بالشام بعدما أرى أولادي وأشرب كأساً من ماء الفيجة . وجعلت أستغيث بالله وأقول :

يارب ! إنا ضعفاء وعاجزون ، ولا صبر لنا على تحمل ماوقعنا به . ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا .

اللهم أنت رب الرحمة ومصدر الحنان وموئل المضطر ، اللهم مانزل بنا لا يعجزك تغييره ، ولا يعييك تبديله ، فاصرفنا من هذا الحال إلى أحسن حال ياموئل المضطرين . عاملنا بما أنت أهله إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولا تعاملنا بأعمالنا وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى أتباعه ومحبيه .

عرق المضهور

صلينا المغرب والعشاء والليل يتقدم علينا بطلائعه ، ثم أمعنا بالسير حيث اجتزنا بقوة وشدة ونزول وطلوع وحمل ومشي وركوب (عرق المضهور) ، ووقفنا بينه وبين (أم الشنين) حيث بتنا ليلتنا ، وتذوقنا طعم الراحة ، ولشدة مامر علينا من التعب استسلمنا لنوم غالب عميق .

تاسع أيام خروجنا من المدينة المنورة

الأربعاء ٢٢ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢٩ مايس ١٩٤٠ م

اتجهت السيارات تؤم (المتاية) وسائق سيارتنا يجد حتى لم يبق أمامه إلا سيارة الدليل واتبعتنا بقية السيارات نحواً من خمسة وعشرين كيلومتراً ، وقريباً من الظهر انتهى بنا السير إلى (بركة العشار) ، وهي واحدة من سبع ، يقال إنها كلها من عمل السيدة زبيدة امرأة الخليفة هارون الرشيد .

وبركة العشار هذه طولها نحو مئتي ذراع في عرض مئة ذراع ، وقد رأيناها

جافة لا ماء فيها . ثم تابعت سياراتنا المسير وما هي إلا برهة حتى بدأ الغوص في الرمال ، وعدنا لوظيفتنا من جديد نحمل الألواح ونُفَرِّغ الرمال ، وندفع من الخلف والجانبين . وكان الوقت ولله الحمد والمنة بالنسبة ليوم أمس أحسن ، وكانت آلة جديدة أحضروها لترفع طرف السيارة ، وبتنا هذه الليلة قريباً من بركة العشار . وهناك صادفنا من عرب شمّر دليلاً جاءنا من حائل اسمه عيادة بن جماش ، سألناه عن حدود مساكنهم فقال : (دون سكاكا إلى اليسار والحزون لنا) وسئل عن ماء سكاكا فقال (قلبان زينه) ثم قال (وفي سكاكا خير لحم وخبز ومقصب وحبحب وتين وخضر) ، وسئل عن معنى النفوذ فقال : (أرض كلها رمل وإذا كان بها « رخم » تسمى « ربيثة ») ، والرخم : الحجارة . وجميع هذه الأراضي تسمى الدهناء . وعند المفرق الآتي تفترق الأرض فإلى (لينا) طريق ، وإلى (لوقا) طريق ، وإلى (المعيذرة) طريق . وسئل كم من تربة إلى لوقا ؟ فقال : يمشي (الذلول) يوماً وليلة ، وعلى (الحمول) ثلاثة أيام . ثم سئل عن المتاية . فقال : هي التلال في أرض الأقرع التي مشيتم بها نهاراً . قبل المتاية (عرق المضهور) وبعد المتاية (بركة العشار) ، وبعدها المفرق ، وبعده إلى لوقا (فيحان) وسألناه عن طريقنا التي سنسلكها صباحاً فقال : (هي أزين من التي أنتم فيها) ، وسئل عن ماء تربة فقال : (ما هي زينة ـ مُرَّة وتسهل البطن) ، وسئل عن الحيوان في هذه الأرض فقال : الديب والضبع والضب والأرنب . وسألت بدوياً غيره وهو على بئر تربة : هل في هذا البئر ماء ؟ فقال : جم . وقلت لولد صغير عنده : احمل لنا هذه القربة فقال : ما أقوى . وسئل آخر عن الماء فقال : قُراح . وعُدنا إلى عيادة بن جماش نسأله عن النفوذ فقال : نوم ليلة على النفوذ خير من الشام وألذ لأنه طري غض فقلت : ليسمع هذا أبو تمام القائل :

بِنَفْسِي أَرْضَ الشَّامِ لاَ أَيْمَنَ الحِمَى ... وَلاَ أَيْسَرَ الدَّهْنَا وَلاَ أَوْسَطَ الرَّمْلِ

فيتحقق بأنه قد يوجد في خلق الله من يفضل النفوذ على بلاد الشام ، فسبحان من فاوت بين العقول .

عاشر أيام خروجنا من المدينة المنورة

الخميس ٢٣ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ٣٠ مايس ١٩٤٠ م

وقبل أن نمشي عشرة أذرع من مكان مبيتنا سمعنا صوتاً مروعاً في هذا الطريق ظنناه صوت بلور السيارة يتفتت ، ولكنه استمر بطيئاً نحيلاً فتبيناه فإذا هو الدولاب يقضي آخر حياته ، ويلفظ آخر أنفاسه .

التدبير الأول

هذه الورطة الجديدة أنستنا ماسبقها من ورطات ، وحالت بيننا وبين ماصدر عنا من آهات فقد قلّ الطعام والشراب ، والأكل الذي يكفي رجلين أصبح يوزع على جميع من في السيارة ، وعددهم اثنا عشر رجلاً ، والماء لكل رجل نصف كأس من كؤوس الشاي الصغيرة ، أما ماء (تربه) السيء الطعم فقد ادُّخر للحاجة ، واستبيح معه التيمم . وقالوا : بقي بينكم وبين المفرق سبعة كيلومترات على أن تنزلوا وتمشوا على أرجلكم . وبعد ساعة من السير أدركنا الإعياء لاشتداد الحر ، فعاد الجفاف إلى الأفواه واليبوسة إلى الشفاه ، وإذا بسيارة أكرمنا بها الله تعالى وقفت تنتظرنا فسبحان اللطيف الخبير . والسبب الذي دعا السائق أن يطلب إلينا المشي هو الدولاب الضعيف الذي حل محل الدولاب الذي افتقدناه . وقد صرحت للرفاق بأن ماعملناه هو أقصى جهدنا . فقد رضينا بالجوع والظمأ ورضينا بالتعب والنصب ، ورضينا بحمل الأثقال والألواح . أما أن نمشي سبعة كيلومترات بهذا الحر الشديد والرمل الكثير فلا قدرة لنا على ذلك . ولا يجوز أن نتعجل الموت بأيدينا ، ويكفينا ما رأينا . وسائق السيارة مصر على عدم السير إذا ركب منا أحد . وقلبنا وجهات النظر وهو يقول : إذا خرب الدولاب ثانية فأنتم المسؤولون . ووجدت حلاً بأن أضمن للسائق أداء ما يمكن أن يخسره شريطة

أن يمشي بنا بتمهل . وامتلأ قلبي خوفاً وهلعاً أن تنقلب السيارة أو يباغتنا أمر آخر . وإذ ذاك دبرتُ أمراً ثالثاً : دبرت الاستغاثة بالله تعالى والالتجاء إليه ، والإلحاح بطلب الفرج منه . وجعلت أكرر : (لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين) حتى أذن الله تعالى بالفرج ، وتكرم علينا بالوصول إلى المفرق ، وتوافدت سيارات إخواننا ، فأنشدت قول القائل :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا   يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَلاَّ تَلاَقِيَا

إذ ذاك فرحنا بالاجتماع إبان الانقطاع ، إذ زال بذلك عنا ألم العطش ومرارة الظمأ وسخونة الماء الذي كنا نخفيه ، حتى لا تراه العيون ونضن به حتى على الأصدقاء والأحباب ، وحتى لا ينضب عنا فكنا نقتسمه اقتساماً . استقبلنا ناس من الركب بالماء فشربنا حتى ارتوينا ، وحمدنا الله الذي أنعم وتفضل ، وشكرنا للقوم معروفهم ، وساءنا من جميع الركب إهمالهم أمرنا ، وتركنا بهذه البيداء تأكل عقولنا وأفئدتنا ، ولهذا السائق يستبد برأيه فينا . ولما لم يكن لنا أمل بواحد منهم آثرنا ألا نعتب عليهم ، ورجحنا ألا نلومهم ، وشكرنا الله على حسن العاقبة ، وسألناه إحسان الخاتمة .

السير إلى لوقا

بدأ الفرج حين اجتمع الركب في المفرق ، وعادت نعم الله تتوالى علينا فسهل الطريق وطوي عنا بعده ، وغاب عنا الرمل المهلك ، وأبعد الله عنا شبحه المريع حتى كأننا ما رأيناه . جَدَّ بنا السير فوافينا لوقا بعد العشاء ، حيث ضربنا فسطاطنا وطبخنا طعامنا ، وصلينا المغرب والعشاء مجموعتين جمع تأخير .

اليوم الحادي عشر لخروجنا من المدينة المنورة

الجمعة ٢٤ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ٣١ مايس ١٩٤٠ م

صلينا الصبح بالوضوء من ماء عذب سائغ في لوقا ، وحمدنا الله تعالى على

ماتفضل وأنعم ، وبعد إلحاح قبلنا هدية أحد الرفاق وهي كبش غنم . وفي لوقا أمير من قبل جلالة الملك ابن سعود له قصر يجلس فيه مع خويّانه وعسكره ، ولسفره إلى الجفر أقام وكيلاً عنه اسمه السيد (علي البليهي) . ويحيط بلوقا قبائل من العرب . ذبحنا الكبش ووزعنا لحمه وطعمنا وبقي عندنا .

أحسن ما رأينا في لوقا الماء فهو عذب سائغ ، ولكن الاستقاء من هذه الآبار عسير جداً ، وسار الركب بعد المغرب يؤم سكاكا بصحبة دليل اسمه (عبد الله القليصي من العارض من عرب شمّر) فرافق الدليل الأول (عيادة) الذي جاء معنا من حائل ، وانقطع الدليل السابق (سليمان الضو) لوصوله لبلده . واشتبه الطريق على الدليلين وتوقف السير ، فنزل الناس مستسلمين للنوم .

اليوم الثاني عشر لخروجنا من المدينة المنورة
السير إلى سكاكا

السبت ٢٥ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ١ حزيران ١٩٤٠ م

جد بنا السير إلى (سكاكا) ، وكنت قد اشتريت من عمان إبريقاً للوضوء جديداً أطلق عليه اسم (الإبريق اللماع) تمييزاً له عن غيره . وليتنبه الرفاق بسبب هذا النعت إلى العناية به وعدم الاستخفاف بشأنه . ولما عُدنا لفظته سيارتنا في لوقا يوم أمس من على عريشها ثم أهوى عليه دولاباً فَقَدَّ رأسه ، وبتر عنقه فقضى نحبه ، وصار كأمس الدابر .

ثم رغب إلي بعض الرفاق في رثائه ونعته ، وذكر آخر أخباره فقلت :

أَيُّهَا الإِبْرِيقُ يَا نِعْمَ الرَّفِيقْ ... كُنْتَ لِي عَوْناً إِذَا مَا اشْتَدَّ ضِيقْ
كُنْتَ ذَا لَوْنٍ وَضِيءٍ لاَمِعٍ ... وَبِحَقٍّ كُنْتَ شَيْخَ الأَبَارِيقْ
أَنَا إِنْ أَصْبَحْتُ يَوْماً مَادِحاً ... لِبِلاَ عَطْفِكَ يَا شِبْهَ الصَّدِيقْ
لاَأَرَانِي مُوْفِيَاً بَعْضَ الَّذِي ... تَكْتَسِيهِ مِنْ ضِيَاءٍ وَبَرِيقْ

أَنْتَ نِعْمَ الْعَـوْنُ إِنْ خَطْبٌ بَـدَا لاَ يُـدَانِيـكَ جَـدِيـدٌ أَوْ عَتِيـقْ
أَيُّ مَـاعُـونٍ وَطِسْتٍ فِيْـهِ مَـا فِيـكَ مِنْ نَفْـعٍ وَمِنْ شَكْـلٍ أَنِيـقْ
أَتَرَى ذَا الْبُعْـدَ ؟ مَـا أَوْجَبَـهُ ؟ أَدَلاَلٌ ؟ إِنَّ ذَا مَـا لاأُطِيـقْ
بَعُـدَتْ ذَاتُـكَ عَنِّي فَلِـذَا سِرْتُ أَسَّـاءَلُ حَتَّى جَفَّ رِيـقْ
وَبَـدَا لِي أَن أُنَـادِي هَـل فَتَىً أَبْصَرَ إِبْرِيقِي ذُو قَـوْلٍ وَثِيـقْ ؟
فَـأَتَـانِي نَـاعِيـاً شَخْصَـكَ ذُو مَقَـةٍ حَتَّى عَـدَانِي كَـالْغَرِيـقْ
دَهِشـاً مُرْتَبِكاً ذَا حَسْرَةٍ تَجْعَـلُ الـوالِـهَ لَمَّـا يَسْتَفِيـقْ
فَـدَعَـانِي عَـاذِلاَيَ مِنْكُمَـا إِنَّ هَـذَا مِنْكُمَـا مَـا لا يَلِيـقْ
سَيَـدُومُ الْحُـزْنُ عَـامـاً كَـامِـلاً أَو أَرَى الإِبْرِيـقَ فِي وَادِي الْعَقِيـقْ

الألطاف الخفية

رافقتْ رحلتنا من البدء حتى الختام ، وإلى القارئ نماذج منها علها تكون ذكرى وعبرة .

الأولى : سبق ذكر لطف الله تعالى بالمرأة التي غرقت في بركة المعظم ، ولا شبهة في أن خلاص هاته المرأة وهي في هذه السن المتقدمة من خوارق العادات ، ولطف الله تعالى بأصحاب هذه الرحلة ، مما يجب أن يسطر ليثنى على الله فيه ويشكر .

الثانية : في انقلاب الدرزينة التي تسير على سكة الخط الحديدي بجماعة من رجال الوفد ، وهي حالة مفزعة مريعة تحقق قول الثقات فيها إنها من خوارق العادات ، حيث لم يُصب أحد من رجال هذه المجموعة بأذى .

الثالثة : عند احتراق السيارة الكبيرة وعدم وصول النار إلى مكمن البنزين فيها ، وقد تكررت أمثال هذه الحوادث في الذهاب والإياب ، ولطف الله محيط شامل .

الرابعة : (الأكس) وهو بالنسبة للسيارة كالمعدة بالنسبة للإنسان ، **فهي** تربط بين دولابيْ السيارة . فإذا أصيبت تعطلت السيارة فلا تتقدم ولا تتأخر ، ولما علم أصحاب الشركة بكسر الأكس قامت قيامتهم ، وجُن جنونهم ، لأنه لا يمكن الحصول على أكس آخر من نفس النوع ، ونحن في سفر والحرب العامة لاتزال قائمة ؛ فلا سبيل إلى معملها لشراء مثلها ، ولما تغلغل أصحاب الشركة في أسواق المدينة سأل رئيس الشركة عن هذه القطعة وهو يرجح عدم الفائدة من هذا السؤال ، فإذا بالمسؤول يُخرج له القطعة المطلوبة بعينها ويقول : عندي أيضاً مثلها ، فدهش رئيس الشركة ، واشتراها بربع ثمنها المقدر عادة ، وتصدّق بباقي الثمن شكراً لله تعالى على ماأنعم ، ومشى وهو يتعجب من لطف الله تعالى في كل مااعترض لرجال هذه الرحلة .

والحادثة **الخامسة** وقوع طرف السيارة الكبيرة على خد السائق .

ذلك أن السائق إبراهيم رحمة الأضنة لي رفع دولاب سيارته لإصلاح خلل وقع فيه على آلة رافعة (كريكو) ، ولما ألقى بالدولاب على الأرض وأصبحت السيارة ترتكز على الكريكو فقط والسائق تحت السيارة ، زلق الكريكو فانكب طرف السيارة على صفحة خد السائق فاستسلم للموت كأن الملائكة حضرت لشهود نقله ، ولولا أن يسر الله له أحد رفاقه العامل ـ مصطفى الشجاع ـ فأُلهم حفر الرمل الذي يستند خد رفيقه إليه لقضي عليه ، وبخفة إزاحة الرمل من تحت رأس المصاب انفصل خده عن حديد السيارة وكانت بذلك نجاته ، ولم يبق من أثر رض هذا الحديد الثقيل إلا الشيء القليل ، فسبحان اللطيف الخبير .

اليوم الثالث عشر لخروجنا من المدينة المنورة

الأحد ٢٦ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ / ٢ حزيران ١٩٤٠ م

اتجهنا نحو سكاكا ، والكل يظن أنها على بعد ميل واحد ، ولكن الرمل الذي

لم يطب له فراق أعضاء هذه الرحلة أمسك بدواليب السيارات ، وحينئذ عاد الرفاق إلى الوظيفة المعهودة لتخفيف الرمل عن الدواليب ووضع ألواح التوتياء وحملها ، والذي راعني أننا سرنا نحو ٦٠/ كيلومتراً دون أن نصل إلى سكاكا ، وبعد جُهد وعمل ويأس وأمل نجونا بفضل الله ورحمته ، وهنأ بلسان الحال بعضنا بعضاً ، وشكرنا الله تعالى على الخلاص من سوء الحال .

ضربنا فسطاطنا وتفيأنا ظله ، وجلسنا ننتظر المدد من الله والبنزين من سكاكا ، وإذ ذاك عمل سائق السيارة على إصلاحها بما لديه من أدوات ، ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا البنزين . وبعد كدح وعنت ومشقات وآلام نجت السيارة ، وسارت لتقف على سبخة جافة ، ثم أخذت سبيلها بجد وعزم إلى سكاكا ، فوصلتها حوالي الساعة الرابعة فحمدنا الله وشكرناه .

أمير سكاكا

هو الأمير محمد السديري أخو الأمير عبد العزيز السديري أمير القريات ، والمكلف بوظيفة (الإشراف على جميع الحدود) ، والأمير محمد الآن مسافر في الجوف .

وتبلغ نفوس أهالي سكاكا اثني عشر ألفاً ، ماؤها عذب سائغ كثير ، يكثر فيها التمر وتقل الخضار ، أرضها زراعية ولكن أهلها غير نشيطين ، وتعد من بلاد نجد التي يقول فيها القائل :

وَأَنْجَدْتُمُ مِن بَعْدِ إتْهَامِ دَارِكُم فَيَادَمعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ

وقد اجتمعنا قرب سكاكا ببدوي هو بشير بن زيد من عرب الروَنَة التابعة لابن شعلان ، ومعه أموال من غنم وماعز ، سألناه عن الصلاة فقال : (الظهر ثمانية ، والعصر أربعة ، والمغرب غياب الشمس ثلاث ، وبعدها الأخير وهو ثمان ، ثم الفجر إثنتان) .

ـ كيف تصلي الأخير ؟

قــال : ج ـ تقــوّم الصــلاة : الله أكبر الله أكبر حي على الصــلاة حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

ثم أقـول : الله أكبر وأقرأ الفـاتحـة (وقـد قرأهـا لنـا بغير لحن) ، ثم أقرأ الله واحد ، الله الصمد .. إلخ ...

ـ هل عندكم خطيب ؟

ج ـ لكل عرب خطيب ولكل قبيلـــة خطيب يصلي بهم ، وينهى عن المنكر ، والذي يعصيه يؤدبه السديري .

ـ ماهي أسماء الأشهر ؟

ج ـ الـذي نكـز التـوم ، والـذي ينكـز التـوم الثـاني ، ثم حُفَيّـة ، والغُرّة ، وقصيّر ، ورمضـــان ، والفطر الأول ، والفطر الثـــاني ، والضحيـــة ، وصفر ، وعاشور .

ـ ماهي الأيام ؟

ج ـ الأيـام كثيرة والله مـاأدري . يقـولـون ثـلاثين ، والقصير الـذي ينقص ليله ، ولا ينقص غير شهر واحد .

ـ هل تصوم رمضان ؟

ج ـ نعم .

ـ كيف تصوم ؟

ج ـ مانأكل حتى تغيب الشمس وهو ثلاثين يوماً .

ـ كم مهر الزوجة ؟

ج ـ نـــاس يسـوقـون الغنم ، ونـــاس الإبـل ، وراعي البلـــد الـــذهب ، كلّ

وموجوده ، والخطيب يعقد العقد ملكته الله ورسوله ، ثم زَوْجُها يسوق حلالها ، وتأخذه ویاه وتزور أهلها ، ثم تنضم إلى زوجها .

ـ ماذا تعمل الزوجة ؟

ج ـ الزوجة تبني البيت ، وتُسَوّي الخبز ، وتطبخ الأكل ، وتجيب الماء .

ـ هل تتغشى المرأة (تتغطى) ؟

ج ـ نعم تتغشى ، والتي ماتتغشى تعمل منكراً .

ـ هل لها وظيفة أخرى ؟

ج ـ يُضَرِّبها الرجل ويعرسها .

ـ كيف تلد المرأة ؟

ج ـ من ذنبها ، من الذنب الأمامي .

ـ الزاني هل يجازى ؟

ج ـ نعم يضربونه أربعين رطيبة ، وإن كانت راضية لايُعرف أمرها إلا في اليوم الآخر .

ثم غادرنا وهو يقول : الله يعيد الساعة التي رأيناكم بها .

اليوم الرابع عشر من خروجنا من المدينة المنورة
الاثنين ٢٧ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ٣ حزيران ١٩٤٠ م

تجولنا في سوقَيْ سكاكا ، سوق قريب من قصر الأمير ، وسوق أكبر في موضع اسمه (البحر) ، ولكل سوق طائفة من أهل البلد وهما : القِرشة ، والمعازلة . وهناك قسم صغير اسمه الشلهوب ، بينهما دماء وعِداء . وكل طائفة لاتشتري من سوق الطائفة الأخرى ، حتى أظلها الحكم السعودي ووقع الصلح بينهما . ويقول مخبري عن أهل البلد : إن أهل السوق في سكاكا قد اعتادوا ألا

يصرفوا الليرة الذهبية بل تُعطى لدلاّل منهم فيمسكها بيده وينادي : من يسوم الإفرنجي ؟ (يعني الليرة الإنكليزية) فيقول واحد : بثلاثين ريالاً سعودياً وهكذا ـ وقد بعنا الليرة الإنكليزية بأربعة وثلاثين ريالاً وربع ريال ، يوم ٣ حزيران ١٩٤٠ أثناء الحرب . حضر أمير سكاكا محمد السديري من سفره في الجوف صباح اليوم ، وطُلب إلينا الذهاب للسلام عليه ، فذهبت بعد إلحاح . فإذا بالأمير شاب مهذب طِوال ، تلوح على وجهه علامات النباهة والذكاء ، وتقرأ في عينيه الاستعداد للإمارة .

حديث الأمير محمد السديري

فاتحنا بعد الصلاة بأنه كان ينتظر من (راعي لينا) إعلامه بموعد مسيرنا ، ولما لم يأت شيء من ذلك انتظرت أياماً ، ورجحت سفركم من طريق العراق ، وقال : ولو علمنا بصعوبة الطريق عليكم لأرسلنا السيارات لمساعدتكم ، ولما أثنيتُ على غزارة الماء في سكاكا وعذوبته قال : ماء الجوف أعذب . ثم أمر بالقهوة والشاي فأديرت علينا . وقد سمح ـ حيّاه الله ـ بإقراض الشركة ما تحتاج من البنزين ، وعَيّن للركب دليلاً ، وبعد خروجنا مشينا إلى الرفاق في بستان فيه ماء للقيلولة فيه والراحة عنده ، وبعد الظهر أجبنا دعوة طبيب سكاكا لنا وللوفد بعامة ، وهو الدكتور حسن أمين السعدي ، وجعل المنشدون ينشدون ، ثم قرؤوا شيئاً من (الشفاء) ثم أُتي بطعام الغداء ، وكان في هذه الدعوة بعض الطرائف نثبتها لطرافتها :

الأولى : عرف عن السيد الشريف اليعقوبي إنكاره الشديد لشرب الدخان ، وقد دعا الشاربين إلى التوبة منه ، وأراد أن يتخذ دليلاً على صدقه في عمله فطلب أن يفتح كتاب (الشفاء) للقاضي عياض ، ويقرأ منه صفحة غير معينة ليُعلم منها صدقه في نصيحته فقرأ القارئ حديثاً ساقه صاحب (الشفاء)[1] بسنده

(١) راجع ٢/٨ من الشفاء .

إلى العرباض بن سارية في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (وكل ضلالة في النار) زيدت في حديث جابر .

فكان في هذا الفأل أو المباغتة معنى بديع في الإشارة إلى أن شرب الدخان من البدع المحدثة المنكرة .

الثانية : أن صاحب الدعوة اختار أن يدعو من رجال الركب أصدقاءه وأصدقاءهم ، ثم بدا له أن يجعل الدعوة عامة لتكون دعوة شرعية إسلامية لا تخص أحداً دون أحد ، فدل ذلك على أريحية وسخاء وكرم نفس ، ولا شك أن هذا أمر طريف .

الثالثة : أن من العادات المعروفة أن يقدم في أمثال هذه الدعوة الأغنياء على الفقراء ، أما في دعوتنا هذه فقد انعكست المسألة من غير قصد ، وتقدم الفقراء فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم أكل الأغنياء فضلهم ، فكان ذلك دليلاً على أن هذه الدعوة من الدعوات المقبولة عند الله .

الرابعة : رأيت رجلاً من البدو يأكل بعدما انتهى الناس من الأكل ، وكلما سنحت له فرصة ألقى بالعظم الذي أكل الناس لحمه وطرحوه على الأرض ، في عباءة له كأنه يريد بجمعه الاستفادة منه ثانية ، فراعني هذا الحادث . اللهم زدنا حياء منك وخجلاً ولا تقطعن إحسانك ، وعرّفنا نعمك بدوامها ولا تعرفنا نعمك بزوالها .

الخامسة : بعد الانتهاء من الأكل دعانا هذا الطبيب الكريم لسماع المذياع أو (الراديو) ، وقد سمعنا فيما سمعنا قارئاً عراقياً يقرأ القرآن الكريم من العراق بلهجة عراقية ونغم مألوف للعراقيين لم أسمع قبله قارئاً يقرأ بمثله ، وأحسن ما يعبر

عن هذا النغم بالتعبير الدمشقي : النغم (الإبراهيمي) والدمشقيون إذا سمعوا كلمة الإبراهيمي عرفوا معنى هذه اللهجة حتى كأنهم معي الآن . فسبحان من خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا .

دعوة أمير سكاكا الأمير محمد السديري أبي زيد لوجهاء الوفد

سرنا مع رفاقنا لتلبية دعوة الأمير ، وهو في قصر مع خويّانه وضيوف من العرب آخرين . وبعد استقبالنا استقبالاً حسناً ، أسمعنا الرادّ فعلمنا ونحن في سكاكا حوادث كثيرة عن بلدان العالم غربية وشرقية ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

اليوم الخامس عشر لخروجنا من المدينة المنورة

الثلاثاء ٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ٤ حزيران ١٩٤٠ م

أجبنا في هذا اليوم دعوة الصيدلي السيد جودة السمان ، الصيدلي الرسمي بعيادة الدكتور السيد حسن الأمين السعدي في سكاكا . أرسل لنا سيارة خاصة لتقلنا إلى البستان الذي اتخذه مكاناً للدعوة ولم يكن بد من إجابة الدعوة ، وإذ ذاك علمت بأن صاحب الدعوة هو ابن أخي الشيخ حسن السمان حافظ كتاب الله وتلميذ المرحوم الشيخ عطاء الله الكسم ، وعند وداع سكاكا ركب الأمير السديري سيارته لوداعنا ، وسار الوفد على بركة الله ، وكان الطريق سهلاً ليناً لا عوجَ فيه ولا أمتاً .

اليوم السادس عشر لخروجنا من المدينة المنورة

الأربعاء ٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٩ هـ / ٥ حزيران ١٩٤٠ م

لم يمض على سفرنا نصف ساعة حتى قفزت بنا السيارة فارتفعت ثم انخفضت ، ثم عادت بسرعة زائدة فارتفعت وانخفضت ، وحدث ولا حرج عما أصاب رؤوسنا حينئذ وكواهلنا وأيدينا ، وماذا جرى بأجسامنا ، فجعلت إذ

ذاك أدعو الله العلي القدير أن يأذن بفرج قريب ، ويريح هؤلاء الناس من وعثاء السفر ، ويطوي عنهم بعده . فقدت إحدى السيارات دولابها وكان لطف الله عظيماً فتوقفت بعض السيارات للمساعدة ، وهكذا دواليك تارة نعين وتارة نُعان ، وتارة نقف وتارة نسير مسرعين حتى وصلنا بعد العصر إلى القريّات ، وهي (قريّات الملح) فيها قصر للأمير له باب حجري كتب عليه بعد البسملة مامعناه (إنه أنشئ سنة ١٣٣٨ هـ وقد أنشأه الأمير فوّاز ابن الأمير نوري الشعلان ، دخلنا القصر وفيه جماعة الأمير عبد العزيز السديري وهم الخويّان ويقال لهم (الزكرت) فصلينا الظهر والعصر مجموعتين ، وسألنا عن الأمير فقيل إنه في بليدة اسمها (النبك) تبعد عن القريات خمسة عشر كيلومتراً ، وله فيها قصر فخم . والماء في القريات نظيف ولكن طعمه كبريتي ، فيها بعض الخضر والكثير من النخيل ، وليس فيها مدرسة .

ومما رأينا عند خويّان الأمير في قصره الصقر . فقد أخرج أحد جماعته صقوراً صغاراً يقدر الواحد منها بحجم الدجاجة ، وقد ربط كل منها بمقعد طوله نصف ذراع مربع بقدر الصحن ، وفجأة فر أحد الصقور وأفلت من مربطه ، وعبثاً حاول بعض رجال القصر إرجاعه . والصقر يربونه ليصطاد لهم ، وهو يصيد كثيراً من الطيور والأرانب ، وربما صاد الغزال .

اليوم السابع عشر لخروجنا من المدينة

الخميس ١ جمادى الأولى / ٦ حزيران ١٩٤٠ م

كان الاستحمام في البحيرة أول أعمالنا في هذا اليوم ، وقد شاع في الركب أن الأمير أقرض أصحاب السيارات مايحتاجونه من البنزين على أن يأخذ مثله في الشام ، وحين علم الناس ذلك هبوا لجمع أمتعتهم ورفع أثقالهم متعاونين حتى إذا ماأتم الإعداد للسفر مضوا على اسم الله ، ونحن نرى أرض قريات الملح مقسومة إلى ثلاثة أقسام : القسم الملحي والقسم الترابي والقسم الرملي ، وهناك واد يختلط فيه

الملح بالرمل ثم يسير منه (وكأن ذلك يقع لتصفيته) إلى وادٍ آخر كله ملح خالص ، فسبحان المنعم المتكرم . ضللنا بعض الطريق ثم عدنا للبلدة الأصلية لنأخذ منها الطريق السليمة ، وفي الساعة السادسة تابع الركب سيره بسم الله متكلاً على الله .

كانت الطريق مغبرة ترابية ، وعلا العجاج حتى ملأ الفضاء ، وأغلقنا نوافذ السيارة ثم إننا لم نعد نرى أمامنا ولا خلفنا . سارت سيارتنا ، وعلى حين غفلة سقطت كلتا يديها فهوى مُقَدمها وارتفع مؤخرها فاضطرت الشركة لإيفاد معاضد لسائقنا ، فنزلا معاً وجعلا يُصلحانها إلى الرابعة بعد العصر حيث عادت إلى سيرها ، ومررنا قبل الأزرق على مملحة هي عبارة عن بئر ماء ، وأشخاص يُخرجون من هذا البئر المالح ماء يضعونه في قوالب من الأرض يتبخر حتى يكون ملحاً خالصاً .

شرق الأردن : الأزرق

في نحو العاشرة ودعنا الأراضي السعودية ، ودخلنا أراضي شرق الأردن ولم يعترضنا ولله الحمد ما يمنع سيرنا ، حتى وصلنا إلى حدود الأزرق وهناك وقف بعض الجنود الأردنيين ، ومنع الركب من المسير لأسباب لا نعرفها ، فأرسلنا برقية لأمير شرق الأردن بطلب الإذن للسيارات بدخول بلاده .

مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً

جرى مع أحد الأعراب حديث الغنى والفقر ، فأراد الأعرابي ذَم الفقر فقال : يقولون (القُل أبو الذل أبو النار) ، أي أن القلة تولد الذل ، والذليل الفقير يدفعه فقره إلى الغش والسرقة وذلك مما يستدعي دخول النار ، والآية الشريفة تشير إلى أنهم ارتكبوا الخطيئات فانتقلوا منها إلى الإغراق ، وانتقلوا من الإغراق إلى دخول النار ، أعاذنا الله منها وهدانا سواء السبيل .

في الأزرق

نزلنا بعد ذلك في الأزرق[1] حيث الماء والعشب والخير ، وهناك بحيرة ماؤها عذب سائغ ، وحواليها مساكن جماعة من الشركس . تعد بيوتهم نحو خمسة وعشرين بيتاً ، فيهم نحو مئتي شاب ، ولهم مساكن أخرى في الزرقاء ، وقد نزلوا الأزرق من أجل مواشيهم . ولما رأونا فرحوا بنا ، وجاؤونا بهداياهم من الجبن والخبز والزبدة واللبن .

الحاج دولات

هو أبو يحيى الملقب بجبرائيل ، من الشركس ، استضاف في منزله نحو نصف الزوار ، ولسان حاله يقول :

قَدِّمْ لِضَيْفِكَ مَا تَيَسَّرَ مُفْضِلاً   فَالدُّونُ مِنْكَ لَدَى اللَّبِيبِ سَخِيٌّ
إِنَّ الَّذِي يَسْخُو بِيَابِسِ خُبْزِهِ   وَبِمَا تَيَسَّرَ عِنْدَهُ لَسَخِيٌّ
كَفَرَ اللَّئِيمُ بِذَا الْكَثِيرِ لِلُؤْمِهِ   وَالدُّونُ عند أَخِي الْحَجَا مَرْضِيٌّ

وصلى القوم في بيت الحاج دولات ، وقاموا بقراءة شيء من القرآن الكريم والأناشيد النبوية .

ملاقاة الشركس لنا ، وأثر الروح الإسلامية في قلوب المسلمين

كان لملاقاة هؤلاء الشركس لنا وقع حسن في النفوس ، ظهر فيه سر الأخوة الإسلامية ، والرابطة المحمدية ، وإن هذه المعاني السامية التي أكسبها الإسلام لمتبعيه فجعل في قلوبهم المحبة والألفة والأخوة والكرم ، هي معانٍ عظيمة وصفات شريفة يفوق فيها المسلم غيره من أهل الملل الأخرى ، ويحق له أن يعتز بها

---

(١) في معجم البلدان لياقوت : الزرقاء بلفظ تأنيث الأزرق موضع بالشام بناحية معان ، وهو نهر عظيم فيه وحال كثيرة ، وهي أرض شبيب التبعي . وفيه سباع كثيرة مذكورة بالضراوة وهو نهر يصب في الغور .

ويفخر . لم يجمعنا بهؤلاء الشركس ولم يدفعهم إلى الاحتفاء بنا والعناية التامة بلقيانا إلا أخوة الإسلام وعاطفة الإيمان . صليت بالناس المغرب والعشاء مجموعتين جمع تأخير ، ثم اضطجعت قليلاً فإذا بصاحب الدعوة (الحاج دولات) يضع يديه على وجهي برفق ثم يقبلها ، فلما رآني استيقظت ونهضت لاستقباله ؛ عانقني عناق الوالد لولده والمحب لحبيبه .

فما هذا الذي وقع في قلبه فجعله يطرب ويسر ويمسح بيديه على وجهي وجبيني ثم يقبلهما ، وهو في سن تزيد على الثمانين فيعانقني هذا العناق اللطيف ؟ إنه أثر الإيمان القلبي الذي يجعل المسلم يسر برؤية أخيه المسلم فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه مهما كانت لغته أو شكله أو أرضه ، فيرى من تحقق مبادئه أنه عزيز وأنه غير وحيد في هذه الدنيا ، فإخوانه يزيد عددهم على مئات الملايين ، فهو يهتم باهتماماتهم ويرضى برضائهم ويألم لما له يألمون . والذي رأيناه من هؤلاء الإخوان الشركس مَثَّل أمام أعيننا معنى الأخوة الإسلامية وتذوقنا به لذة المحبة الدينية التي أشار إليها الكتاب العزيز بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات ١٠/٤٩] . وإنها فوق كل أخوة . نسأل الله أن يجعلها عامة بين المسلمين طيبة المذاق ، يخامر عطرها كل فؤاد ، إنه كريم جواد .

كلمة عن الشراكسة

الشراكسة من عناصر القوقاز الأصلية ، موطنهم في القوقاز الشمالي الغربي ، ولهم فيه اليوم جمهوريتان شيوعيتان : ١ ـ قبر دينو ـ بلقار ـ ٢ ـ أديقار جركس . وقد تأسست الأولى سنة ١٩٢٤ م والثانية سنة ١٩٢٦ م . وفي القرن الثامن عشر أخذت الدولة الروسية تشهر الحرب على القوقاس ، وتم لها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر احتلال القوقاس ، وقد استبسل الشراكسة وغيرهم من مسلمي القوقاس في هذه الحروب ، ولكن كثرة عدد الروس أعيتهم ، فاحتلت روسيا بلادهم فلم يسعهم تجاه ذلك إلا أن يهجروا بلادهم إلى بلاد الإمبراطورية

العثمانية ، وقد بدأ ذلك منذ سنة ١٨٦٤ م . ويقدّر عدد من خرج منهم بنصف مليون ، يقطن معظمهم اليوم في ولايات الأناضول من الجمهورية التركية ، وفي قضاء القنيطرة من أعمال دمشق ، وغيره من أقضية سوريا الشمالية . وفي عمان ، وبضع قرى من أعمال لواء البلقاء في بلاد شرق الأردن ، ولا يزالون محتفظين بلغتهم وأزيائهم وعاداتهم ، ولهم في المجلس التشريعي الأردني عضوان من مجموع واحد وعشرين عضواً ، ولهم جمعية خيرية لمساعدة المحتاج منهم ، ولغتهم ليست بالسامية ولا المغولية بل هي إحدى لغات الفرقة القوقاسية الغربية ، وهي أقرب إلى اللغات الآرية .

السير من الأزرق ليلاً

طلب إلينا ونحن في دار الحاج دولات أن نسرع في المسير ؛ لأن السيارات أذن لها بالسير ليلاً ، فلبينا الطلب .

اليوم الثامن عشر لخروجنا من المدينة المنورة
المفرق

الجمعة ٢ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ / ٧ حزيران ١٩٤٠ م

وصلنا المفرق في الصباح الباكر ، وهو بلد حديث لم يكن قبل تخطيط حكومة شرق الأردن له شيئاً مذكوراً ، وهو اليوم ذو أسواق متعددة ، وفيه مخفر ، وماء عذب ، وهو ملتقى عامة الطرق ، ومنه ينطلق المسير إلى كل الجهات .

مفرق إربد والرمتا

بعد قليل وصلنا إلى مفرق إربد والرمتا ، وهذا الطريق سهل وجيد ، واختير من رجال الركب جماعة طلب إليهم زيارة أمير شرق الأردن في إربد لشكره على رعاية الوفد ورفع الرسوم عنه ، ثم تابعنا المسير إلى إربد وبعد نصف ساعة بدت لنا بيوتها الجديدة ، ولم تكد السيارات تخترق هذه البيوت حتى هُرع

الناس إلى ملاقاتنا والترحيب بنا ، فمن مصافح ومن معانق ومن مصفق . ولما أشرفنا على دار سمو الأمير دخلناها والحرس الحكومي عندها وحولها ، فأشير إلينا بالدخول لمجلس الأمير في غرفة صغيرة مفروشة بالأرائك ، ثم دخل سمو الأمير فجلس في مجلسه القريب من الراديو الذي أُعِدَّ له ، وبعد الترحيب والسؤال عن راحتنا شكا إليه البعض ثقل السيارات فأجاب : قد علمت ذلك من يوم ذهابكم ، وأحببت أن ترَوْا عياناً ما يثبت لكم أن تلك الأراضي المقدسة لا ينبغي الوصول إليها ولا الدخول لها بهذه الآلات الشيطانية الخبيثة .

رأي الأمير عبد الله في كيفية السير والدخول إلى الحجاز

قال : أنا جربت هذا مرتين : جربته حينما بدأ الخط الحجازي يسير بآلاته الغربية فكان سيره شراً على البلاد ، وجربته في المدة الأخيرة حينما عرفت هذه السيارات وشاعت فكانت شراً على أسرتنا وعلى الناس .

هذه البلاد المقدسة لا ينبغي الدخول إليها إلا بذل وخضوع ، وطريق ذلك ركوب الإبل لا ركوب هذه الوسائل الأجنبية ، ثم ذكر الأمير قرب صلاة الجمعة فنهض ونهض القوم . ولعل اهتمامه بصلاة الجمعة باعتباره أميراً شغله عن دعوة إخواننا من رجال الوفد إلى تناول الغداء على مائدته كأمير من أمراء العرب المعروفين ، ثم ودعناه وانصرفنا شاكرين .

وفود الإربديين والاستقبال الحافل

ما كدنا نفارق دار الأمير حتى رأينا وفود الإربديين الأكارم يصطفون على يمين الطريق ويساره ليستقبلونا بما جبلوا عليه من لطف ودعة ، ورحابة وكرم ، فما كنت ترى إلا عناقاً وتقبيلاً وتأهيلاً وترحيباً وأُنساً ولطفاً ، كأن الأخ يعانق أخاه والكبير أب للصغير ، والصغير ابن للكبير والقريب يحن لقريبه ، والصديق يعطف على صديقه ، أهل بأهل وإخوان بإخوان ، ثم سار بنا القوم تتقدمنا ثلة منهم بالأهازيج العربية والأناشيد الوطنية ، حتى وصلنا



مجموعة من السيارات ويبدو في الصورة الشيخ إسماعيل الحفار



فريق من تلامذته الشيخ التلمساني مع سياراتهم

موقف السيارات ، وإذ ذاك شعر القوم برغبتنا في وداعهم ، فألحوا علينا بوجوب زيارتهم في دورهم وتناول الطعام على موائدهم ، وبعد اعتذارنا بأن بقية الركب رجالاً ونساء ينتظروننا في (الرمتا) على مثل جمر الغضا ، ولشدة إمعانهم في العزم علينا بقبول دعوتهم قصدنا إلى دار (السيد الحلبي) فشربنا القهوة ثم إلى دار كريم آخر ، فأعدّ لنا شرب القهوة ، ثم خرجنا إلى سياراتنا بين تصفيق المصفقين وتوديع المودعين واتجهنا إلى الرمتا . وهناك سئلنا عن جوازاتنا ، ومن الرمتا اتجهنا إلى (درعا) البلدة الأنيقة ذات المباني الجديدة والدور الحديثة ، انتظمت جامعاً بديعاً ، وفيها سوق جديدة عظيمة علاوة على سوقها القديم . وقفت سياراتنا في درعا والخطيب يخطب الجمعة وقد اكتظ الجامع بالمصلين . وأسرعنا لأداء صلاة الجمعة ومكثنا في درعا لإتمام المعاملات الرسمية إلى قريب العصر ، ولولا لطف الله ومعونته لاستغرقت هذه المعاملات ثلاثة أيام .

الفصل السابع
الوصول إلى درعا
ووفود المستقبلين

المستقبلون

خفَّ المستقبلون من دمشق وقراها إلى درعا يستقبلون أقاربهم وأصدقاءهم الزوار ، ثم سارت سيارات الركب بعد العصر تقصد دمشق ، وأخذ أصحابها في تنظيم سيرها . وبينا سيارتنا تخترق الفضاء وتلتهم الصحراء ، وقد جاوزت درعا إذ بإخواننا وأهلينا قد وصلوا لاستقبالنا والترحيب بنا ومعهم ابن الأخ بشير ياسين وولدي المأمون ، فنزلنا من سياراتنا وقد امتلأنا بشراً وسروراً برؤيتهم ، وقد استعبر المسلِّم والمسلَّم عليه وكانت لذة وكان صفاء ، فللّه مزيد الحمد وله مزيد الشكر .

المستقبلون لنا في الكسوة

عاد المستقبلون لسياراتهم ، واستبقيت معي ولدي المأمون ، وعادت سيارتنا تطوي الأرض بنا فتجتاز القرى المشهورة حتى وصلنا إلى (الكسوة) ثم إلى (العسالي) ؛ حيث تجمع المئات من الناس يهزجون ويهتفون وينشدون ويصفقون ، ونحن نحمد الله ونستغفره ونشكره . وقبل دخول المغرب حللنا بلدنا الحبيب (دمشق) ولما كان مسجد (الخرزمي) المشهور بمسجد الجرن الأسود

مجاوراً لدارنا ابتدأت بدخوله وصليت فيه المغرب إماماً بالقوم ، ثم دخلت داري وورائي وعن يميني وشمالي سكان المحلة وجيرانها . ولكثرة النساء في الدار من الأهل والأقارب لم يتمكن من دخولها هؤلاء المسلمون علي والمحتفون بي ، ونودي بينهم أن السلام على الزوار بعد صلاة العشاء .

السبت والأحد ٣ و ٤ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ / ٨ و ٩ حزيران ١٩٤٠ م

مضى هذان اليومان بلقاء الأحبة والإخوان ، وإن كنت قد أحصيت أسماء وعناوين أفراد الرحلة نساء ورجالاً ، فعبثاً كنت أحاول حصر أسماء من تكرموا فحضروا للسلام علي ، ويكفي أن أقول إن كثرتهم منعتني من الطعام والشراب ، حتى كادت تشغلني عن أداء بعض الصلوات ، فالله أسأل أن يجزيهم عني أفضل الجزاء . وكان من أصحاب الكلمات والقصائد من هؤلاء الشيخ شريف الخطيب ، وإلى القارئ بعض أبيات من قصيدته :

سَطَعَتْ أَنْــوَارُ زُوَّارِ الرَّسُــولِ ... حِيْنَمَا عَادُوا فَأَهْلاً بِالْوُصُول

شَمْسُ فَضْلٍ أَشْرَقَتْ فِي شَامِنَا ... فَزَهَتْ نُوراً وَفَازَتْ بِالْقَبُول

نَزَلُوا أَعْتَابَ طه الْمُصْطَفى ... وَالضَّجِيعَيْنِ فَمَا أَحْلَى النُّزُول

مَرْحَباً يَا زَائِرِي خَيْرَ الْوَرَى ... ادْخُلُوا الشَّامَ فَمَا أَحْلَى الدُّخُول

فِي سَبِيلِ اللهِ مَا حَلَّ بِكُمْ ... مِنْ عَنَاءٍ فِي الرِّمَالِ وَالْوُحُول

وبعد أن خف الأصدقاء والمحبون للسلام علينا ، وهدأت هذه الثورة اللذيذة وهذا التوارد المحبوب ، رأى رفاقنا من أعضاء جمعية الهداية الإسلامية عملاً بحديث (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) أن نزور ونشكر كل الذين أكرمونا وأحسنوا زيارتنا ووفادتنا بدءاً من صاحب السعادة رشيد باشا الناصر معتمد الحكومة السعودية في دمشق ، إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وغيرهما من الأمراء والوجهاء والأهل والأقارب والمحبين . وإلى القارئ بعض ما أرسل من

كتب ورسائل ، وما تلقيناه من بعضهم[1] . وفاء بحق الذين لهم في أعناقنا منـة ، وعلى الأيـام يـد نسـأل الله أن يتقبـل منـا وأن يشكر لهم ، بيض أيـاديهم وحسن صنيعهم .

الكتب والرسائل التي أرسلت وأسماء الذين تفضلوا بالإجابة

١ ـ جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

لجلالة الملك المفدى :

سلام الله عليكم وعلى ماأكرمكم به من مواهب وخصكم به من سمو منزلـة وعلو مقام ، ورحمة الله وبركاته وبعد :

وصلنا بلدتنا دمشق الشـام ونحن نحمل لجلالتكم لواء الشكر وأعلام الامتنـان لمـا نلنـاه ونـالـه سـائر أفراد الركب (وفـد الـزيـارة) من عظيم الإنعـام ، وكبير الالتفات . ولا بدع فالخير من مصدره لا يستغرب ، والـذهب الإبريز في معـدنـه لا يستكثر ، فأنتم للعرب موئل ، وللمسلمين حرم وملجأ . سبقتنا إلى دمشق آيـات أفضالكم ، وتقدمتنا إليها أخبار منحكم ، فدخلناها وخطيب أعظم مساجدها يُنوّه بذكركم ، ويردد عبـارات الحمـد والثنـاء على بيض أيـاديكم . فللـه أنت يـامليـك العرب ، منحت فأجزلت ، وأوصيت بنا أمراءك فأُطعت ، فقـام كل منهم يمثلـك في إسـداء المعروف ، وإكرام الضيوف وهو يعلم أنـك لن تجـارى ، ومن المستحيل أن تبارى ، ولكن لامندوحة له عن امتثال الأمر وإطاعة القول الفصل .

فنحن أينما تقلبنـا في بـلادك محـاطـون بـالإكرام ، مستقبلـون من أمرائـك بالتبجيل والإعظام وبخاصة منهم ـ وكلهم خاصـة ـ أمير العلا محمـد بن هـديـان ، فقد كان له في ذلك القدح المعلى والمنزلة التي يجب أن تذكر لتشكر .

---

(١) نيفت هذه الكتب والرسائل الوثائقية على أربعين رسالة وكتاباً مع الإجابة عليهـا ، أثبتت كلهـا في الأصل ، وقد اخترنا للقارئ نماذج عنها .

هذا ونحمد الله على حسن التفاتكم إلى هذا الوفد الـذي أتمّ مهمتـه ، وسـار في هذا الطريق الذي يعوزه بـذل شيء من عنـايتكم كيا يكون همزة الوصل بين بلاد الشـام وبلاد الحجـاز ، فيحيـا بـذلـك القطران ويجتمع الإخـوان ، وإلى جـلالتكم تقريرنا المرفق عن هذا الطريق سائلين المولى أن يكتب لكم بذلك الذكر الخالـد ، والأجر الدائم ، وفي الختام نكرر لجلالتكم آيات الشكر والامتنان .

٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

٢ ـ الكتاب الثاني لأمير العلا

إلى صاحب السمو أمير العظماء وعظيم الأمراء أمير العلا محمد بن هـديـان أدام الله وجوده وأبقى للأنام بره وجوده .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فارقنـا مـدينـة العُلا وسرنـا حتى تشرفنـا بالمدينة المنورة ، ثم عدنا منها من طريق حائل فقطعنا أيضاً تلـك المواقع الكثيرة والبلاد العديدة ، فلم نجد فيا وجدنا ككرم ابن هـديـان ولا من يشبهـه في المروءة والفتوة وعلو الشان ، ويكفي برهاناً على ما نقول أن حديث شمائله قد سبقنـا إلى بلاد الشام وجرى في الركب على لسان كل إنسـان . فوفـاء ببيض أيـاديـه وعظيم معروفه نرسل لسموه هذه الكلمة لتعرب عما تكنّـه القلوب ، وتـدخره الأفئـدة لـه ولخويّانه الأكارم الأباسل الشجعان من الشكر والحمد والعرفان . أدامكم الله وإيـاهم مناراً تهتدي به العرب لإحياء مناقب آبائهـا ، وعلمـاً تقصـد إليـه لتعرف صفـات أسلافهم ، ما سار فلك وسبح ملك .

٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

الكتاب الثالث

إلى صاحب الفضيلة قاضي الشرع الشريف (في العلا) الأستاذ ضياء الـدين رجب ، أبقاه الله ذخراً للعلماء وملاذاً للأوفياء .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته :

وبعد : فإن حرماننا وداعكم ساعة فراقنا ـ العلا ـ كان أمراً مكـدراً ، مُنعنـا فيه من الحظوة الرائعة ، والمتعة الروحية ، ولا بدع فمن فارق العلا كان بالحرمـان جـديراً ومستـأهلاً . لهـذا جئنـا بـأسطرنـا هـذه نعلن الشكر لمـا رأينـاه من حلو شمائلكم ، وكريم خلالكم ، ولطف مقابلتكم ، التي وسعت من رجال وفدنا الأشراف والعلماء ، والتجار والأدباء ، لا زلتم أهلاً لكل خير ومصدراً لكل فضل .

١٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

أما الكتاب الرابع فكان للسيد صادق المفتي مدير خزينة العلا .

والكتاب الخامس لقائد مخفر الجفر .

والكتاب السادس إلى أمير ذات الحج .

والكتاب السابع إلى أمير تبوك جاء فيه :

إلى معالي أمير تبوك المعظم السيد سليمان بن سلطان أدام الله توفيقه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فإن وفد الشام الذي حل بسـاحتكم يوم ١٤ ربيع الأول سنـة ١٣٥٩ هـ في طريقه إلى زيارة النبي ﷺ . فأكرمتم وفادته ، وأحسنتم ضيـافتـه ـ قـد اجتمع رأيه بعد عودته إلى بلده الشام على وجوب تقديم هذا الكتـاب لكم إيـذانـاً بشكركم وإعلاناً بـالامتنـان ، والثنـاء على أريحيتكم . والله نسـأل أن يجزيكم على معروفكم خير الجزاء ، ويكافئكم في الدنيا وفي يوم الجزاء .

٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

الكتـاب الثـامن : إلى فضيلـة المرشـد الشيخ صـالـح الفضيـل مـدرس الحرم النبوي الشريف .

الكتاب التاسع : إلى العلامة الشيخ محمد بن العلي التركي .

الكتاب العاشر : إلى العلامة الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي .

الكتاب الحادي عشر : إلى العلامة الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري الأيوبي اللكنوي المدني .

الكتاب الثاني عشر : إلى الأستاذ محمد علي بن حسين أعظم البكري الهندي .

الكتاب الثالث عشر : إلى الأستاذ الشيخ عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي .

الكتاب الرابع عشر : إلى صاحب السعادة الأمير عبد الله السديري (وسيأتي ذكر الكتاب بتفصيله) .

الكتاب الخامس عشر : إلى الشاعر الأستاذ محمد علي المهاب البركني الشنقيطي .

الكتاب السادس عشر : الأخ الشيخ محمد علي السمان .

الكتاب السابع عشر : الأستاذ الطبيب عادل محيسن .

الكتاب الثامن عشر : إلى الأديب محمد كامل عثمان .

الكتاب التاسع عشر : إلى الطبيب أنور الخوجه .

الكتاب العشرون : إلى الأديب السيد إبراهيم رشيد باشا .

الكتاب الحادي والعشرون : إلى الأمير عبد العزيز السديري . وإلى القارئ نص الكتاب إلى صاحب الشهامة والحمية الأمير الكبير المفضل عبد العزيز السديري حاكم القريات ، أدامه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فالواجب يقضي علينا بأن نديم ذكركم ، ونذيع شكركم ، ونتداول بين رفاقنا

جميل معروفكم . وإقراراً بهذا الواجب نتقدم إلى سعادتكم بهذا الكتاب ، راجين من الكريم المنان أن يكافئكم عنا بالجميل ، وينيلكم في العقبى الثواب الجزيل .

٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

نص الكتاب الرابع عشر لأمير المدينة المعظم :

إلى صاحب السعادة الأمير عبد الله السديري المعظم أمير المدينة المنورة :

السلام عليكم وبعد .

فقد وصلنا بلدتنا دمشق شاكرين حسن معروفكم ، معجبين بآدابكم وكرمكم ، وكريم صفاتكم . وقد رأينا واجباً علينا تسطير هذا الكتاب ، لنعرب فيه عن أمنية حلوة لذيذة ، وهي شكر أياديكم ، والاعتراف بجميلكم . لا زلتم مصدراً يصدر عنه الخير ويرجى منه الفضل والنبل .

٣ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ

ما تلقيناه من الأجوبة على بعض هذه الكتب

الجواب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم .

من أفقر العباد إلى الله محمد العلي التركي إلى المكرم المحترم الشيخ محمود ياسين وهيئته الموقرة حفظهم الله آمين :

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فإني أحمد الله إليكم ، الله الذي لا إله إلا هو الفعال لما يريد ، وأسأله تعالى أن يصلي على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم .

وصل كتابكم وتلوناه شاكرين الله على وصولكم بالسلامة ، جعلها الله سلامة دائمة على الجميع ، وإني أطلب من الباري جلت قدرته أن يوفقكم للقيام بواجب الشرع الشريف ، وأن يعينكم على ذلك بالإخلاص والصبر ، وإني أود أني أكون مشاركاً لكم بالجسم كما أني مشارك لكم في الروح ، والواجب على الأمة الإسلامية

قاطبة أن تقوم بواجبها الديني ، ولن تقوم لها قائمة حتى تتمسك بالشريعة وتحكمها تحكيماً كلياً حقيقياً ، فإن فعلت ذلك كان الله معها ، وإن لم تفعل فلن يكون معها . أصلح الله الكل . هذا وأوصيكم ونفسي بتقوى الله في السر والعلن ودمتم فوق ما رمتم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٢٥ ذو الحجة ١٣٥٩ هـ

الجواب الثاني من محمد علي حسين البكري من المدينة المنورة .

الجواب الثالث من السيد الأستاذ محمد علي السمان من المدينة المنورة .

الجواب الرابع : من فضيلة قاضي العلا ضياء الدين رجب .

إلى ماهنالك من الأجوبة الأخرى .

تمت ـ بحمد الله ـ كتابة هذه الرحلة يوم ٢٥ جمادى الأولى عام ١٣٦٠ هـ .

☆ ☆ ☆

وتمت مراجعتها واختصارها مع إخراجها وتنسيقها يوم الأحد ١٣ ذي القعدة ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٠ تموز ١٩٨٦ م .

ولله الحمد من قبل ومن بعد



فريق من الزوار أمام سيارتهم



سيارة الأمتعة ومعها فريق من الزوار





فريق من الزوار ومعهم سفينة الصحراء (الجمل)



الشيخ أحمد التلمساني وجماعته



من أعضاء الرحلة إلى جانب سياراتهم



الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه تحت المظلات في الصحراء المحرقة



الشيخ أحمد التلمساني وجماعته

بعض أسماء وعناوين وفد الزيارة

مرتبة على حروف الهجاء

الهمزة

الاسم	العنوان
١ ـ السيدة آسية البردان	دمشق ـ كفرسوسة
٢ ـ السيدة آمال الدندراوي	مصرية الجنسية
٣ ـ السيد إبراهيم حبي	دمشق ـ الميدان
٤ ـ السيد إبراهيم بن سليم موزة	دمشق ـ كفرسوسة
٥ ـ السيد إبراهيم بن علي الأطلي	دمشق ـ الصالحية
٦ ـ السيد إبراهيم بن محمد الغندور	دمشق ـ قنوات
٧ ـ السيد إحسان بن محمد غالب الشربتجي	دمشق ـ صالحية
٨ ـ السيد أحمد بن حسين يوسف	دمشق ـ زبداني
٩ ـ السيد أحمد بن رسلان الوتار ـ من التجار ـ	دمشق ـ العمارة
١٠ ـ السيد أحمد بن سعيد سنان	دمشق ـ القنوات
١١ ـ السيد أحمد صالح الرفاعي	دمشق ـ الشاغور
١٢ ـ السيد أحمد عبد الجواد	إدلب
١٣ ـ السيد أحمد بن محمد توفيق حمدي	دمشق ـ سوق ساروجة
١٤ ـ السيد الشيخ أحمد بن محمد يلس التلمساني ـ رئيس جمعية الإرشاد والتعليم	دمشق ـ شاغور
١٥ ـ السيد الشيخ أحمد بن محمود العطار من طلاب العلوم الشرعية	دمشق ـ كفرسوسة
١٦ ـ السيد أحمد مهدي	مدينة حمص
١٧ ـ السيد أحمد بن هاشم القشلان	دمشق ـ العمارة

١٨ ـ السيـد أديب بن سليم الصـواف مـدير معمـل صواف أبناء عم — دمشق ـ القيمرية

١٩ ـ السيدة إسعاف بنت مصطفى البارود — دمشق ـ الشاغور

٢٠ ـ السيد أسعد العاني من التجار وطلبة العلم — دمشق ـ العمارة

٢١ ـ السيد إسماعيل بن عبد الله الحامي ـ من الملاكين وتجار الحبوب — دمشق ـ القيمرية

٢٢ ـ السيد إسماعيل بن علي الحفار ـ من تجار الأقمشة — دمشق ـ القنوات

٢٣ ـ السيد أمين بن عثمان قوشحة — دمشق ـ القنيطرة

٢٤ ـ السيدة أمينة بنت عبد الحميد حسن — دمشق ـ عربين

٢٥ ـ السيد أنور بن عبد الله الورع ـ تاجر كهرباء — دمشق ـ القيمرية

الباء

٢٦ ـ السيد بدر الدين بن صالح ياسين — دمشق ـ عربين

٢٧ ـ السيدة بدرية بنت عزة البازرباشي — دمشق ـ سوق ساروجة

٢٨ ـ السيد بهجة بن محمود البارود — دمشق ـ الشاغور

٢٩ ـ السيدة بهية بنت محمد محروس — دمشق ـ سوق ساروجة

التاء

٣٠ ـ السيد توفيق بن علي الحسني الجزائري — دمشق ـ الميدان

٣١ ـ السيد توفيق بن محمد هاشم ـ من التجار — دمشق ـ القيمرية

الجيم

٣٢ ـ السيدة جهينة بنت نوري داود — دمشق ـ القنوات

الحاء

٣٣ ـ السيد حامد بن محمود البولاد — دمشق ـ سوق ساروجة

٣٤ ـ السيد حسن بن عبده الفاخوري — دمشق ـ القنوات

٣٥ ـ السيد حسن علاء الدين — دمشق ـ كفرسوسة

٣٦ ـ السيد حسن بن محمد شحاة — دمشق ـ قضاء دوما
٣٧ ـ السيدة حفصة بنت محمد بقلة — دمشق ـ كفرسوسة
٣٨ ـ السيد حمدي بن سعيد العرقسوسي — دمشق ـ سوق ساروجة
٣٩ ـ السيد حمدي الغبرا ـ من التجار — دمشق ـ القنوات
٤٠ ـ السيدة حنيفة بنت محمد شيخ أوغلي — دمشق ـ سوق ساروجة
٤١ ـ السيدة حياة بنت أحمد العطار — دمشق ـ العمارة

الخاء

٤٢ ـ السيد خالد بن حمزة بدير تاجر وعضو جمعية الهداية — دمشق ـ القيمرية
٤٣ ـ السيد خالد السلقيني — مدينة حمص
٤٤ ـ السيدة خديجة البديوي — دمشق ـ قنوات
٤٥ ـ السيدة خديجة بنت خالد اشلا — دمشق ـ عربين
٤٦ ـ السيدة خديجة بنت عبد المعين — دمشق ـ عربين
٤٧ ـ السيدة خديجة بنت محمود شاهين — مدينة حمص
٤٨ ـ السيدة خيرية بنت محمود جويانة — دمشق ـ عربين

الدال

٤٩ ـ السيد درويش محمود القطيفاني — دمشق ـ قضاء دوما
٥٠ ـ السيدة ديبة بنت عبد الغني سليم — دمشق ـ كفرسوسة

الراء

٥١ ـ السيد راشد بن سعيد النجار — دمشق ـ الميدان
٥٢ ـ السيد رشدي بن عيد عرفة ـ من الأساتذة وعضو جمعية الهداية — دمشق ـ الشاغور
٥٣ ـ السيد رشيد الطرابيشي من الوجهاء والملاكين — دمشق ـ قنوات

الزاي

٥٤ ـ السيدة زاهية بنت عبد الخالق	مدينة حمص
٥٥ ـ السيد زكي بن هاشم هلال	دمشق ـ القيمرية
٥٦ ـ السيدة زينب بنت عبد الرحيم الصواف	دمشق ـ القيمرية

السين

٥٧ ـ السيدة سامية بنت مصطفى البيروتي	دمشق ـ العمارة
٥٨ ـ الشيخ سعيد بن راغب الشلاح ـ مدير المدرسة السعيدية	دمشق ـ مسجد الأقصاب
٥٩ ـ السيد سعيد بن محمد علي نظام	دمشق ـ القيمرية
٦٠ ـ الشيخ سعيد بن مصطفى الحافظ	مدينة حمص
٦١ ـ السيد سليمان الدندراوي	مصري الجنسية
٦٢ ـ السيد سليمان بن محمد علي موزة	دمشق ـ كفرسوسة
٦٣ ـ السيد سليم بن رسلان العلبي	دمشق ـ القيمرية
٦٤ ـ السيد سليم بن عبده شبورة القطان	دمشق ـ الميدان
٦٥ ـ السيد سليم بن عبده الوتار ـ من كبار التجار	دمشق ـ العمارة

الشين

٦٦ ـ الشيخ شريف اليعقوبي ـ من أعضاء جمعية العلماء	دمشق ـ القيمرية
٦٧ ـ السيد شفيق الحموي	دمشق ـ البحصة
٦٨ ـ السيدة شفيقة البارودي	دمشق ـ القنوات

الصاد

٦٩ ـ السيد صالح بن إبراهيم الشيخة	دمشق ـ كفرسوسة
٧٠ ـ الشيخ صالح فرفور ـ من أعضاء جمعيتي العلماء والتهذيب والتعليم	دمشق ـ العمارة

٧١ ـ السيد صبحي سنان	دمشق ـ الشاغور
٧٢ ـ السيد صبحي الدمغة جي	دمشق ـ القنوات
٧٣ ـ السيد صلاح الدين بن ديب الكردي	دمشق ـ العمارة
٧٤ ـ السيد صلاح الدين الشربجي	دمشق ـ كفرسوسة
٧٥ ـ السيد صلاح الدين بن عبد القادر كيوان	دمشق ـ القيمرية
٧٦ ـ السيد صياح بن عبد الله سنان	دمشق ـ سيدي خمار

العين

٧٧ ـ السيدة عائشة بنت حسن الشيخ حسن	دمشق ـ عربين
٧٨ ـ السيدة عائشة بنت عباس حسن	دمشق ـ عربين
٧٩ ـ الشيخ عارف بن سعيد الشوا ـ من طلاب العلم	دمشق ـ الشاغور
٨٠ ـ السيد عبد الباقي بن أحمد عيسى	دمشق ـ حمورة
٨١ ـ السيد عبد الحميد سنان ـ أمين سر شركة السيارات	دمشق ـ باب السريجة
٨٢ ـ الشيخ عبد الرحمن بن رشيد الخطيب ـ خطيب الجامع الأموي	دمشق ـ الشاغور
٨٣ ـ السيد عبد السلام بن علي الحفار	دمشق ـ قنوات
٨٤ ـ السيد عبد العزيز بن محمد بسمار	مدينة حمص
٨٥ ـ السيد عبد الغني بن سعيد دالي كباب	دمشق ـ الصالحية
٨٦ ـ السيد عبد الفتاح بن أحمد الصباغ	دمشق ـ القنوات
٨٧ ـ الشيخ عبد القادر بن أحمد قويدر ـ من العلماء الشرعيين والقراء	دمشق ـ عربين
٨٨ ـ السيد عبد القادر بن سعيد العاني ـ من أعضاء جمعية الهداية الإسلامية	دمشق ـ باب البريد
٨٩ ـ السيد عبد الله الدندراوي	مصري الجنسية
٩٠ ـ السيد عبد الله سنان ـ من رجال شركة السيارات	دمشق ـ القنوات

٩١ ـ السيد عبد الله بن الصالح أبو طالب ـ من الأدلة الماهرين	سعودي الجنسية
٩٢ ـ السيد عبد اللطيف بن حسن الملا	دمشق ـ كفرسوسة
٩٣ ـ السيد عبد اللطيف بن محمد بركة	دمشق ـ قضاء قطنا
٩٤ ـ السيد عبد اللطيف بن محمد نعيم	مدينة حماة
٩٥ ـ السيد عبد النبي بن محمد مكوار المغربي البواب ـ من تجار النقود	دمشق ـ القنوات
٩٦ ـ السيد عبده بن محمد عبد الهادي البذال	قضاء وادي العجم
٩٧ ـ السيد عبد الواحد بن علي الطيلوني	دمشق ـ سوق ساروجة
٩٨ ـ السيد عثمان بن بكري البردان	دمشق ـ كفرسوسة
٩٩ ـ السيد عثمان بن سعيد عرابي	دمشق ـ كفرسوسة
١٠٠ ـ السيدة عربية بنت سليمان الوكال	دمشق ـ كفرسوسة
١٠١ ـ السيد عزة بن عبد الحميد عجاجة	دمشق ـ كفرسوسة
١٠٢ ـ السيد عزة العطار	دمشق ـ الصالحية
١٠٣ ـ السيد عزة بن نعمان الخيمي	دمشق ـ العمارة
١٠٤ ـ السيد عز الدين السباعي	مدينة حمص
١٠٥ ـ السيدة عطية شرف الدندراوي	مصرية الجنسية
١٠٦ ـ السيد علي بن أحمد عثمان	دمشق ـ عربين
١٠٧ ـ السيد علي الرشواني	دمشق ـ محلة الأكراد
١٠٨ ـ السيد علي بن عبد الرحمن أبو عدله	دمشق ـ صالحية
١٠٩ ـ السيد علي بن عز الدين الحبال	دمشق ـ ميدان
١١٠ ـ السيد علي بن علي الملا	دمشق ـ عربين
١١١ ـ السيد علي بن محمد حسين المصري	دمشق ـ قضاء قطنا
١١٢ ـ السيد علي بن ياسين قشمر	دمشق ـ القنيطرة
١١٣ ـ السيد عوض بن مصطفى أمين	دمشق ـ الكسوة

الفاء

١١٤ ـ السيدة فاطمة بنت إسماعيل الخطيب	دمشق ـ العمارة
١١٥ ـ السيدة فاطمة بنت إسماعيل كوكة	دمشق ـ عربين
١١٦ ـ السيدة فاطمة بنت حسن صفصف	دمشق ـ عربين
١١٧ ـ السيدة فاطمة بنت سعيد دوغري	دمشق ـ الصالحية
١١٨ ـ السيدة فاطمة بنت علي الأشقر	دمشق ـ القيمرية
١١٩ ـ السيد فضل الدندراوي	مصري الجنسية
١٢٠ ـ السيد فهمي بن خليل الرومي	دمشق ـ سوق ساروجة
١٢١ ـ السيد قويدر بن علي قويدر (من الوجهاء)	دمشق ـ الميدان

الكاف

١٢٢ ـ كامل بن عمر القصار ـ أمين سر جمعية الهداية وعضو جمعية العلماء	دمشق ـ الشاغور
١٢٣ ـ السيد كامل بين يحيى النجار	دمشق ـ الميدان

اللام

١٢٤ ـ السيدة ليلى زوج عبد الباقي أحمد عيسى	دمشق ـ قرية حمورة

الميم

١٢٥ ـ السيد ماجد العاني من طلاب العلم الشرعي	دمشق ـ العمارة
١٢٦ ـ السيد محروس بن محمد شدودة ـ من سائقي شركة السيارات	
١٢٧ ـ السيد محمد بن أحمد البوايجي	دمشق ـ سوق ساروجة
١٢٨ ـ السيد محمد بن إدريس	من المعرة
١٢٩ ـ السيد محمد بن إسماعيل الخطيب	دمشق ـ العمارة
١٣٠ ـ الشيخ محمد الأشمر (زعيم المجاهدين)	دمشق ـ الميدان

١٣١ ـ السيد محمد البستاني	مدينة حلب
١٣٢ ـ السيد محمد خير بن رشيد الخشة	دمشق ـ الشاغور
١٣٣ ـ السيد محمد خير بن علي الحفار	دمشق ـ الخياطين
١٣٤ ـ السيد محمد خير مصطفى ويس (من الوجهاء)	دمشق ـ الميدان
١٣٥ ـ السيد محمد بن سالم العطار	مدينة حلب
١٣٦ ـ السيد محمد سعيد الصيداوي	دمشق ـ قضاء دوما
١٣٧ ـ الشيخ محمد بن سليم شخاشيرو	دمشق ـ الشاغور
١٣٨ ـ السيد محمد بن صالح القالش	دمشق ـ عربين
١٣٩ ـ السيد محمد بن محمد التاجي	دمشق ـ الميدان
١٤٠ ـ السيد محمد بن محمود الحبال	دمشق ـ الميدان
١٤١ ـ السيد محمد بن مصطفى أنجيلة	دمشق ـ قضاء دوما
١٤٢ ـ الشيخ محمد المكي الكتاني ـ من أعضاء جمعية العلماء ومن كبار الوجهاء	دمشق ـ الصالحية
١٤٣ ـ السيد محمد الهواري	دمشق ـ كفرسوسة
١٤٤ ـ السيد محمود بن أحمد الكوجك	دمشق ـ عربين
١٤٥ ـ الشيخ محمود بن أحمد ياسين ـ رئيس جمعية الهداية الإسلامية وعضو جمعية العلماء	دمشق ـ العقيبة
١٤٦ ـ الشيخ محمود خالد	دمشق ـ قضاء دوما
١٤٧ ـ الشيخ محمود بن عبد العزيز الحفار ـ من أعضاء الهداية الإسلامية	دمشق ـ سوق ساروجة
١٤٨ ـ السيد محمود بن عبد الفتاح داود	دمشق ـ القنوات
١٤٩ ـ السيد محمود عرار ـ من التجار	دمشق ـ الميدان
١٥٠ ـ السيد محمود بن محمد سعيد القالش	دمشق ـ عربين
١٥١ ـ السيد محمود بن محمود الخلوصي	دمشق ـ قضاء دوما

١٥٢ ـ الدكتور محيي الدين القوتلي ـ طبيب الرحلة الخاص	دمشق ـ العمارة
١٥٣ ـ السيد مرعي بن حسن إسماعيل	دمشق ـ مضايا
١٥٤ ـ السيدة مريم بنت إبراهيم الحربي	دمشق ـ عربين
١٥٥ ـ السيدة مريم بنت سعيد شحرور	دمشق ـ كفرسوسة
١٥٦ ـ السيدة مريم بنت عبد الرحيم الصواف	دمشق ـ القيمرية
١٥٧ ـ السيدة مريم زوج محمود كجك	دمشق ـ عربين
١٥٨ ـ السيدة مسرة البارودي	دمشق ـ القنوات
١٥٩ ـ الدكتور مصطفى الحاج ويس ـ من الأطباء اللامعين	دمشق ـ الميدان
١٦٠ ـ السيد مصطفى بن عباس شجاع ـ الخبير الميكانيكي للرحلة	إيراني الجنسية
١٦١ ـ السيد مصطفى بن عيد النشار ـ من التجار والوجهاء	دمشق ـ سوق ساروجة
١٦٢ ـ السيد الحاج مصطفى بن فارس العطار ـ من أعضاء جمعية الهداية الإسلامية	دمشق ـ مسجد الأقصاب
١٦٣ ـ السيد مصطفى بن كمال الحلبي	دمشق ـ الصالحية
١٦٤ ـ السيد مصطفى بن محمد عصفور	مدينة حمص
١٦٥ ـ السيد مصطفى بن محي الدين حسن	دمشق ـ عربين
١٦٦ ـ السيدة مكية البارودي	دمشق ـ القنوات
١٦٧ ـ السيدة مكية محي الدين	دمشق ـ حمورة
١٦٨ ـ السيد موسى كاظم ـ رئيس شركة السيارات السورية	دمشق ـ الصالحية

النون

١٦٩ ـ السيد نجم الدين إبراهيم	دمشق ـ القنيطرة

١٧٠ ـ السيدة نفيسة بنت صالح سيد حسن — دمشق ـ عربين

الهاء

١٧١ ـ الشيخ هاشم بن محمود السيد ـ من الخطباء وطلبة العلم الشرعي — دمشق ـ قضاء دوما

١٧٢ ـ السيدة هدية بنت زاهد شيخ الشلاحين — دمشق ـ سوق ساروجة

١٧٣ ـ السيدة هدية بنت محمد أبو الليل — دمشق ـ عربين

الواو

١٧٤ ـ السيدة وداد بنت عبد الله الحامي — دمشق ـ العمارة

١٧٥ ـ السيدة وسيلة البارودي — دمشق ـ القنوات

١٧٦ ـ السيدة وسيلة بنت عبد الرحمن حمادة — دمشق ـ عربين

الياء

١٧٧ ـ الشيخ ياسين بن إبراهيم الرواف ـ القنصل السابق للسعودية — سعودي الجنسية

١٧٨ ـ الشيخ ياسين بن عيد عرفة ـ تاجر ـ ومن أعضاء جمعية الهداية الإسلامية — دمشق ـ الشاغور

ـ والحمد لله رب العالمين ـ

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

وصف كامل شامل لرحلة الزيارة إلى المدينة المنورة ؛ التي قامت بها (جمعية الهداية الإسلامية بدمشق) بين الحربين العالميتين الأولى والثانية . بعد أن حقق المستعمر أمنية كبرى ، بنسف الخط الحديدي الحجازي ، الذي يربط بلاد الشام ببلاد الحجاز ؛ ليقطع المواصلات والتجارة فيما بين هذه البلدان . محققاً أهدافه الاقتصادية والسياسية والعقائدية ، باسطاً نفوذه ، على مبدأ (فرّق تَسُدْ) . وليحارب الأمة في أعظم شعائرها (الحج) والعمرة والزيارة ، في هذه المنطقة من العالم ، ومن يفد إليها من شمال وشرق البلاد الإسلامية ، المترامية الأطراف . وصف هذه الرحلة (الاستكشافية) رئيسُ جمعيتها العلّامة المحدثُ المرحوم الشيخ محمود أحمد ياسين ، بأسلوب واقعي علمي متأدب . تناول فيه جميع الجوانب التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، في كل قرية وكل مدينة مَرَّ بها وفد الزيارة ، مابين دمشق والمدينة المنورة ، تمهيداً لإعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي ، يوم لم يكن ثمة طريق برية معبدة . وقد وصف كل لقاء لعالم ، أو اجتماع مع فقيه وما دار في هذه اللقاءات من أحكام شرعية ومسائل دينية .

دار الفكر المعاصر